السنة الإسلامية

بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين

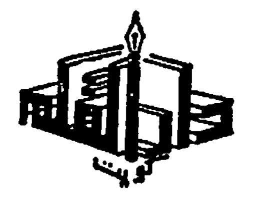
(مع مصطلح الحديث)

تأليف
دكتور رءوف شلبي
جامعة قطر



السُنّة الإسلامية
بين
إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين

تأليف
الدكتور رؤوف شلبي
الأستاذ في جامعة قطر



الطبعة الثانية : ١٤٠١هـ — ١٩٨١ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م
الطبعة الرابعة : ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م (مزيدة ومنقحة)



بسم الله الرحمن الرحيم

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)

(الحشر)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن ، ألا إنى قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر ، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إلا إذا أعطوكم الذى فرض عليهم »

(رواه أبو داود عن طريق العرباض وقال حديث صحيح) .

الإهـــداء

إلى روح فضيلة الشيخ الجليل – أبى – أهدى هذا المجهود المتواضع تقديراً لمنهجه فى التربية على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفضيله الإيثار السامى على السلوك الفاضل .

وإلى روح فضيلة الإمام الزكى الشيخ محمد محمد الأودن أسكنه الله فسيح جناته بقدر ما قدم لدينه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خدمات وتضحيات .

رءوف شلبى

« سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم » .

(رواه مسلم)

« إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

الإسناد من الدين

« ولولا الإسناد لقـــال من شاء ما شاء » .

(عبد الله بن المبارك)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد ...

فإن أشرف ما يشتغل به المسلم فى حلية العلم والدراسة ، هو أن تكون أعماله المخلصة خادمة لأصول الإسلام : القرآن الكريم وعلومه ، والسنة الشريفة المطهرة وعلومها ؛ ذلك لأن العلوم تمايز بتميز موضوعاتها ، وموضوعات أصول الإسلام ، هى أشرف ما على الأرض من علم سواء من حيث المصدر ، أو من حيث اتصال السند بالمصدر ، أو من حيث ما تضفيه هذه الأصول على الحياة من الرخاء ، والخير ، والأمن ، واليسر والأنس والبركات .

ولقد حث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة الإسلامية على أمرين :

الأول : أن تبلغ عنه .

الثانى : أن تعمل بالسنة .

• أما فيما يتعلق بالأمر الأول فقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« حدثوا عنى كما سمعتم ولا حرج إلا من افترى على كذبا متعمدا بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »(١) .

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعل التحديث عنه من خصائص هذه الأمة ، فقد روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم »(٢)

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنضارة لمن روى عنه الحديث الشريف ، فقد روى عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه عنا كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه »(٣) .

ومن طرق أخرى : فرب مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

وفى حديث آخر يحث فيه النبي صلى الله عليه وسلم الأمة على تبليغ السنة ما روى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه — نفيع بن الحارث ابن كلدة — قال : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم — وذكر خطبته يوم النحر — وفى آخره : ليبلغ الشاهد الغائب ، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه (٤).

ولقد أضفى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مبلغى سنته بأنهم خلفاؤه ودعا لهم بالرحمة، فى الحديث الشريف عن عبد الله بن عباس قال :

---

(١) رواه مسلم والبخارى وأحمد وابن ماجه .

(٢)رواه ابن حبان وأحمد وأبو داود

(٣) رواه الترمذى وأحمد وأبو داود

(٤) رواه البخارى من غير هذا الطريق فى باب حجة الوداع . ورواه مسلم فى كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .

سمعت على بن أبى طالب يقول : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم ارحم خلفائى قلنا : يارسول الله ومن هم خلفاؤك قال : الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى ويعلمونها الناس » (١)

ه وأما فيما يتعلق بالحث على الأخذ بالسنة والعمل بها فقد روى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إنى قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وسنتى ، فلا تفسدوه ، وأنه لا تعمى أبصاركم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما (٢) .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحيي سنته فى منزلة كمنزلة الصحابة يوم أن بدأ الإسلام غريباً ، ففى الحديث عن كثير بن عبد الله ابن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء ، قيل : يارسول الله فمن الغرباء ؟ قال : الذين يحيون سنتى من بعدى ويعلمونها الناس »(٣).

وفى رواية الترمذى :

إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية (٤) من رأس الجبل ، إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى . وهؤلاء العاملون بالسنة هم الطائفة التى وعدها رسول الله بأنها القائمة على الحق إلى قيام الساعة ، ففى الحديث الشريف من رواية معاوية ابن أبى سفيان :

---

(١) رواه أبو نعيم والهيثمى فى مجمع الزوائد والسيوطى فى مفتاح الخير .
(٢) رواه الخطيب فى كتابه : الفقيه والمتفقه .
(٣) رواه البخارى .
(٤) الأروية هى أنثى الوعول .

لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الحق (١) .

قال الإمام أحمد : إن لم تكن هذه الطائفة أصحاب الحديث فلا أدرى من هم ؟ ! .

قال الإمام البخارى : هم أهل العلم يعنى أهل الحديث .

وكان الأعشى يقول : لا أعلم لله قوماً أفضل من قوم يطلبون هذا الحديث ويحيون هذه السنة ، وكم أنتم فى الناس ؟ والله لأنتم أقل من الذهب (٢) ومع هذا الحث على التبليغ ، وعلى العمل بالسنة الشريفة . فقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من تعمد الكذب عليه ، وعمل الصحابة رضوان الله عليهم على وقاية المجتمع من هذا التعمد ، ولما وقعت الفتن اجتهد العلماء الأفذاذ فوضعوا معايير لضبط الرواية والسند ، وصحة قبول الحديث .

• أما فيما يتعلق بتحذير النبى صلى الله عليه وسلم من تعمد الكذب عليه ، ففى مسلم من طريق ربعى بن حراش أنه سمع علياً رضى الله عنه يخطب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار »(٣) .

وروى مسلم أيضاً من طريق المغيرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم الأمة فى آخر الزمان من أدعياء الاشتغال بالحديث فقال فيما يرويه مسلم من طريق أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم »(٤) .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام .
(٢) راجع الإلماع لأبى الفضل العياض ص ٢٧ تحقيق سيد صقر .
(٣) رواه مسلم فى المقدمة .
(٤) رواه مسلم فى المقدمة .

- وأما فيما يتعلق بموقف الصحابة من وقاية الأمة من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ابن عباس رضى الله عنه يرفض الإذن بالتحدث لمن شاء إلا بشروط وقيود ، فقد روى أن بشير العدوى جاء إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه . فقال : يا ابن عباس مالى لا أراك تسمع لحديثى ، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس : « كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف » .

- أما ما فعله جهابذة العلماء ، فقد أمضوا سنة السلف الصالح يقول ابن سيرين : إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون دينكم .

وقال أيضاً : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة : قالوا سموا لنا رجالكم فينظروا إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظروا إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .

وقال عبد الله بن المبارك : « الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء » .

وقال أيضاً : بيننا وبين القوم القوائم : يعنى الإسناد .

وقد شرح لنا الإمام مسلم رضى الله عنه طرفاً من فعل أهل الحديث فى تصفية الرواية من الفتن فقال : « ثم إنا إن شاء الله مبتدئون فى تخريج ما سألت وتأليفه على شريطة سوف أذكرها لك وهو : إنا نعمد إلى جملة ما أسند من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقسمها على ثلاثة أقسام ، وثلاث طبقات من الناس على غير تكرار .

فأما القسم الأول : فإنا نتوخى أن نقدم الأخبار التى هى أسلم من

العيوب من غيرها وأنقى من أن يكون ناقلوها أهل استقامة فى الحديث ، وإتقان لما نقلوا ، لم يوجد فى روايتهم اختلاف شديد ، ولا تخليط فاحش ، كما عثر فيه على كثير من المحدثين وبان ذلك فى حديثهم .

فإذا نحن تقصينا أخبار هذا الصنف من الناس أتبعناها أخباراً يقع فى أسانيدها بعض من ليس بالموصوف بالحفظ والاتقان كالصنف المقدم قبلهم على أنهم وإن كانوا فيما وصفنا دونهم فإن اسم الستر والصدق وتعاطى العلم يشملهم كعطاء بن السائب ويزيد بن أبى زياد ، وليث بن أبى سليم وأضرابهم من حمال الآثار ونقال الأخبار ، فهم وإن كانوا بما وصفنا من العلم والستر عند أهل العلم معروفين فغيرهم من أقرانهم ممن عندهم ما ذكرنا من الإتقان والاستقامة فى الرواية يفضلونهم فى الحال والمرتبة ، لأن هذا عند أهل العلم درجة رفيعة وخصلة سنية .

فأما ما كان منها عند قوم هم عند أهل الحديث متهمون أو عند الأكثر منهم فلسنا نتشاغل بتخريج حديثهم كعبد الله بن مسور أبى جعفر المدائنى ومحمد بن سعيد المصلوب .

فأما من تراه يعمد لمثل الزهرى فى جلالته وكثرة أصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره ، أو لمثل هشام بن عروة وحديثهما عند أهل العلم مبسوط مشترك قد نقل أصحابهما عنهما حديثهما على الاتفاق منهم فى أكثره ، فيروى عنهما أو عن أحدهما العدد من الحديث مما لا يعرفه أحد من أصحابهما ، وليس ممن قد شاركهم فى الصحيح مما عندهم فغير جائز قبول حديث هذا الضرب من الناس والله أعلم .

— وبعد — يرحمك الله ، فلولا الذى رأينا من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدثاً فيما يلزمهم من طرح الأحاديث الضعيفة والروايات المنكرة ، وتركهم الاقتصار على الأحاديث الصحيحة المشهورة مما نقله الثقات المعروفون بالصدق والأمانة بعد معرفتهم وإقرارهم بألسنتهم أن كثيراً

مما يقذفون به إلى الأغبياء من الناس هو مستنكر ومنقول عن قوم غير مرضيين ممن ذم الرواية عنهم أئمة أهل الحديث مثل مالك بن أنس ، وشعبة ابن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى وغيرهم من الأئمة لما سهل علينا الانتصاب لما سألت من التمييز والتحصيل، ولكن من أجل ما أعلمناك من نشر القوم الأخبار المنكرة بالأسانيد الضعاف المجهولة وقذفهم إلى العوام الذين لا يعرفون عيوبها خف على قلوبنا ما سألت . اهـ(١) المقدمة .

فهذه نبذة شريفة عن صورة من صور جهاد جهابذة العلماء فى تنقية الرواية من الضعف والضعيف والضعفاء .

أما الإمام البخارى فقد وضح الصورة للمحدث فقال :

اعلم أن الرجل لا يصير محدثاً كاملا فى حديثه إلا بعد أن يكتب أربعاً من أربع ، كأربع مثل أربع ، فى أربع عند أربع ، عن أربع لأربع .

وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا : بأربع مع أربع . فإذا تمت له كلها هان عليه : أربع ، وابتلى : بأربع . فإذا صبر على ذلك أكرمه الله فى الدنيا : بأربع ، وأثابه فى الآخرة : بأربع .

قلت — أى السائل — فسر لى ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف بشرح كاف ، وبيان شاف طالب للأجر الوافى .

فقال — يعنى البخارى — : أما الأربعة التى تحتاج إلى كتبتها هى : أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرائعه ، والصحابة ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم وسائر العلماء وتواريخهم من أسماء رجالهم وكناهم ، وأمكنتهم وأزمنتهم . . إلخ ، كالتحميد مع الخطب ، والدعاء مع الرسل ، والبسم مع السور ، والتكبيرات مع الصلوات ، مثل المستندات ، والمرسلات ، والموقوفات ، والمقطوعات فى صغره ، وفى إدراكه ، وفى كهولته ، وفى

(١) راجع مقدمة مسلم الجزء الأول ص ١٨٤ .

شبابه ، عند فراغه وعند شغله وعند فقره ، وعند غناه ، بالجبال والبحار ، والبلدان ، والبرارى على الأحجار والأصداف ، والجلود ، والأكتاف ، إلى الوقت الذى يمكنه نقلها إلى الأوراق عمن هو فوقه ، وعمن هو مثله ، وعمن هو دونه ، وعن كتاب أبيه بتيقن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طالباً لمرضاته والعمل بما وافق الكتاب منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها ، والتأليف فى إحياء ذكره بعده .

ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع من كسب العبد :

أعنى : معرفة الكتابة واللغة ، والصرف ، والنحو ..... مع أربع هى من عطاء الله تعالى :

أعنى : القدرة ، والصحة ، والحرص ، والحفظ .

فإذا تمت له هذه الأشياء هان عليه أربع :

الأهل ، والولد ، والمال ، والوطن .

وابتلى بأربع : شماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء وحسد العلماء .

فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله فى الدنيا بأربع :

بعز القناعة ، وبهيبة النفس ، ولذة العلم ، وحياة الأبد .

وأثابه فى الآخرة بأربع :

بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ، وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، ويسقى من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبجوار النبيين فى أعلى عليين فى الجنة .

ثم قال البخارى للسائل :

« فقد أعلمتك يابنى مجملا جمع ما كنت أسمع من مشايخى متفرقاً فى هذا الباب مجمعاً ، فأقبل الآن على ما قصدتنى له أو دع » اه .

* * *

فهل لواحد من مثقفى علمانية العصر الحديث مجال أو رأى فى السنة أو فى عمل هؤلاء الأفذاذ الأجلاء الأتقياء ؟

هذا : ولقد شرفنى الله تبارك وتعالى بخدمة أصول الإسلام : القرآن وعلومه والسنة الشريفة وعلومها ردحاً طويلا من الزمن ، وكانت فى غربة بعيدة بالجامعة الإسلامية الحكومية فى سومطرة الجنوبية ، وكلية الدراسات الإسلامية بماليزيا . إحدى كليات الجامعة القومية بالعاصمة كوالا لومفور .

ولقد سعدت بنشر حاصل هذه الدراسة ، فى كتابى الأول عن السنة ثم تابعت الدراسة فى موضوع دقيق أطنب فيه العلماء القول ، وأفرد بعضهم لبعض موضوعاته الكتب الطوال ، ولقد كانت العلة التى يئن منها طلبة هذه الدراسة وأعنى بهم طالبى فهم مصطلحات أهل علم الدراية فى الحديث الشريف بالإطلاق العام أنهم يتحيرون فى جمع المصطلحات تحت قاعدة أو نقطة ارتكاز بحيث يمكن تصور ترابط المصطلحات إما بالتسلسل إذا كانت فرعاً عن علة واحدة أو بالتضاد إذا كانت نقيضاً لشروط لم تتحقق، وأن الأوائل لم يتركوا للأواخر كثيراً من الجهد. فقد بذل شيوخنا من السلف الأمين النقى أقصى طاقات الفكر والتعقل لخدمة علوم السنة الشريفة : إن فى مجال الرواية ، وإن فى مجال الدراية . حتى امتلأت المكتبة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بالأمهات من المراجع التى محصت وقننت علم الدارية أو علم الإسناد . حتى صارت مادة علوم الحديث أثرى مادة علمية فى المجال الفكرى ولم يبق لواحد من أفذاذ العصر الحديث مجال لنشاط يذكر فى هذه الحلبة التى حاز فرسانها على كل قصب السبق رضى الله عنهم وأرضاهم .

ولكن الذى عمدت إليه فى هذه الدراسة هو تجميع المصطلحات تحت نقطة ارتكاز هى قاسم مشترك بين هذه المصطلحات بحيث يصبح سهلا على الطالب أن يتصور تفرع مصطلح من المصطلحات من نقطة معينة .

ووضعت لهذا ركائز كلية فقسمت الحديث من ناحية :
الكم .
والطرف الذى تنتهى إليه نسبة الحديث .
وحال الرواة من حيث الضبط والعدالة . . . إلـــخ .

• فإذا ما ذكر الكم : تصور الطالب أن الحديث من هذه الحيثية أو من هذه الركيزة ينقسم إلى متواتر وآحاد ثم الآحاد ينقسم إلى مشهور وغير مشهور . . . إلـــخ .

• ومن حيث الطرف ينقسم الحديث إلى مرفوع وموقوف ومقطوع .

• ومن حيث حال الرواة ينقسم إلى صحيح وحسن وضعيف .

ثم تأتى الفروع المتفرعة بعد ذلك فيحصل فى المخيلة صورة مترابطة لعلاقات المصطلحات من جهة هذه الحيثيات .

ولأن جهدى هو بذل طاقة متواضعة بعد الطاقات الكبرى التى بذلها علماؤنا الأجلاء من السلف الأمين الكريم النقى الطاهر ، فقد سميت هذه الدراسة : « منهج المحدثين فى ضبط السنة » : إبرازاً للقيمة الكبرى التى قدمها علماؤنا الأجلاء للسنة الشريفة من خدمة وتحصين وحماية ودفاع .

ولقد كانت الدراسة نتيجة عمل متواصل منذ وضعت فى كتابى : السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين . وفيها قسم كامل عن التدوين الذى قسمته إلى قسمين :

تدوين رسمى : وكان له أمران رسميان من :
الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز .
وأمير المؤمنين : أبى جعفر المنصور .

وتدوين شعبى : هو جهود العلماء الذين هبوا لحماية السنة وجمعها على أصول وشروط وقوانين ،وكنت بفضل الله تبارك وتعالى أول من بدأ هذا اللون من الدراسة والتسمية فى موضوع تدوين السنة ، ولما كان

الموضوع شافياً وكاملا فى كتابى هذا فقد ضممت إليه منهج العلماء فى ضبط الرواية وضبط السند أو تقسيم الحديث وفاء لمادة علوم الحديث ، فقد أوصانى والدى رحمه الله تعالى ألا أحيل لأن الإحالة تخلق شعوراً من الضيق ، وقد لا يكون الكتاب المحال عليه ميسرا ساعة التحصيل . . . فجمعت كل هذه الدراسة فى كتاب واحد هو هذا الكتاب الذى يقدم للمرة الرابعة للطباعة بفضل الله .

أسأل الله أن يجعل النية خالصة لوجهه الكريم ، وأن ينفع بهذا الكتاب من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

دكتور / رءوف شلبى
(متولى يوسف حسن شلبى)

الدوحة — قطر
فى ٤ جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ
٢٩ من مارس سنة ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين العاقب الذى لا نبى من بعده أبداً ، ورضى الله تعالى عن الصحابة والفقهاء والمحدثين والمجاهدين فى سبيل الله مخلصين ، موحدين إلى يوم الدين ، أما بعـــد :

فإن المطالعين للعلم الإسلامى وغيره يجدون ظاهرة تفرق بين قيمة كل منهما ، من ناحية الخلق والهدف ، والسنة الإسلامية كواحد من العلم الإسلامى تسهم فى توضيح حقيقة هذا الفرق بين العلم الإسلامى وما يخالفه . . .

فالمحدثون يأخذون الحديث عن شيوخهم ، وأترابهم وتلاميذهم كما ستجدونه محققاً فى فؤاد هذا الكتاب وكل واحد ملتزم للخلق الرفيع لا يطعن ولا يذم ولا يحقر صاحبه . أما العلم غير الإسلامى ، ولنأخذ الفلسفة واحداً منه توضح لنا حقيقة الفرق ، فإنها قامت على أساس محاولة العقل للتعرف على الحقيقة ، وفى سبيل ذلك استباح التلميذ لنفسه أن يحقر من شأن أستاذه : : :

ـــ فأفلاطون لا يوقر لسقراط مقالة :

وأرسطو لا يوقر لأفلاطون ولا لجده سقراط رأياً .

ذلك : لأن العلم الإسلامى علم الكرامة الإنسانية التى تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولأن العلم الإسلامى علم معصوم لأنه وحى الله

أو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . أما الفلسفة فهى حوار العقل ، وصلف الذات وكبرياء الذكاء . . . وشخصية المفكر . . . والكل جميعاً مختلف . . . ؟

وفرق بين الحق من مصدره المصون .

ومحاولة التعرف بالوسيلة العاجزة بالذات . . . ؟

لهذا كان لشيوخ السنة طابعهم المهذب الورع ، البناء ، فأسسوا بذلك أول مدرسة علمية تهدف إلى كرامة البشر وإلى توضيح حقيقة التعلم وأسلوبه ، وغايته .

— فالتلميذ يأخذ عن شيخه فى أدب واحترام ، ووقار : . .

— والشيخ يجلس ليستمع من تلميذه بعد النضوج ، فى فرحة ، وحب وتكريم .

ومن هنا فإن حياة السنة الإسلامية بين العلماء تعطى قاعات البحث العلمى روح المنهج السليم الذى يحدد وظيفة النقد البانى للعلم الخالص من أجل الحق وصراط مستقيم . . . ؟

إنه متوجه إلى أسلوب النشاط الموصل إلى الهدف وليس متوجهاً إلى ذات العالم أو فكره ، وكذلك هو محترم الظروف والإمكانيات ، وقائم على أساس من الاحترام ونبل القصد وسمو الغاية ، وقد ورث ذلك المنهج أسلوب قيادة حكيمة ؛ إذ يقول عمر رضى الله عنه : (رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا) فجعل النقد هدية . لأن هدفه الإصلاح والحق والخير ، فإذا لم تهد إليه أخطاؤه تنكب الطريق دون قصد ، ولهذا : فإن المناهج العلمية فى العصر الحديث — وخاصة مناهج المستشرقين فى دراساتهم الإسلامية — تنادى بالحيدة العلمية والتجرد من الدين عند البحث مغالطة لتعتدى على الإسلام بهذه الصيحة الخرساء ، ويستعمل المستشرقون منهج العكس وقلب الحقائق :

١ — فيزورون فى النص الذى ينقلونه ليصلوا إلى غايتهم .

٢ ــ ويفسرون خطأ أسلوب العلم .

٣ ــ ويلقون أخطاء ثقافتهم على العلوم الإسلامية ، وهى عملية يسميها علماء النفس (عمليه الإسقاط) ، وهى عملية خاصة بالمرضى والمصابين بضعف الشخصية وسوء النية ، لهذا :

اتجهت دراسة هذا الكتاب إلى :

ــ عرض السنة فى كل أطوارها عرضاً أميناً واضحاً .

ــ دفع شبه المحرفين بعد المناقشة وتوضيح الأدلة .

ــ مناقشة المستشرقين وتوضيح سمات منهجهم ليعرف المجرمون بسياهم .

ــ دفاع عما توهمه بعض أصحاب المذاهب الخاصة . . . من شبهات إيمانا بالحق الأبلج .

ــ توضيح بعض الكتب والمؤلفين الذين يكتبون فى السنة ويضعون فى داخل كتبهم سموماً يعنونون لها بأسماء عاطفية تهز المشاعر أو يستندون فى مؤلفاتهم على كتب لا تمثل النظرية العلمية الإسلامية ، أو المصدر الصحيح حتى تتجنبوا الخطأ .

وقصدى هو أن أسهم مع الدعاة المشتغلين فى الحفاظ على تاريخ السنة بنية خالصة فلئن كنت قاربت الصواب فمن الله التوفيق ولئن كنت قد ابتعدت فالنصيحة واجبة ومقبولة ، فإن العلم ليس وقفاً على كبير ، والذكاء منحة الله كما وهبها الكبير المجرب لم يحرم منها الصغير الناشىء .

قصة هذا الكتاب :

وقصة هذا الكتاب قصة طريفة فقد ساقه الله كجزء من العمل الطيب لتمضية فراغ هائل عشت فيه زهاء شهر ونصف بجاكارتا عام ١٩٦٤ م فقد كان الأزهر الشريف أوفد بعثة إلى أندونيسيا لمساعدة المنظمات والهيئات الإسلامية وكنت واحداً من وفد أرسله الأزهر إلى هذه الديار

ولما وصلت إلى جاكارتا العاصمة وكنت قد سبقت الوفد الكريم أنزلتنى وزارة الشئون الدينية فى هوتل يسمى «هوتل وزماانده » وكان يقع فى دائرة حيوية تموج بالحركة طول الليل والنهار فى منطقة تسمى Tanahabahg (الأرض الحمراء) شارع المطاط Jalankaret ، وفنادق أندونيسيا جميلة جمال البلد ذاتها تحيط بها الحدائق النظيفة الرائعة ، ولقد مكثت فى هذا الفندق زهاء شهر ونصف الشهر أنتظر التوزيع على المحافظات . . . فأحسست بفراغ هائل وأن الزمن يضيع هباء . . . وكان الفندق ينزل فيه جلة من العاملين بالتجارة من العرب ومن الأندونيسيين الذين لهم صلة بالعلم وكان الزمن قريباً من انتهاء مؤتمر تبشيرى فى جاوا وقد كان من ضمن قراراته لتنصير المسلمين فى أندونيسيا : العمل على زعزعة الثقة من نفوس المسلمين فيما يتعلق بالسنة الإسلامية فعكفت منذ يوم الأربعاء ٥ من شهر شعبان سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ م على دراسة تاريخ السنة ووضع مؤلف سهل مبسط ميسور لطلبة الجامعة التى سوف أعمل فيها .

ولقد كانت النية مخلصة لوجه الله تعالى فذلل الله كل صعب ووفق الله لى أن أدرس هذا الكتاب فى عدة كليات من جامعات سومطرة وجاكارتا ، لأن العجز فى هيئة التدريس بالجامعات الإسلامية جعلها تأخذ بنظام الأستاذ الطائر الذى ينتقل بين الكليات فى البلدان الشاسعة بالطائرة ، وقد كان من فضل الله على أن درست هذا الكتاب فى :

كلية أصول الدين	بمدينة فالمبانغ
كلية التربية	بمدينة لامفوغ
كلية الشريعة	بمدينة بنكولو
كلية الدراسات الإسلامية	بجاكارتا ــ جاتى نجارا
كلية أصول الدين	تشروب ــ سومطرة الجنوبية
كلية الشريعة	بمدينة جامبى

ثم فى ماليزيا بكلية الدراسات الإسلامية بكوالامفور عام ١٩٧٢/٧١

ولم أر بأساً أن أقدمه إلى المكتبة العربية على صورته التى انتهيت منها فى أندونيسيا بمنزل السيد حسين شهاب بمدينة فالمبغ فى ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ١٤ من أغسطس سنة ١٩٦٥ م بسومطرة الجنوبية ليرى القارىء العربى صورة من صور الثقافة الإسلامية التى تحتاج إليها الأقطار الإسلامية الشقيقة غير الناطقة بالضاد .

وشاكر دار القلم بالكويت على تفضلها بقبول نشر الكتاب وفاء للسنة الإسلامية المطهرة ، وحباً فى صاحبها سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبالله التوفيق . . .

(دكتور / رءوف شلبى)

(متولى يوسف شلبى)

أ

في تعريف السنة وحجيتها ووظيفتها

١ ــ تعاريف السنة :

في اللغة ، عند علماء الإسلام

شبهة حول التسمية

٢ ــ السنة كمصدر أساسي للتشريع الإسلامي .

أدلة الفاهمين ، رفض الجاهلين

٣ ــ وظيفة السنة ومنزلتها من القرآن .

٤ ــ أقسام السنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الإسلامية

(ا) تعريفها :

١ — فى اللغة العربية :

تطلق السنة — قبل الإسلام — بمعنى الطريقة المعتادة مطلقاً فتشمل :

الطريقة الحسنة .

الطريقة السيئة .

وقدى جرى اللفظ القرآنى فى عدة مواضع على هذا الاستعمال حين بين سنن الأمم الماضية ، وحين يؤكد لأذهان البشرية سرمدية سنة الله تعالى فى الكون ، يقول الله تعالى :

« قد خلت من قبلكم سنن » ١٣٧ آل عمران .

« سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » ٧٧ الإسراء

« سنة اللهفى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » ٦٢ الأحزاب

كذلك استعملت النبوة الإسلامية السنة بهذا المفهوم العام : يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

فالحديث يفيد أن الطريقين : الحسن والسيىء فى السلوك سنة مسنونة وصاحبها فى كلتا الحالتين مجازى على الخير ومعاقب على الشر .

وهذا الجمع بين السلوكين فى الحديث جار على عمومية المفهوم اللغوى لمعنى كلمة سنة فى اللفظ العربى .

٢ - أصل كلمة سنة فى التعبير العربى :

« . . وهذا المفهوم اللغوى العام لكلمة سنة له أصل فى اللغة فهو مأخوذ من الأساليب الآتية :

١ - من قول العرب « سن الإبل » بمعنى أحسن رعيها .

٢ - أو من قول العرب « سن الماء » إذا داوم على صبه .

٣ - أو من قولهم « سن النصل » إذا صقلها وحدها .

وهذا الاستعمال يفيد استعمالها فى العادة الحسنة والسيئة :

فإن رعى الغنم عادة حسنة ، وسن الماء قد يكون عادة حسنة إذا قصد من دوام الصب منفعة ، وقد يكون عادة سيئة إذا كان المراد بدوام الصب مضرة ، وحد النصل على مفهوم الحياة الجاهلية كان أكثر الباعث عليه البغى فى الحروب ، وكان حلف الفضول لرد المظالم وإغاثة الملهوف .

ويؤكد لنا عموم هذا المفهوم فى استعمال العرب أيام الجاهلية لكلمة سنة قول الشاعر :

فلا تجز عن سن سيرة أنت سرتها   فأول راض سنة من يسيرها

ومعناه : إذا أحدث الإنسان عادة سيئة وسلك طريقها عملياً وارتضاه لنفسه فلا ينبغى فى نظر العقل والعدل أن يجازى وأن يعاقب إنساناً يسلك من بعده نفس الطريق .

ومن هذا العرض ندرك أن السنة لها شطران فى الاستعمال اللغوى العام :

١ - الطريقة الحسنة .

٢ ـ الطريقة السيئة .

وأنها تشملهما معاً فى هذا التعريف .

(ب) تعريف السنة عند علماء الإسلام :

ولكن السنة بالمفهوم العام قبل الإسلام لم يدم لها هذا الحظ من العموم بعد مجيء التشريع الإسلامى، فقد أخذت المفاهيم فى الحياة البشرية تتسم بالتخصيص الذى يضبط — على أمثل فضيلة — حياة البشر فأخذت السنة فى حركة هذا النشاط طابعاً جديدا ، وهذا الطابع كان له سمات عند علماء الإسلام ، وهذه السمات حددها شيوخ المسلمين فى شكلين حسب المقصود من الآثار المترتبة على مفهومية هذه القسمات .

فالسنة عند علماء الفقة ، غيرها عند علماء أصول الفقه ، لا لاختلاف بينهم فى تحديد المفهوم بل تحديداً لمفهومها على ما يترتب عليه من تحديد المقصود فى الاشتغال بالسنة ، إذا الفقيه يتناول السنة من زاوية ، والأصولى ينظر إليها من زاوية أخرى، على نحو ما سيوضحه لنا التعريف عند كل منهما:

عند علماء الفقه الإسلامى :

هى فى اصطلاح جماعة من علماء الفقه : (الفعل الذى دل الخطاب على طلبه طلباً غير جازم) ، فهى بذلك تقابل الواجب ، فلا تشمل المندوب ، ولا المستحب ، ولا التطوع ، ولا النفل .

وعرفها آخرون من علماء الفقه بأنها : (ما يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها) ، وهى بهذا ترادف المندوب ، والمستحب ، والتطوع ، والنفل ، وتشملها جميعاً .

ومن هذين التعريفين لعلماء الفقه ندرك أن السنة عند علماء الإسلام (الطريقة الحسنة ، التي تعرف الإنسان السلوك الفاضل فى طريقه إلى الله) .

كما ندرك أن الفرق بين المفهومين عند علماء الفقه هو :

١ — أن التعريف الأول خاص بالسنة التى تقابل الواجب .

٢ — وأنها فى التعريف الثانى عامة تشمل كل فعل مسنون سواء كان سنة مؤكدة ، أو مستحبة ، أو كان فعلا مندوباً ، أو نفلا . . إلــخ .

عند علماء أصول الفقه والحديث :

(أ) أما علماء أصول الفقة الإسلامى فإنهم يضعون تعريفاً للسنة الإسلامية يغاير تعريفى علماء الفقه فيقولون (السنة هى ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو صدر عنه : من قول ، أو فعل أو تقرير) — فهى عندهم مصدر للحكم وأساس للتشريع ، لأنهم ينظرون إليها من جهة كونها قواعد كلية يمكن للعقل أن يستنبط منها الحكم الشرعى .

ومن هنا ندرك أن الفرق بين التعريفين عند علماء أصول الفقه ، وعلماء الفقه :

١ — أن السنة دليل الحكم الشرعى — عند علماء أصول الفقه .

٢ — وأنها هى نفس الحكم — عند علماء الفقه .

(ب) وأما علماء علوم الحديث فيتفقون مع علماء الأصول فى تعريف السنة على هذا النحو الذى ذكرناه آنفاً .

شبهة حول التسمية

بحكم طبيعة الحياة فإن الخير لا يسلم من الشر ، وأن العدل لا يسلم من الجور ، ولقد قيض الشيطان عناصر تفترى على الإسلام وعلى مصادره ، فقد زعم بعض الباحثين أن التعبير بكلمة سنة أخذه المسلمون من الكلمة العبرية (مشناة) التى تطلق فى الاصطلاح اليهودى على مجموعة الروايات الإسرائيلية التى تعتبر فى نظرهم مرجعاً أساسياً فى التعرف على أحكام التوراة ، كما تعتبر شرحاً وتفسيراً لها ، ثم عربها المسلمون إلى كلمة (سنة) ،

ويدعى اليهود أن المسلمين أطلقوها – بعد التعريب – علماً على مجموعة الروايات المحمدية فى مقابل استعمالهم لكلمة (مشناة) علماً على مجموعة الروايات الإسرائيلية .

الرد على هذه الشبهة

اعتراض اليهود على كلمة (سنة) ملخص فى نقطتين :

١ – أن المسلمين عربوها من كلمة (مشناة) .

٢ – وأن المسلمين أطلقوها علماً على مجموعة الروايات المحمدية فى مقابل ما صنعه اليهود من إطلاقهم كلمة مشناة على مجموعة الروايات الإسرائيلية التى تشرح لهم التوراة ، وتعتبر المصدر الأساسى فى التعرف على الأحكام .

أولا : ١ – ودون إجهاد فى التفكير فإن المسلمين الأوائل لم يطلقوا كلمة سنة علماً على شيء من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن السنة لم تأخذ حظها من التدوين الرسمى إلا بعد المائة الأولى من الهجرة .

ولكن المسلمين الأوائل استعملوا – كلمة سنة – فى توضيح حياتهم السلوكية ، على نظام ما كان يسلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ – ومن ناحية أخرى فإن السنة الإسلامية ، لم تكن مجموعة الروايات المحمدية فقط ، بل هى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير لعمل الصحابة فى سلوك معين يتفق مع مبادىء الإسلام وروحه .

٣ – وثمة فرق آخر وهو أن المشناة اليهودية فى نظر اليهود هى المصدر الأول للديانة اليهودية والتشريع اليهودى ، وأنها هى التى تشرح لهم التوراة .

ومعناه : أنهم يأخذون الأحكام من المشناة فقط ، وأنهم يفسرون

التوراة على المشناة ، ومفهوم هذا أنهم تركوا التوراة نهائياً إلى (مشناة ألفها علماء اليهود إرضاء لأهوائهم) .

وليس الأمر كذلك فى السنة الإسلامية لأنها المصدر الثانى للتشريع وهى مرويات نبوية ، ولا مدخل لأحد من علماء الإسلام فى شيء منها إلا بحفظها ورعايتها وتنفيذها .

إنها مرويات نبوية تفسر فى القرآن أحكاماً مجملة ، أو هى تشريع لحادثة جزئية معينة .

والرسول صلى الله عليه وسلم صاحبها هو الذى سماها ، وأطلق عليها — سنة — فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا من بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » وقال عليه السلام : « من رغب عن سنتى فليس منى » .

ثانياً : ١ — لا يتقبل العقل الفاحص فهم تعريب مشناة إلى سنة ، لأمرين :

الأول : لعدم المشابهة فى الحروف والبنية .

الثانى : عدم وجود دليل تاريخى يثبت التقاء العرب الأميين باليهود ، فإن العرب أمة أمية ، وقبل الإسلام كانت وثنية الدين ، ولم تكن هناك دلائل اتصال ثقافى بين العرب واليهود :

× لا من حيث التقاليد والعادات .

× ولا من حيث نظام الأسرة .

× ولا من حيث الطقوس الدينية .

فمن أين توصل العرب للتعرف على — مشناة اليهود — ليعربوا عنها كلمة سنة . . . . ؟

إن العقل الباحث الأمين لا يقبل ادعاء اليهود أن العرب الأوائل

المسلمين قد عربوا مشناة إلى سنة ، لعدم وجود دليل تاريخى يثبت الاتصال الثقافى بين الأمة العربية وبين اليهود ، كما لم يثبت أن هنالك التقاء بين الديانات الوثنية فى بلاد العرب وبين اليهودية الشريدة .

٢ — كذلك يتأكد للباحثين أن كلمة سنة عربية أصيلة فى الاستعمال العربى قبل الإسلام، وورودها فى الشعر الجاهلى على نحو ما ذكرناه سالفاً لا يترك مجالا لفرضية بحث تعريب كلمة سنة من مشناة .

٣ — كما أن ورودها فى القرآن الكريم ، وفى السنة الإسلامية بالنص الحرفى :

« سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا » (٧٧ الإسراء)

« سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الفتح ٢٣).

(من رغب عن سنتى فليس منى) .

(من سن سنة حسنة فله أجره وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

فذلك كله مما يزيد التأكيد تأكيداً وينفى احتمال فرض أن المسلمين عربوا كلمة سنة من الاصطلاح اليهودى (مشناة) وبهذا يتضح لنا أن كلمة سنة :

١ — عربية أصيلة .

٢ — وأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد استعملاها .

٣ — وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى سمى السنة ووضع كلمة سنة علماً على ما ورد عنه أو قرره .

٤ — وأن المسلمين لم يعربوها عن مشناة اليهود لأنه لم يثبت :

(أ) لقاء ديني بين العرب واليهود :
(ب) ولا لقاء ثقافي .
(جـ) ولا لقاء أسرى .

وبهذا ينمحي من الإمكان فرض أن المسلمين عربوا كلمة سنة من كلمة (مشناة) ، وأنه فرق كبير بين ثريا المحجة البيضاء في الإسلام وبين ثرى المحرفين الذين لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم بما كانوا يصنعون .

السنة كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي

الاحتجاج بالسنة على ثبوت الحكم الشرعي معناه : الاعتماد على السنة فى استنباط الحكم الشرعي وثبوث التكليف به .

والسنة بهذا الاعتبار كانت مثار أحاديث طويلة بين العلماء :

١ — فمنهم البصراء المدققون الواعون الحافظون على الإسلام علمه وثقافته ، وأصوله ، فى التشريع ، فاحترموا حجية السنة ، وآمنوا بثبوت التكليف بالحكم المستنبط من السنة المطهرة وأولئك هم العلماء المسلمون المفلحون .

٢ — ومنهم فريق آخر التبست أمام بصره الحوادث وقصر فهمه عن أسرار التشريع ، أو جعلت ثقافته الأولى ستاراً على عقله فقاس الأمور بالهوى والتعصب ، فرفضوا حجية السنة ، واكتفوا بما فى القرآن الكريم . . . وتلك مغالطة منهم ، وأولئك هم العلماء السطحيون فى الفهم قصار النظر فى الحفاظ على الإسلام ، حضارته وعلومه ؟

نسأل الله لهم المغفرة ، فإنه جل شأنه يعفو عن كثير .

وإليكم أدلة العلماء الثقات المحترمين لحجية السنة ، وسنتبعها بشبهات الفريق الآخر والرد عليها :

الأدلة على حجية السنة

يقدم علماؤنا المسلمون المعترفون بثبوت الحكم المستنبط من السنة الشريفة عدة أدلة على أن السنة مصدر من مصادر التشريع الإسلامي يثبت به الحكم ، ويقع به التكليف .

وتلكم الأدلة هى :

١ — أن العصمة صفة لازمة وواجبة بالشرع للنبى صلى الله عليه وسلم ويترتب عليها حتمية صدقه عليه الصلاة والسلام ، فى كل ما ينطق به من :

(أ) — قرآن تلقاه عن الله عز وجل بالوحى .

(ب) — أحاديث قدسية بلغها إليه الوحى باللفظ أو به مع المعنى .

(جـ) — أحاديث نبوية يشرح بها النبى صلى الله عليه وسلم حكما شرعيا يبين حله ، أو تحريمه .

وفى هذا ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا إن ما حرم رسول الله كما حرم الله »

ويؤكد لنا حتمية وجوب هذا الصدق ما يتلوه القرآن الكريم فى سورة الحشر : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الآية ٧) ؛ وفى سورة النساء : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (الآية ٨٠) ، « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً » (١١٥ النساء)

وحول هذا الوجوب الحتمى يروى الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع : إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أمره فاحذروه ، إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة رسوله .

٢ — أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على الاعتماد بحجية السنة ، ونظموا حياتهم على هدى من توجيهها فقد كانوا يلجئون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تنزل بهم الضائقات ، مع قدرتهم على تفهم القرآن ، واستنباط الحكم منه .

يشهد لهذا ما يروى أن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : عندما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم تقضى إن عرض لك قضاء ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره ، وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله » .

ففى الحديث شاهد أن الصحابة كانوا يرجعون إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبهم أمر ، أو عن لهم قضاء ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أقرهم على هذا العمل وأن الصحابة أجمعوا على صحة هذا التصرف :

٣ — ومما يقطع لنا بحتمية الاحتجاج بالسنة أن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من علماء المسلمين بل أمر المسلمين إذا نزل بهم نازل أن يرجعوا إلى الله ورسوله وإلى أولى الأمر القادرين على استنباط الحكم للواقعة ، يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »
(٥٩ النساء)

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » (٧٣ النساء)

فالآية الأولى تشهد لنا أن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بطاعة رسول الله بعد أن أمرهم بطاعته وأن يرجعوا إلى الله ورسوله إذا وقعت بينهم أو بهم منازعات .

والآية الثانية تشهد لنا أن الله أمر المسلمين بالرجوع إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر الذين منحهم الله القدرة على استخراج الحكم الشرعى من القواعد العليا فى القرآن والسنة .

وهذا الرجوع يفسره لنا سيدنا ميمون بن مهران رضى الله عنه فيقول :

الرد إلى الله : هو الرجوع إلى كتابه ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرجوع إليه فى حياته وإلى سنته بعد مماته .

ويزيد ابن القيم الأمر توضيحاً فى شرحه لقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » (٦٢ النور)

يقول : إذا كان الله سبحانه وتعالى جعل من لوازم الإيمان ألا يذهب المسلمون ، إذا كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر جامع أى مذهب إلا إذا استأذنوه ، فإنه من الأحرى والأولى أن يكون من لوازم الإيمان ألا يذهب المسلمون — وقد أكمل الله لهم دينهم فى مجال : العقيدة ، والتشريع ، والأخلاق .. إلخ، إلى مذهب ما : من تشريع ، أو علم . . . إلا بعد أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستئذانه :

(أ) إما فى حياته بالرجوع إليه ، كما ذكر سيدنا ميمون بن مهران .

(ب) وإما بالرجوع إلى سنته بعد مماته .

٤ — وخاتمة الحديث أن القرآن الكريم فيه كثير من النصوص التى تلزم المسلمين بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤازرته وتزكيته فى مبايعتهم له ، وفيه نعى على من دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فأعرض ، ووصفهم الله بمرض النفاق ، كما فيه فلاح المؤمنين الذين تبش نفوسهم إذا دعوا ليحكم بينهم الله ورسوله ، يقول الله تعالى :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » . (النور ٤٧)

« وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » .

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » . (٤٧ — ٥٢ النور)

ومن الخشية أن يطيع المؤمنون رسول الله بالرجوع إليه حيا ، وإلى سنته وهو فى الرفيق الأعلى .

لكل هذا — وغيره كثير — يرى علماؤنا الثقات أن السنة الإسلامية مصدر أساسى من مصادر التشريع الإسلامى ، وأن الاعتماد عليها أمر حتمى فى تنظيم الناس حياتهم ومعاشهم، ولقد مكن الله للسنة الإسلامية فى النفوس الطاهرة :

(ا) فكانت السنة عند فقهاء المسلمين جميعاً صاحبة المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم فى استنباط الحكم الشرعى .

(ب) واتفق العلماء المجتهدون على ترك آرائهم إذا صح الحديث عندهم .

١ — يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

إذا صح الحديث فهو مذهبى .

هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟

أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أقل : على الرأس والعين .

مهما قلت من قول أو أخذت من أصل ، وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولى .

٢ — ويقول الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان صاحب مدرسة الرأى رضى الله عنه :

إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به .

ويقول : آخذ بكتاب الله تعالى فما لم تجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول : لعن الله من يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، به أكرمنا الله وبه استنقذنا ؟

٣ — ويقول الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه :

كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك إلا صاحب هذه الروضة ؟

وقد بلغ إجلال سيدنا مالك رضى الله عنه للسنة مبلغاً أكبر من طاقات النفس ، فقد روى أنه كان لا يخرج للناس فى مجلس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد اغتسل ، وتطيب ، ولبس جديد ثيابه ، وسار خاشعاً إلى مقر درسه فى الروضة الشريفة .

وقد روى أن عقرباً لدغه رضى الله عنه وهو يروى الحديث فاحتمل اللدغة ولم يقطع الرواية ، ولما سئل قال : صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ — ويقول الإمام المحتسب أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

إن الله جل ثناؤه . . . بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأنزل عليه الكتاب بالهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه وخاصه وعامه ، وناسخه ومنسوخه ، ما قصد له الكتاب فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبصر عن كتاب الله الدال على معانيه .

بعد هذا الاستعراض لصور من مقالات الأئمة المجتهدين لا يسعنا إلا أن نحمد الله الذى وفق للسنة الإسلامية جهابذة الفكر والعقيدة فأحيوها واستعانوا بها ، فأحياهم الله ، وأعانهم الله ، وسوف يحيى الله كل من أحيا سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وسوف يعين الله كل من استعان بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

شبهات حول الاحتجاج بالسنة

لم يكن لدى المانعين للاحتجاج بالسنة أدلة تستحق فى نظر العلم والحق أن يطلق عليها فى حلقات الدرس أدلة ، ولكنها شبهات لم تقو بصيرتهم على دفعها ، فأوغلوا الفهم فى سطحية هذه الشبهات حتى صاروا يوردونها كأدلة لهم على مدعاهم ، وهذه الشبهات سوف نعرض لها واحدة واحدة ونرى مقدار قوتها فى حلبة البحث والمناقشة .

الشبهة الأولى

يقول الله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »

شبهتهم فى هذا : أنهم فهموا الآية على أن القرآن قد حوى كل شىء من أمور الدين وبينه تماما بحيث لا تحتاج الأمة إلى شىء سواه فى التشريع .

فإنها إن احتاجت إلى شىء سواه فى التشريع كان القرآن غير مستوعب لكل أمور الدين وكان مفرطاً غير مبين وهذا خلف يستلزم عدم الصدق فى خبر الله تعالى ، وهو محال ، فما أدى إليه يكون محالا .

الرد على هذه الشبهة

أولا :

أساس الشبهة أنهم فهموا المراد من الكتاب : القرآن ، ولكن مجموع الآيات ابتداء ونهاية ، يفيد أن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ الذى اشتمل على العمر والرزق والسعادة والشقاوة . . . لكل الموجودات . واقرءوا الآية معنا من أولها :

قال الله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » (الأنعام ٣٨)

ومن قبل هذه الآية آية أخرى ، تحدد محل النزاع بين النبوة والكفار ،

يقول الله تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (٣٧)

فالكفار فى محاوراتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم طلبوا منه أن ينزل آية من السماء كبرهان على نبوته ولكن الله يرد عليهم أن كل شىء فى الوجود مقدر بعلم الله وإرادته ، ولو كان مقدراً فى علم الله أن نزول آية على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) مما يريده الله لفعل ، ولكن الله لم ينزلها مع القدوة التامة ، لأنه قال فى أول سورة الأنعام :

« ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (الأنعام ٧)

فالله لم ينزل الآية التى طلبوها ، لأن الموجودات من البشر والجماد والحيوانات ، والطيور . . . . إلخ .

أمرها : أولا ، ونهاية ، راجع إلى الله،وهى أمم متشابهة فى كل ما أراد الله لها من : العمر والرزق والسعادة . . . إلخ ،وكل هذا مدون فى الكتاب المحفوظ .

والمثلية فى الآية ترشح هذا المعنى لأن القرآن لم ينظم للطير حياة كما نظمها للبشر ، وإنما الذى حوى كل شىء ، الطير ، والبشر وتضمن ابتداء ونهاية للجميع هو اللوح المحفوظ .

وعلى هذا الأساس ، ففهم أن المراد من الكتاب هو القرآن غير دقيق لما يأتى :

١ — للسياق العام وربطها بما قبلها .

٢ — المثلية بين الطيور والبشر . . . فى ذكر شئونهم فى الكتاب .

وبقى عليكم أيها الرافضون لحجية السنة بهذه الشبهة أن تعلموا أن

المراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وأن ترجعوا للسنة ففيها شرف الحياة . . . . ؟ ؟

ثانياً :

ومع هذا فنحن نسلم لكم أن المراد من الكتاب القرآن ولكننا نقول لكم أن هذا العموم غير تام ، بل هو مخصص بقول الله تعالى :

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٦٤ النحل)

والذى يجعلنا نذهب إلى تخصيص هذا العام أمران :

١ – لتتفق آيات القرآن ولا تتعارض فى ظاهرها فإن القرآن مليء بالآيات التى فوض الله فيها نبيه فى شرح الأحكام .

٢ – إن كثيراً من الأمور الجزئية فى حياة المجتمع تحتاج إلى حكم ، وليس القرآن إلا قواعده الكلية العامة .

يدل على هذا – أن الصلاة واجبة بنص القرآن ، ولكن كم عددها ؟ وكم عدد ركعات كل واحدة ؟

وما الذى يقرأ فيها وجوباً من القرآن ؟

وما هى الصلاة التى يجهر فيها ؟ والتى يسر فيها ؟

ثم كيف يجمع الناس للصلاة ؟

ومتى تؤدى الفرائض ؟ إلخ .

لم يتعرض القرآن لتفصيل واحد من تلك الأحكام الجزئية ، التى وردت حول القاعدة الرئيسية – أقيموا الصلاة : –

ولكن النبوة عن طريق تعاليم الوحى هى التى فصلت ووضحت ، وعلمت كل هذه التفصيلات للناس بالقول والعمل . وهنا يضع القرآن

قاعدة رئيسية عامة ترد على مزاعم الرافضين حجية السنة ، فيحدد القرآن الكريم عمل النبوة مع وجود القرآن نفسه ، يقول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ويؤكد أن كل ما يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر ، ونهى ، أو فعل أوترك ، أو ترغيب ، أو تهديد إلخ ، إنما هو مقبول عند الله بل إنه من عند الله كما يقرأ المسلم فى سورة النجم :

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

ويوضح هذا التأكيد ما يرويه العرباض بن سارية رضى الله عنه : قال : قام فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما فى هذا الكتاب ، ألا وإنى قد أمرت ووعظت ، ونهيت عن أشياء إنها مثل القرآن وأكثر .

وينضم إلى هذا فى تقوية التأكيد السالف ما يرويه جابر بن عبد الله أن عمر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى ؟

ولا شك أن إبقاء العموم فى الكتاب على أنه القرآن يتعارض مع الآيات التى ذكرت ولا يتفق مع حاجات المجتمع ولا يليق أمام الحشد الذى نقله المسلمون الثقات من أهمية تدخل السنة فى تدبير معاشات البشر لهذا لم يكن بد من تخصيص هذا العام ، ويكون المراد : ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، أى من القواعد الرئيسية الكلية التى تندرج تحتها أحكام الجزئيات المتجددة فى حياة الناس التى توضحها وتبينها لهم السنة المطهرة ..

ثالثاً :

ومرة أخرى نسلم لكم أن المراد من الكتاب القرآن على عموميته دون تخصيص ، ولكن ما هو المراد من شيء ؟ ؟

جاءت الجدة إلى خليفة المسلمين سيدنا أبى بكر رضى الله عنه تطلب منه الميراث . فقال لها : ليس لك فى كتاب الله شيء ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لك شيئاً ، ثم استفتى الناس ، فقال له أحد الصحابة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس .

إذن هذه الحادثة لم يكن لحكمها نص فى القرآن الكريم ، وإنما كان فى السنة حكمها . وعلى هذا فإن المراد من شيء لابد من تحديده ، وإلا للزم المحال الذى تعترضون به أنتم ؟ ليس المراد من شيء فى الآية كل الأحكام التى يحتاج إليها المجتمع فى وجوده المستمر ، وإنما المراد منها الأحكام الرئيسية العليا التى تحدد القواعد والضوابط التى تأخذ سمة الطابع الدستورى كمعالم للطريق الفاضل الذى يقيس عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أحكام الحوادث التى تتولد من العلاقات بين الناس فى حركة نشاطهم .

وعلى هذا فلا بأس أن يكون الكتاب هو القرآن ، وأن يكون القرآن حاوياً — دون تفريط — كل القواعد الكبرى التى تنظم للناس شئون دنياهم ، وتكون السنة الإسلامية هى الموضحة لهذه المعالم وهى المنيرة للناس ، طريق الحياة . وتنسجم هذه الآية مع الآيات الأخرى التى تؤكد بالنص أهمية السنة تجاه ما فى الكتاب من القواعد التى تحتاج إلى تخصيص أو تقييد أو توضيح أو تبيين . . . إلــخ مثل قوله تعالى : .

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٥٩ النساء)

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٧ الحشر)

على أننا نقول أخيراً : بل إن المراد من عدم التفريط هو الأدلة على الألوهية التى احتواها القرآن الكريم كرد على طالبى أدلة معينة من كفار مكة التى قوبلت بالرفض ، وحددت الآية أن آيات بينات على صدق دعوة الإسلام فى حتمية الإيمان بالله قد امتلأ بها الكتاب الكريم دون تفريط ، فالأولى للكفار فى مكة أن يرجعوا إليها ، وقد امتلأ بها الكتاب الكريم

بدل أن يقترحوا آيات مادية مثل : تحويل جبل الصفا ذهباً ، وإسقاط السماء كسفاً ، وأن يؤتى بالله والملائكة قبيلا . . . إلخ .

وعلى هذا فالآية ليست مجالا لصحة الاحتجاج بها على عدم جعل السنة مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي لأنها خاصة بأدلة العقيدة (١) .

وبهذا فلا مجال لوجود الشبهة في حيز الافتراض والمناقشة ، فهي من كل زاوية ضعيفة القدرة على أن تقف لتمنع الاحتجاج بالسنة أو لرفض كونها مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي ، وبهذا فإنه ينبغي ألا يسع المؤمنين من الرافضين إلا الاعتراف بالحق الذي تراه أعين السالمين من الغواية ورمد التعصب .

الشبهة الثانية

يقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (الحجر ٩)

يفهم الرافضون لحجية السنة أن المراد من — الذكر — في الآية « القرآن » وأن الضمير في قوله تعالى : «له» عائد على القرآن ، وأن الآية فيها حصر ، طريقه الجار والمجرور . وهذا الحصر يفيد عندهم : قصر الحفظ على القرآن وحده ، دون ما عداه .

فلو كانت السنة مصدراً أساسياً في التشريع الإسلامي لتكفل الله بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن الكريم .

الرد على هذه الشبهة

أولا :

ليس بلازم في الاحتمالات العقلية أن يكون المراد من الذكر القرآن الكريم وحده ، لأمرين :

١ — أنه لو كان المراد من الذكر القرآن لصرح الله به باللفظ كما

---

(١) بتصرف ص ٥٩ ج ٧ في ظلال القرآن .

صرح به فى كثير من الموضوعات يقول الله تعالى :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (٩ الإسراء)

« بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » (٢١ — ٢٢ البروج)

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » . . (٧ القمر)

« وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » . (١٠٦ الإسراء)

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(٣١ الزخرف)

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه» (٩١ — ٩٢ النمل)

٢ — لو كان المراد بالذكر القرآن لعبر عنه بالضمير (إنا نحن نزلناه) إذ افتتاح السورة فيه نص وذكر للقرآن (الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) والتعبير بالضمير فى نظر اللغة أجود لأن العلم فى المرتبة الثانية من الضمير ، إذ هو أعرف المعارف ، وهو عمل يتفق مع منزلة القرآن وتعتمده الصناعة الإعرابية .

وإذن : فليس بالحتم أمام فهم العقل أن يكون المراد من الذكر هو القرآن فقط دون غيره .

بل إن تفسير الذكر بالقرآن فقط احتمال بعيد فى نظر العقل ، لعدم وجود مرشح لهذا التفسير يقوى على مواجهة الأمرين السالفين اللذين يقويان بالمنزلة والعرف النحوى .

وإنه لأقرب من هذا التفسير أحد الاحتمالين :

الأول :

أن يكون المراد من الذكر الرسالة والشرف الذى استحقه الرسول صلى الله عليه وسلم واتصف به بنزول النبوة والقرآن عليه ، ويقوى عندنا هذا الاحتمال أمام نظر العقل افتتاحه السورة (الحجر) حيث صورت

مقالات الكافرين المعتدين على النبوة بأوصاف مفتراة، إنه مجنون وإنهم في حاجة إلى ملك ينزل عليهم ليصدقوا رسالته فيما تتلوه السورة من الآيات :

« وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (٦)

« لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » (٧)

« ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » (٨)

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩)

فالآيتان ٧ ، ٦ تصوران اتهامات الكافرين الكاذبة .

والآيتان ٨ ، ٩ ترد على هذه الاتهامات ، وتعد بحفظ الرسالة والشرف الذى نزل على محمد الأمين (صلى الله عليه وسلم) .

فمحط الحديث كما هو واضح من الفحوى تكريم النبي (صلى الله عليه وسلم) فى مواجهة عناد الكافرين الجهلاء .

فيكون المراد من الذكر فى الاحتمالات العقلية القريبة التى يسندها الترشيح : الرسالة ، والشرف .

والرسالة المرادة هنا هى الوصف التشريفى لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى أثار حفيظة الحاسدين والحاقدين ودفعتهم شهوة الحقد إلى الإنقاص من حق النبوة .

وفى مقابل هذا الموقف رد عليهم الله تعالى أنه سيحفظ هذا الشرف لنبيه صلى الله عليه وسلم ولن يغيره كيد الحاسدين ، ويرشح لهذا الاحتمال قول الله تعالى :

« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . (٤٣ الزخرف)

فعود الضمير فى الآية — إنه — على ما ذكر قبلا فى قوله تعالى :

« فاستمسك بالذى أوحى إليك »

دليل على أن التصريح به مراد الشرف ، لا سيما ومن قبل ذلك قال الله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن . . . » إلخ .

فذكر القرآن بالنص أولا ، وذكره بالوحى ثانياً ، ووصف ذلك بأنه ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم ولقومه ، مما يقوى الاحتمال العقلى ، أن المراد من الذكر فى سورة الحجر هو الرسالة والشرف : وما ذلك إلا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

الثانى :

أن يكون المراد من الذكر الشريعة مطلقاً ، ويرشح لهذا الاحتمال ما تناولته السورة بعد الآية التى معنا فى ذكر موقف الأمم السابقة مع رسلهم ، يقول الله تعالى :

ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين » . (١٠ الحجر)

« وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون » . (١١ الحجر)

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » . (١٢ الحجر)

« لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » . (١٣ الحجر)

والأنبياء يكلفون الأمم بالشرائع ، والشريعة : كتاب الله وسنة نبيه ، والذى يستعرض حالات الأمم مع الأنبياء يقف على محاجات الكافرين مع الرسل ، تدور كلها حول التكليف الذى مصدره ما ينزله الله بالوحى وما يشرحه الرسول بالسنة ، وتكون الآية التى معنا قد نبهت على أمر خطير : هو أنه إذا كان الأمر فى الأمم السالفة ينتهى إلى إلغاء الشريعة بعد معارك عنيفة بين الرسل وأممهم ، فإن هذه الشريعة قرآناً وسنة سنحفظها ولن ينال الكافرون من كيدهم إياها إلا خساراً ، لأنه وعد الله ولن يخلف الله وعده وكان أمر الله مفعولا .

وعلى ذلك فإن الذكر فى الآية مراد به الشريعة على سنة المجالات السالفة بين الرسل والأمم ، ويكون الضمير فى قوله « له » عائد على الشريعة بمصدريها الأساسين القرآن ، والسنة ، إذ لا شريعة إلا بمصدر ، ومصدر الشريعة فى الإسلام القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛

لكن بقى أن يقال : كيف يعود الضمير على القرآن والسنة معاً ولم يذكر إلا القرآن وحده ؟ ولكننا نجد فى القرآن نفسه استعمالا للضمير استناداً على ما يفهم من السياق ، ومدلولات الحديث ، يشهد بهذا قوله تعالى:

« إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً » .

فتلك صفات الحور العين مع أنه لم يجر لهم ذكر فى قسم أصحاب اليمين فى سورة الواقعة ، ولكن السياق العام للسورة وما ذكر فى الأقسام السابقة يجعل الذهن يلبرك أن الضمير عائد على أمر مفهوم من الفحوى ، والسياق والأسلوب .

كذلك يقوى هذه الشهادة فى استعمال القرآن الضمير على ما يستند على الأسلوب والفحوى قوله تعالى :

« حتى توارت بالحجاب » . . . (٣٢ سورة ص)

ففى (توارت) ضمير فاعل يعود على الشمس مع أنه لم يجر لها ذكر فى السورة بالنص، ولكن السياق العام يجعل على أن الضمير عائد على الشمس ؛

وما معنا فى آية الحجر من هذا القبيل ، والكل استعمال قرآنى تزكيه اللغة ، ويقوينه الإعراب القرآنى فليس هناك وجه للاعتراض ، وعليه يسلم تفسير الذكر بالشريعة قرآناً ، وسنة .

ثانياً :

نسلم لكم أيها المعاندون لحجية السنة أن المرادمن الذكر هو القرآن الكريم ، وأن الضمير فى قوله تعالى : « له » عائد على القرآن المراد منه الذكر ، ولكن الحصر الذى تستدلون به على أن السنة لم تدخل فى دائرة الحفظ لقصره على القرآن فقط ، وترتبون على هذا الحصر عدم صحة الاحتجاج وأنها ليست مصدراً من مصادر التشريع . . .

هذا الحصر ليس حصراً حقيقياً بل هو حصر ادعائى ؟

والدليل على أنه ليس حصراً حقيقياً ما يلى :

١ — أن الله يحفظ السموات والأرض أن تزولا . . يقول تعالى :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفورا » . . . (٤١ فاطر)

ويقول جل شأنه :

« ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم »

٢ — وقد حفظ الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم من القتل . . يقول الله تعالى :

« والله يعصمك من الناس »

وإذا فسدت حقيقة القصر فقد فسد المترتب عليه : وهو عدم الاعتراف بحجية السنة .

إذ انتقال الحصر إلى ادعائى يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى قد وعد بحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ضمناً إذ القصر الادعائى يقصد به المبالغة مع شموله لأشياء أخرى .

وإذن : فيكون وعد الله بحفظ السنة داخلا فى مضمون حفظه للقرآن إذ السنة توضيح ، وتبيان ، لما فى القرآن الكريم ، يقول الله تعالى :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »

ثالثاً :

على أن الحصر فى الآية بطريق تقديم الجار والمجرور وهو فى علم المعانى من الدرجة الثالثة فى إفادة الحصر ، فلو كان المقصود الأهم هو حفظ القرآن وحده لآثر القرآن التعبير :

١ — بالحصر الحقيقى حقيقة .

٢ — أو بطريق (ما وإلا) التى تفيد الحصر بالدرجة الأولى .

٣ — أو (بإنما) التى تفيد الحصر بالدرجة الثانية على الأقل .

رابعاً :

(ا) كلف الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم ؛ فقال تعالى :

« وما أنزلنا إليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٦٤ النحل)

(ب) وأوجب على الأمة طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

(جـ) وجعل طاعة رسول الله طاعة لله ، فقال تعالى :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » . . . (٨٠ النساء)

(د) وتوعد من يشاقق الرسول ويعانده ، فقال تعالى :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . . . (١١٥ النساء)

(هـ) وبعد هذا كله فإن القرآن يضع قاعدة دستورية عامة أمام المسلمين فيقول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . . (٧ الحشر)

فلبس لمعاند بعد هذا الحشد إلا أن يثوب إلى روضة السنة يشفى منها غلة الحاجة ، ويروى منها شرايين الحياة ، فسوف لا تضل أمة نهلت من رياض رسولها ، وسوف لا تظمأ أمة تروى حياتها بالماء السلسبيل. ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يرشد الأمة إلى ذلك فيقول :

« تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا من بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى » ؟

الشبهة الثالثة

تمهيـــد :

ومع هذا البيان الواضح الذى يرد على المعاندين لحجية السنة تفاهة شبهاتهم ، فسوف نسترسل معهم فى تبديد سحب السطحية التى تفتح على أصول الإسلام أبواب الشر واسعة ، والله من ورائهم محيط .

بعد أن ساق المخاصمون الأدلة الواهمة الواهية التى حوروها بفهمهم من القرآن — على ما بسطناه فى دراسة ما سلف من الشبه — أوردوا شبهة ظنوا لها سنداً من السنة ، وقبل أن نناقش هذه الشبهة ، أود أن ألفت النظر لى مدى الجهالة التى يضلل بها المعاندون فكر الباحثين :

فهم باسم السنة ونصوصها يدعون لرفض الاحتجاج بالسنة عند التشريع والتقنين ، والأفجع من هذا أنهم يتحايلون على بعض آيات القرآن ليحوروا معانيها بهذا التحوير على عدم صحة الاحتجاج بالسنة فى التشريع ، وهذا العمل مع جهالته أخطر منطق عكسى فى التدليل على فساد الشىء بمادته ، نصاً وأسلوباً .

لذلك فإن من الواجب على الدارسين لتاريخ السنة أن يكتشفوا مدى الحقد الذى دفع أولئك المعاندين لتجميع الأدلة ، واصطياد الشبهات . ليفوتوا على المسلمين عصب حياتهم ، ودستور دوائهم ، وبركة العمر والنشاط لأعمالهم . فيندفعوا فى طاقات مختزنة للدفاع عن حياض السنة التى يروى الله بها حقول الحياة فيرتبط الناس فى مستقبل أعمارهم ، وأجيالهم ، وأعمالهم بما تنظمه السنة من سلوك واتجاهات . . . والله الهادى إلى سواء السبيل .

(موجز الشبهة الثالثة)

والشبهة الأخيرة أنهم يقولون : أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهى عن كتابة السنة فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تكتبوا عنى

ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولاحرج ،من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ــ كذلك يقولون : قد ورد من طريق أبى مليكة مرسلا أن أبا بكر (رضى الله عنه) جمع الناس بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شيئاً فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه .

وإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهى عن تدوين السنة ، وإذا كان أبو بكر منع الناس أن يحدثوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان مدلول هذا عدم الاحتجاج بالسنة ، والاكتفاء بما فى القرآن الكريم .

الرد على هذه الشبهة

أولا :

فى الحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى نقطتان :

١ ــ أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتحديث عنه دون حرج .

٢ ــ نهيه صلى الله عليه وسلم عن تدوين السنة ومحو ما دون منها .

ومفهوم هذا أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أمر بحفظ السنة ، بطريق واحد ، وهو طريق : الحفظ والتحديث والرواية عنه ، دون طريق الكتابة والتقييد فى القرطاس .

أما بالنسبة لحفظ القرآن الكريم فقد أمر عليه السلام أن يحفظ بالطريقين معا :

١ ــ طريق التدوين والتقييد والكتابة .

٢ ــ طريق الحفظ والرواية والتلاوة .

وعليه فلا سند للمشتبهين فى عدم الاحتجاج بالسنة من الحديث

المروى عن أبى سعيد الخدرى ، فإن عدم تدوين السنة لا ينافى حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليها وعنايته بالحفاظ عليها ، غاية ما فى الأمر أن حفظ الآثار العليا كالقرآن : له طريقتان ، وله درجتان :

١ ـ الطريقان هما :

(ا) التدوين والكتابة . (ب) والتحديث والرواية .

٢ ـ والدرجتان هما :

(أ) درجة أولى عليا : يحققها :

الحفظ بالطريقين السالفين معا :

التدوين والكتابة .

والتحديث والرواية .

وذلك خاص بالقرآن الكريم . . .

(ب) ودرجة ثانية عليا : يحققها :

طريق واحد فقط تمييزاً للقيم وإبرازاً للذوات وهو طريق الرواية والتحديث، وهو خاص بالسنة الإسلامية، وهذا ما قصد إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حفظ السنة .

وعلة ذلك الصنيع هى حرص النبوة الإسلامية أن تبقى ذاتية القرآن بعيدة عن إيهام اختلاط الأحاديث بالآيات، إذا اتحدت درجة السنة مع القرآن فى طريقى: الحفاظ تدوينا وتحديثاً، يدل لهذا سيدنا أبو هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآهم يكتبون الأحاديث فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا : أحاديث سمعناها منك ، فقال : أكتاباً غير كتاب الله تريدونه ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما كتبوا من الكتب مع كتاب الله ، فقال أبو هريرة (رضى الله عنه) فقلت : أنحدث عنك يارسول الله ؟ قال : نعم ، حدثوا عنى ولا حرج ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ؟

كما روى عن عبد الله بن مسعود قال : « جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئاً إلا كلام الله »

وفى الحديث وضوح لعلة نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تدوين السنة رسمياً بأمر النبوة ، والدولة،وهى نفس العلة التى جعلت عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) وهو أمير دولة الإسلام الشابة القوية يستخير الله شهراً فى تدوين السنة ثم يصبح وقد عزم الله له ، ولكن الرجل مع ما يعرف عنه من قوة العزم ووضوح الذكاء ومعرفته وسائل الدعوة وصيانتها ، يتراجع ويقول : إنى كنت أردت أن أكتب السنة . وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء » .

ثانياً :

على أن عدم الأمر بكتابة السنة لا ينفى حجيتها كمصدر أساسى للتشريع الإسلامى إذ مصدريتها غير متعلقة بالكتابة والتدوين ، بل متعلقة — على زعمكم أنتم — على الحفظ والعناية،وهو قدر يكفيه الإذن بالتحديث والرواية والحفظ فى الصدور ، وقد أمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بذلك دون حرج ، لكن بقى عليكم أن تتفهموا مسألة :

١ — طرية الحفظ .

٢ — ودرجته .

٣ — وغاية الرسول (صلى الله عليه وسلم) من إيثار القرآن بالطريقين والسنة بطريق واحد .

ثالثاً :

وأما الحديث الثانى الذى يرويه أبو مليكة فإنه يفيد حرص أبى بكر على سلامة متن الحديث من بعض الراوين من غير دقة أو فهم لا سيما وقد دخل فى دين الله من القوم مالا دراية لهم بالذوق العربى فى الأسلوب ؟

وهذا لا يصطدم مع كون السنة مصدرا أساسياً للتشريع ، لا سيما إذا لاحظنا أن أبا بكر نفسه أنفذ للجدة نصيبها من الميراث مستنداً إلى السنة ،

فعمل أبى بكر بالسنة يوضح مقصده من حديث أبى مليكة وهو الحرص على سلامة متن الحديث ، وهو أمر لا يتنافى مع موضوع حجية السنة ، ومصدريتها للتشريع .

رابعاً :

على أن الاستدلال بهذين الحديثين مقابل بأحاديث تفيد الأمر بكتابة السنة :

١ — فقد ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) «أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام الفتح بقتيل منهم كانوا قد قتلوه ، فلما علم النبى (صلى الله عليه وسلم) ركب راحلته وخطب الناس فقال : إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل وسلط عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين ، وأنها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار ، وإنها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد فمن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إما أن يقتل وإما أن يقاد أهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى هذا يارسول الله ، فقال : اكتبوا لأبى شاه » .

٢ — ويؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قيدوا العلم بالكتابة ، ويعلق الخطيب البغدادى على هـذا فيقول : وفى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب بأنه قيد للعلم دليل على إباحة رسمه فى الكتب لمن خشى على نفسه دخول الوهم فى حفظه ، وحصول العجز عن إتقانه ، وضبطه .

٣ — ويروى أبو هريرة رضى الله عنه وهو يقارن بينه وبين عبد الله ابن عمرو فى العلم والحديث فيقول : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو ، فقد كان يكتب ولا أكتب .

٤ — وقد اعترض بعض الصحابة على تدوين عبد الله بن عمرو للسنة

فقالوا له : إنك تكتب عن رسول الله ﷺ كل ما يقول ورسول الله ﷺ قد يغضب فيقول مالا يتخذ شرعاً عاماً ؟ فرجع ابن عمرو إلى رسول الله ﷺ فقال له: اكتب عني فوالذى نفسى بيده ما خرج من فى إلا حق.

٥ — ويروى أبو هريرة (رضى الله عنه) أن رجلا كان يشهد حديث النبي ﷺ فلا يحفظ ، فيسألني فأحدثه ، فشكى قلةحفظه إلى رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ استعن على حفظك بيمينك .

يوضح لنا هذا العرض أن للسنة الإسلامية مصدرا أساسياً للتشريع الإسلامى وأن هذه المصدرية لا يقدح فيها :

١ — عدم النص صراحة على حفظها مع القرآن فيا فهمه المشتبهون فى قول الله تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

٢ — وأن الرسول ﷺ نهى عن تدوينها ، فإن ذلك لا علاقة له بالمصدرية والحجية ، فى التشريع بعد الأمر بالتحديث عنه ﷺ .

٣ — وأن هناك أحاديث ناهية عن تدوين السنة إلا أنها مقابلة بأحاديث أخرى آمرة بتدوينها . ومقابلة كذلك بعمل الصحابة بها بالإجماع .

على أن الفقه العام لتدوين السنة وعدمه هو : عناية الأمة والدولة بالقرآن الكريم عناية فائقة ذاتية لا يشترك معه فيها شىء آخر ، إبرازاً لعظمته ، وإظهارا لكرامته وقدره وهو حفاظ عليه : بالتدوين والحفظ .

أما السنة ومنزلتها الثانية بعد القرآن عند النظر فى استنباط حكم شرعى فيكفى الحفاظ عليها بالرواية فقط ، حتى لا يشترك مع القرآن فى الدرجتين والأسلوبين ، و! كى تتميز ذاتيتها عن القرآن هى الأخرى .

وكل هذا بعيد فى دلالته ومفهومه وآثاره عن نفى حجية السنة ، أو إبعادها عن كونها مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامى ، وإلا فقد كانت هناك كتابات فردية للسنة لكن لا باسم الدولة ، فإن هدف الدولة الإسلامية فى عصر النبوة : الحفاظ على ذاتية القرآن ، والحفاظ على ذاتية السنة ، واتخذت لذلك السبل حسب مقتضيات العصر والظروف .

وظيفة السُنة ومنزلتها

١ ـ وظيفة السنة :

يحدد مجرى الحياة الإسلامية فى ظل النبوة وظيفة السنة الإسلامية فقد كان الوحى يترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والحوادث الصغيرة تتولد من حركة النشاط اليومى فيتكفل بشرحها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن لم ينزل بها وحى ، وقد أخبر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أنه أنزل إليه الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبين ما ما أراده الله من بعض القضايا إما بالقول أو بالفعل أو بهما معا : أو بالتقرير لفعل الصحابة .

وقد ألزم الله سبحانه وتعالى جماعة المسلمين أتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى كل ما يشرعه للأمة، وما يرشدها إليه من فضائل الأخلاق ، وما يسند إليها من سمو فى السلوك والأعمال .

يقول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » : (٧ الحشر)

ويقول جل شأنه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٨٠ النساء)

ويقول سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » (٦٥ : النساء)

ومن المقرر أن القرآن الكريم ممتلىء بالنصوص والقواعد العامة ، والقضايا الرئيسية التى لها صفة القواعد الكلية الدستورية ، وهى تحتاج

إلى تبين ما أجمل فيها ، أو توضيح ما أشكل منها على الفهم ، أو تخصيص ما فيه عام أو تقييد ما فيها من مطلق ، أو شرح ما فيها من موجز ، أو بسط ما فيها من مختصر . . . . إلخ ، أو إلحاق لحكم بأحد المتقابلين أو الشبهين أو بغيرهما بطريق القياس . . . . إلخ .

وهذه المبادىء الكلية تندرج تحتها جزئيات كثيرة تحتاج إلى من هو أعلم الناس جميعاً بالقرآن والتشريع ليوضحها أو يفسرها أو يحدد المراد من مطلقها ، أو يلحق الحكم بأحد الشبهين أو المتقابلين . . . إلخ ، وليس فى الأمة سوى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأعلم بما فى القرآن من أسرار التنزيل والتشريع . . . إلخ ، يؤكد هذا ما قاله مطرف بن عبد الله الشخير ، عند ماقيل له : لا تحدثونا إلا بالقرآن فقال : والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن ؟

ومن هذا يتبين لنا ثلاثة أمور :

١ ــ أن القرآن ممتلىء بالقواعد والكليات الدستورية العامة المجملة و المطلقة أو المختصرة .

٢ ــ أن الأحكام الجزئية المتجددة تحتاج إلى عالم بالقرآن يبين حكمها أو يوضحها أو يلحقها بقواعدها الكلية ، إلخ .

ومع هذا العالم وسيلة التوضيح أو الإلحاق . . . . إلـــخ .

٣ ــ أن أعلم الناس جميعاً بأسرار القرآن وأصول التقنين هو سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن هنا يتضح أن : وظيفة السنة هى :

١ ــ تفصيل المجمل من الكتاب .

٢ ــ تخصيص العام .

٣ ــ تقييد المطلق .

٤ ــ شرح المختصر .

٥ ــ بسط الموجز .

٦ ــ توضيح المشكل .

٧ ــ إلحاق الحكم بأحد :

(ا) المتشابهين .   (ب) أو المتقابلين .

(ج) أو بغيرهما بطريقة القياس مثلا .

إن وظيفة السنة فى أقصر العبارات أنها مبينة حكم الله فى القرآن أو فى الإسلام ، كما تنص الآية الكريمة .

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وفى هذا الجو ندرك ما قاله الأوزاعى : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب ، على نحو ما يشرحه ابن عبد البر . يريد أنها تقضى عليه وتبين المراد منه ، والإمام أحمد بن حنبل يقول : « إن السنة تفسر الكتاب وتبينه »

ويوضح لنا هذه الوظيفة إدارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مجالات الحياة اليومية للمسلمين بما يكشف لنا وقوع العمل بالسنة كوظيفة لها علاقتها بالكتاب الكريم على نحو ما ننهجه هنا إن شاء الله .

أولا ــ فى مجال العبادة :

١ ــ فرض القرآن الكريم على المسلمين : الصلاة ، والزكاة « أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة » ولم يبين كيفية الصلاة ، وعدد ركعاتها ، وعددها هى فى اليوم والليلة ، وما يجهر فيه ، وما يسر . . . إلخ . ولكن السنة هى التى وضحت كل ذلك ، يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : صلوا كما رأيتمونى أصــلى .

كذلك السنة : هى التى بينت أنواع الزكاة ، ومقاديرها ؟

وفى هذا المقام تروى قصة سيدنا عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال لرجل : إنك امرؤ أحمق أتجد فى كتاب الله الظهر أربعاً لا تجهر

فيها بالقراءة . . . ؟ ثم عدد عليه الصلاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وإن السنة تفسر ذلك .

٢ — ولما نزل قوله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون » .
(٨٢ : الأنعام)

أشكل أمر هذه الآية على الصحابة رضى الله عنهم إذ فهموا المراد من الظلم مجاوزة الحد ، والخروج عن القصد فى كل شىء يبعد الإنسان من الله وعن الأمن فيكون سبباً فى الزيغ والضلال ، فقالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم): أينا لم يظلم فوضح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) الظلم بالشرك .

ثانياً — فى مجال المال :

١ — لما نزل قول الله تعالى « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

فهم الصحابة رضى الله عنهم أن مدلول ينفقونها بذل كل ما يصل إلى أيديهم ، ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوضح هذا العام بقوله إنما فرض الله الزكاة ليطهر بها ما بقى من أموالكم ، فلم يسع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلا أن كبر . ومفهوم هذا التكبير أن الأحداث الجزئية فى حياة المسلمين كانت فى حاجة ماسة إلى وظيفة السنة لتريح الناس وتبصرهم بأمور الدين .

٢ — وعندما حددت آية الفرائض حقوق الورثة لم تتعرض لتوريث الكافر من المسلم ، ولا العبد من الحر ، ولا القاتل من قتيله ، ولكن السنة هى التى أضافت هذه الأحكام إلى القواعد العليا فى القرآن المتعلقة بالمواريث التى تنظمها سورة النساء .

٣ — وحرم الله الربا وكان ربا الجاهلية فسخ الدين بالدين ، فكان المدين إما أن يربى أو يقضى الدين فى الحال ولكن السنة تلحق به كل ما

يشترك معه فى العلة ، وهى الزيادة من غير عوض فيقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فمن زاد أو ازداد فقد أربى . فإن اختلفت هذه الأصناف ، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد .

ووسيلة إلحاق هذا الحكم هى القياس للاشتراك فى العلة الواحدة ولذلك قالوا : كل ما جر نفعاً فهو ربا .

ثالثاً — فى مجال الجناية :

١ — نظم القرآن الكريم حدود القصاص : قال تعالى :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » . . . . الآية

« كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر . والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . . » الآية .

وهذه القواعد العامة تفيد عموم وجوب القصاص على كل من ثبت عليه جريمة القتل العمد ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخصص هذا العموم فيقول : « ألا لا يقتل مسلم بكافر »

٢ — وعندما حددت سورة المائدة حكم السرقة : « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » لم تحدد مكان القطع ، ولا نوع اليد : اليمنى أو اليسرى ومن الكوع أو المرفق أو من نصف الساعد ولكن السنة هى التى حددتها باليمنى ومن الرسغين .

٣ — والقرآن قد حدد مقدار دية النفس ، ولكنه لم يذكر دية الأطراف فبينت السنة ديتها بما هو موضح فى كتب الفقه .

والقرآن ذكر دية النفس . والحديث ذكر دية الأطراف فأشكل بينها الجنين الذى يسقط ميتاً إذا اعتدى على أمه : أنه يشبه أطراف الإنسان باعتباره حملا فى بطن أمه ، ويشبه النفس باعتباره مستقبلا إنساناً .

فبينت السنة أن دية الجنين غرة : عبد أو أمة ، وأن له حكم نفسه لعدم تمحص أحد الطرفين له : التبعية للأم أو الذاتية . وهو إلحاق للحكم بأحد الشبيهين .

رابعاً – فى مجال الأسرة :

١ – ذكر القرآن المحرمات من النساء على نحو ما تنص عليه آية النساء « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم التى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما » (٢٣ : النساء.)

من ضمن المحرمات الجمع بين الأختين وما سوى ذلك بعد ما حرمته الآية فحلال : لكن هنا ما هو مساو للجمع بين الأختين : المرأة وعمتها ، المرأة وخالتها . . . . فتدخلت السنة وبينت أن الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها حرام مثل الجمع بين الأختين ، لاتحاد العلة ، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) « فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

٢ – والله حرم من الرضاعة : أم الرضاع ، وأخوات الرضاعة ، ويزيد النبي المسألة توضيحاً فيحرم سائر القرابات من الرضاعة اللاتى يحرمن من النسب مثل العمة من الرضاعة والخالة من الرضاعة وبنت الأخ من الرضاعة وبنت الأخت من الرضاعة . . إلـــخ .

وفى الحديث : « إن الله حرم من الرضاعة ما حرم من النسب » وإلحاق هذين الحكمين طريقه القياس : وهو الاشتراك فى العلة الواحدة .

٣ – أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن الطلاق للعدة فى قوله تعالى :

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن »

وكان ابن عمر قد طلق زوجته وهى حائض فقال النبى (صلى الله عليه عليه وسلم) لعمر بن الخطاب مره فليراجعها ثم يتركها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ، وهذا تفسير من السنة لما أوجز من الأحكام فى القرآن .

٤ — وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر بنص القرآن الكريم « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » ، وعدة الحامل المطلقة وضع الحمل بنص القرآن الكريم :

« وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » .

ولكن ما حكم الحامل المتوفى عنها زوجها ؟ أأربعة أشهر وعشرا كما تنص الآية الأولى ؟ أو وضع الحمل كما تنص الآية الثانية ؟ .

« سبيعة الأسلمية » توفى عنها زوجها وهى حامل ، ثم وضعت بعد نصف شهر من وفاة زوجها فأخبرها النبى (صلى الله عليه وسلم) أن قد حلت وانتهت عدتها ، فبين ذلك :

— أن الآية الأولى خاصة بالمتوفى عنها زوجها غير الحامل .

— وأن الآية الثانية عامة فى كل امرأة حامل مطلقة أو متوفى عنها زوجها .

وهو شرح وتبيان وتفسير لما يشكل أمره على عقول المستفسرين .

خامساً — الحاجيات اليومية :

١ — أحل الله الطيبات وحرم الخبائث، وبين هذين الأصلين :

الطيب الحلال ، والخبيث الحرام ، أشياء لم يوضح القرآن علاقتها بأحد الأصلين ، فبينت السنة ذلك : فنهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أكل كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير ونهى عن أكل لحم الحمر الأهلية وقال : إنها رجس .

٢ – والله سبحانه وتعالى : أحل صيد البحر وحرم الميتة ، فبقيت بينهما مسائل لم تتعلق بأحد الحكمين مثل : ميتة البحر ، هل هى من صيده الحلال ؟ أو هى من الميتة الحرام ؟

فبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنها من صيده الحلال ، بقوله :
« هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

٣ – وحرم الله الميتة وأباح الذبيحة فبقى الجنين فى بطن أمه المذبوحة دائراً بين الحل والحرمة ، فبين النبي (صلى الله عليه وسلم) حكمه فقال : ذكاة الجنين ذكاة أمه. وإلحاق هذه الأحكام بقواعدها إلحاق لأحد المتقابلين .

وبهذا نضع أيدينا على الأحكام العملية التى أدارت بها السنة الإسلامية شئون المسلمين ، بما يوضح لنا أن وظيفة السنة بالنسبة للقرآن الكريم هى الشرح ، والتوضيح ، والتفسير ، والتبيين ، وأن وظيفة السنة بالنسبة للبشر إنارة الطريق للسالكين إياه إلى الله على هدى وصراط مستقيم .

وصدق الله العظيم .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »
(٨٠ : النساء)

« إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » (٢٥ – ٢٦ : الغاشية)

« وإلى الله ترجع الأمور » .

منزلة السنة من القرآن الكريم

منزلة السنة من حيث الوظيفة قد عرضناها عليكم بالنصوص والشرح أنها موضحة ، ومبينة ، وشارحه ومفصلة ومرجعة بعض الأحكام إلى أحد الشبيهين أو أحد المتقابلين أو منشئة حكماً بالقياس والاشتراك فى وحدة العلة . . . إلخ ،ومفهوم هذا أن السنة دليل الفهم للحكم المراد من القرآن الكريم .

يروى أن امرأة من بنى أسد أتت عبد الله بن مسعود فقالت : « يا أبا عبد الرحمن بلغنى عنك أنك لعنت الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمقات والمتلفجات للحسن المغيرات خلق الله فقال : ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو فى كتاب الله ، فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ؟ فقال : لئن كنت قرأتيه وجدتيه ، قال الله عز وجل :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ومفهوم هذا أن ما حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل ما حرم الله . ومغزاه أن مرتبة السنة فى قيمة الحكم هى قيمة القرآن الكريم ، فما أحله رسول الله له قيمة الحلال فى القرآن الكريم ، وما حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) له قيمة الحرام فى القرآن الكريم .

ولكن استنباط الحكم من المجتهد تكون السنة فى المرتبة الثانية بمعنى :

١ — أن النظر يكون أولا فى كتاب الله .

٢ — فإن لم يجد فى كتاب الله ينظر فى سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه المرتبة الثانية مفادة من محادثة سيدنا معاذ بن جبل رضى الله

عنه مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينما بعثه إلى اليمن وسأله : بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد قال : أجتهد رأى ولا آلو ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومعناه : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يحدد للمجتهد منهج الاجتهاد :
١ — النظر فى القرآن أولا ٢ — ثم النظر فى السنة ثانيا .

وبهذا أخذت السنة الإسلامية المرتبة الثانية فى النظر عند استنباط الحكم الشرعى من الأدلة . أما قيمة الحكم نفسه فهو مثل ما حرم الله ؛ ومثل ما أحل الله ويقويه قول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(٧ : الحشر) .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٨٠ : النساء)

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » (٢ — ٣ : النجم)

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٤٤ : النحل)

وبهذا نلفت أنظاركم :

إلى أن حكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل حكم الله سواء بسواء ، وأن مرتبة السنة فى التحليل والتحريم مثل القرآن سواء بسواء . وأن مرتبة السنة ثانية بعد القرآن عند النظر فى الاجتهاد واستنباط الأحكام من الأدلة .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

أقسام السنة الإسلامية

يقسم العلماء السنة الإسلامية إلى قسمين رئيسين : ثم إلى أقسام عدة بوجه عام :

القسمان الرئيسيان :

١ — السنة تشريع ملزم . ٢ — السنة تشريع غير ملزم .

(ا) ويقسمون السنة الملزمة إلى :

١ — تشريع ملزم عام . ٢ — تشريع ملزم خاص .

ويحتوى التشريع الملزم على :

١ — تشريع خاص بالعقيدة .
٢ — تشريع خاص بالأخلاق .
٣ — تشريع خاص بالأحكام العامة . . . إلـــخ .

(ب) ويقسمون السنة غير الملزمة إلى أقسام عدة تتعلق بشئون الحياة الفردية أو الجماعية التى لا ترتبط بمبدأ تشريعى ملزم :

١ — كتدبير شئون السياسة العسكرية .
٢ — وحاجيات الفرد فى نظام أكله ونومه وشربه .
٣ — والتجارب الخاصة بالعمل كالزراعة ، والطب ، والثقافة . إلخ .

وتوضيح ذلك فى :

١ — السنة الملزمة :

إن النبى (صلى الله عليه وسلم) صدر عنه مجموعات من الأحكام

الشرعية التي تتعلق بذمة المكلفين ، هذه الأحكام صدرت بناء عن عدة أوصاف للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

١ — بوصفه رسولا مبلغاً عن الله شرعه وأحكام دينه .

٢ — بوصفه رئيساً للدولة حفيظاً على شئونها ، راعياً لها .

٣ — بوصفه قاضياً بين الناس فى المنازعات والخصومات .

ومن هنا فإن السنة الملزمة تنقسم إلى عام فيما يتعلق بالأحكام الملزمة لجميع المكلفين وهو ما فصل أو فسر مجمل القرآن وموجزه . . . إلخ ، وخاص فيما يتعلق بتصرفات الرياسة والقضاء .

ومحل هذا التقسيم : أن السنة الملزمة تنقسم إلى ثلاثة أقسام تفصيلية :

القسم الأول : ما يصدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفته نبياً ورسولا ومبلغاً عن الله شرعه وحكمه إلى الناس على نحو ما وضحناه فى وظيفة السنة ، وهذا القسم تشريعه ملزم عام إلى يوم القيامة ، لا يتوقف على شيء سوى العلم به ، فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبع الرجل على بيع أخيه » وإذا نهى (صلى الله عليه وسلم) أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها فمعناه : أن هذا شرع ملزم دائم عام فى ذمة المسلمين إلى يوم القيامة لا يسع المسلمين فى نظر الإسلام إلا أن يأخذوا به وإن رغبوا عنه فقد ابتعدوا بأنفسهم عن المحجة البيضاء . .

القسم الثانى : ما يصدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بوصفه رئيساً للدولة مثل : إرسال الجيوش ، وتصريف رأس المال فى الدولة وتعيين الولاة والقضاة ، وتقسيم الغنائم والفيء ، وإبرام المعاهدات ... إلخ ، فى كل ما له صلة بالسياسة الداخلية للدولة ، أو السياسة الخارجية للجماعة الإسلامية ، وكل ما له صلة بحفظ الدولة وتدبير مصالح الرعية ، وهذا القسم : إن كانت الوقائع فيه تطبيقاً لمبدأ دستورى أو فقهى فى القرآن كان شرعاً عاماً .

وإن كان بصفة الرياسة الخالصة بعيداً عن تبليغ وحي الله أو تنفيذ

شرعه : مثل مشاورته عليه السلام فى حفر الخندق يوم الأحزاب ، والاستراتيجية يوم بدر . . فهو شرع خاص ، بمعنى أنه لا يجوز لواحد من المسلمين أن يقدم على فعله إلا بحصول إذن من رئيس الدولة .

يقول فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت بعد أن ذكر هذا القسم فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » : وحكم هذا أنه ليس تشريعاً عاماً فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام وليس لأحد أن يفعل شيئاً منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) فعله أو طلبه اهـ .

القسم الثالث : ما يصدر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) بوصفه قاضياً فى المنازعات بين الناس ، وهذا القسم يحدد سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منزلته التشريعية فيقول : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسست أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »(رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن)

وهذا طبيعى فى المنازعات الصغيرة التى لا حكم لها فى القرآن ولا فى السنة على وجه التكليف .

وحكم هذا القسم أنه ليس تشريعاً عاماً ، فيتقيد القادم عليه بإجازة الولى ، ومعناه : أن الإلزام لا يكون إلا بحكم جديد فى الحوادث التى تتشابه مع قضاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك: لأن أخذ الحقوق عند التجاحد حتى فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان بحكم قضائى جديد فلا استثناء فى قضية جديدة بحكم سابق لمثلها .

٢ ــ السنة غير الملزمة :

وخلاصة هذا القسم أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أشار برأيه الشخصى فى بعض ظروف الحياة المعيشية التى لا مدخلية لها فى التكليف أو التشريع ولا تقضى ظروفها سن حكم أو تشريع قانون ، فمثلا يروى البخارى

عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار ، وأنهى أمتى عن الكى »

وهذه أمور طبية تصلح بالتجربة فى الظروف الخاصة بالبيئة فإن العارفين بالشئون الصحية يقولون :

إن الفصد أنفع فى البلاد الباردة ، والحجامة أنفع فى البلاد الحارة ،

فإذا قرأ المسلمون فى البلاد الباردة هذا الحديث فهل يلتزمون به على أنه شرع عام ؟ كلا ، لأن السنة هنا تتكلم بناء على التجربة الخاصة فى البيئة الخاصة ، وكذلك شرب العسل قد يكون شفاء لبعض الناس وداء للبعض الآخر ، فإن الأبدان تختلف والطبائع متباينة وإنما فقه الحديث : أن الشفاء لبعض الناس فى بعض البيئات قد يرتبط بإحدى هذه التجارب الطبية ، ولا يمنع أن يكون الشفاء فى غيرها ، ولا يمنع أن يتخذ المسلمون وسائل الشفاء حسب مقررات الطب ومعلوماته عن الإنسان فى البيئة الطبية الخاصة ، وهذا القسم غير الملزم يتعلق بنواح ثلاثة :

١ — الحاجة البشرية اليومية المتكررة تلقائياً مثل النوم والأكل . . إلخ .

٢ — التجارب العلمية المتعلقة بالطب والزراعة والتعليم والتجارة . . إلخ.

٣ — التدبير الاستراتيجى العسكرى ونظام الجيش ، والتكتيك الحربى والإمداد والتموين . . . إلخ .

فهذه المجالات كل ما يرد فيها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهو سنة خاصة بأحداثها وأزمنتها ، وليس تشريعا عاما يناط بذمة الأمة ، وحول هذا يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

فمن أخذ به تبركاً وتيمناً برسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتب الله له تحقيق المأرب ، وجنبه مصارع السوء ، وهداه سواء السبيل .

فلله جنود السموات والأرض . ومن تركه فلا إثم ، ولا تثريب عليه والله أرحم الراحمين .

لكن بقى علينا أن نفهم : أن الإسلام يحترم فى البشرية عقولهم ويدفعهم إلى العمل بما أودعه الله فيهم من الذكاء وأن يكون عملهم مقترنا بطاعة الله تعالى ، ولذلك: فإن المسائل التى ترتبط بحياة الدولة سياسيا وعسكريا ، أو بحياة الأفراد لم يحفل الإسلام بشرحها تفصيلياً ، حتى لا يعيش المسلمون عالة على التشريع فى كل شىء ، ويعطلون فيهم العقل والذكاء ، بل اكتفى الإسلام بالخطوط الرئيسية فحدد الدائرة فى كل مجال تتجدد فيه الحركة ، ويتعدد فيه النشاط ، على أساس أن تكون الحركة فى هذا المجال داخل هذه الدوائر ، وأن تكون مصاحبة للخلق الإسلامى ، وفى هذا الجو نفهم :

١ — معنى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنتم أعلم بأمور دنياكم .

٢ — كما يظهر لنا أن التوكل على الله غير التواكل .

فالأول : حركة مع الإيمان .

والثانى : عالة مع تعطيل .

والأول : دعوة الإسلام .

والثانى : يجافيه الدين ويمقته طبع البشر .

فسددوا وقاربوا ، وشمروا واعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاتلوا ، ولا تضيقوا على الناس رحمة الله ، ولا تفسدوا على الإسلام أنه دين الرحمة .

وقد قال (صلى الله عليه وسلم): لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك .

فالله هو الرحمن الرحيم وقد كتب على نفسه الرحمة .

والنبي (صلى الله عليه وسلم) بعثه الله رحمة للعالمين .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

ونحن أمة الرحمة : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ومن لا يرحم لا يرحم .

فكونوا للسنة شهباً تضيء ولاتحرق ولا تحجروا على الناس كثيراً.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

٢

في العمل بالسنة وأحوال المستشرقين

١ — الوازع الديني في نفوس المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ — موقف الصحابة من السنة .

٣ — منهج الصحابة في صيانة السنة .

٣ — موقف الأحزاب : الخوارج ، الشيعة ، المعتزلة .

٥ — المستشرقون والسنة .

النوازع الدينى فى نفوس المسلمين بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الدارسون للسنة الإسلامية يوقفهم ألم مر منيت به الأمة الإسلامية بعد نبيها (صلى الله عليه وسلم) بفترة وجيزة .

فبينما كان الدين هو الرائد للفرد والجماعة فى ظل النبوة والخليفتين من بعده ، كان الناس قد أخمدوا فى نفوسهم جذوة العقيدة عما اشتهوه من لذائذ الحياة ، واستباحوا لأنفسهم من الخوض فى الفروع التى آثروها على صيانة الأصول ، فجعلوا أهواءهم أئمة وتركوا الدين وراءهم ظهرياً ، بل تجشم فريق من الهالكين فى الغى إسناد هواهم بنصوص من الدين ، فلما أعوزهم الحق ، كذبوا وافتروا ، فوضعوا الأحاديث ، وأولوا فى آيات الله فبئس ما كانوا يصنعون ، ونحن إذا استعرضنا تاريخ الدعوة الإسلامية نجد ظاهرتين متعاقبتين :

الأولى : الدين يسوس الدنيا .

الثانية : الدنيا تسوس الدين .

الظاهرة الأولى : تتمثل فى كنف النبوة ، ومدة الخلافتين (البكرية ، والعمرية) .

الظاهرة الثانية : تتمثل فى تآمر (اليهود ، والنصارى ، والفرس ، والمنافقين) على وأد الدولة الإسلامية تعبيراً عن الكراهية الدفينة للإسلام ، الذى أنهى دولة الشرك ، وأنشأ أمة تسوى بين الناس .

وتوضيح هذا . . .

أن الأحداث فى معية الظاهرة الأولى توضح المدى الكبير لسيطرة الوازع الدينى على نفوس المسلمين ، وأخذهم بقواعد الدين ، فى جميع ظروف الحياة .

ففى سقيفة بنى ساعدة ، شهد التاريخ أروع مجلس نيابى لانتخاب أول خليفة للإسلام ، فى التعبير عن الرأى بـ (أسلوب مهذب ، وأدلة تساند الحق بلا تجريح ولا أنانية) .

فالفريقان (المهاجرون ، والأنصار) يريان أهلية كل منهما لتولى الخلافة، ومع كل فريق أدلته — لكن المسألة ليست مسألة أهلية وحسب ، بل هى مسألة أولية معروفة للناس فى التاريخ ، والعرف ، والإدارة ، وقد عرف الناس أن قريشاً هى سادنة البيت ، وأميرة بلاد العرب ، فإذا تولت الخلافة اجتمع الشمل واحترم الرأى عند الناس أجمعين ، أما إذا تولاها الأنصار مع أهليتهم لها ، فان كانت فى جانب الخزرج نفست عليهم الأوس ، والعكس صحيح، فينصدع أمر الأمة ويهزأ بالدولة ، وإن كان الأمر شركة كان ذلك (الوهن والضعف والفساد) الذى ينهى فى عجل عمر الدولة . . .

وتم الخلافة دون دم يراق ، بل دون كلمة نابية تذكر ، أو عرض يخدش أو تولد حزبية ، أو طائفية . . .

وتنشط الأمة كلها لمواجهة الخطر المحدق بها :

١ — المتنبؤن: مسيلمة الكذاب ، وسجاح ، والأسود العنسى ..وغيرهم.

٢ — المرتدون الذين كفروا بحقوق عيال الله فى الزكاة التى يعتبرها الإسلام أساس العدل الاجتماعى فى رعاية المحاويج . . .

ويثبت التاريخ صحة هذه النظرية :

(أن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش) فينطلق الجيش الإسلامى

ليقضى على فتنة المتنبئين الكاذبين ويرغم المعاندين المرتدين على الإيمان بحـق المجتمع فى الرعاية ، ووجوب العدل الاجتماعى للفقراء والمساكين وفى سبيل الله والسائلين وفى الرقاب وابن السبيل ، إلـخ .

ومع هذا الجهد : تجاه المتنبئين والمرتدين فقد حققت الخلافة الأولى أخص خصائص أصول الدولة :

فجمعت القرآن الكريم ، دستور الأمة ، ومصدر تشريعها ، وزادها الثقافى الأصيل .

ومن بعد هذه الخلافة التى كانت تعتبر امتداداً لأعمال تثبيت الدولة الناشئة . . . كانت الخلافة العمرية : تلك الخلافة الباسلة الجريئة التى فتحت باعها تنشر دين الله فى آسيا ، وأفريقيا ، فتحولت صورة المعتنقين للإسلام من الشكل الفردى أو الجماعى إلى شكل جغرافى دولى : بمعنى أن الدول والأمم التى شربت الذل من كأس الإهانة تحـت سيطرة الروم والفرس رحبت بالإسلام ديناً يكسبها الحرية والعدل والمساواة ، والإنسانية ، دون ما ثمن إلا أن يشهدوا : (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فإن هذه الشهادة هى عصب الحرية التى تجعل الناس جميعاً عبيداً لله ، وأن الله وحده هو صاحب الملك والجبروت ، والناس من بعد ذلك أكفاء لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والمسلمون إخوة : كل على صاحبه حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وهم مع أنفسهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، يتناصحون بالمعروف ولا يصرفهم عن الجهر بالحق صداقة ، ولا رياسة ، ولا مجاملة ولا فضل . إلخ. تلك سمة المجتمع : بناؤه عمد فى كيان الدولة الجديدة والأمة الجديدة ، يبنون بروح لا تعرف فى دينها ، ولا فى أخلاقها ضعفاً ولا خداعا ولا خيانة ، ولا اختلافاً . . .

وبناؤه بالشرع الجديد ، والحضارة الرفيعة الأولى فى عمر الأرض والحياة كأتم ما تكون خطة البناء عزماً وقدرة ، وعلماً وفهما ، وإخلاصاً

ويرتفع فوق كل ذى مصلحة خاصة : فوق حب الآباء والأولاد والحياة وفوق ذلك الحب يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ولكن البشر غير متحدين فى قيمة الحب للخير ، والعمل للسلام. وكذلك ليس البشر على قدر واحد فى تقبل حياة الخير ، والعمل من أجل السلام ، فلم يرتض اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والمنافقون ، الحياة الفاضلة التى عاشوها فى كنف الإسلام ، فأغروا صدورهم بالحقد عليه وتمنوا منه الثأر للممالك التى محاها الإسلام ، وكانوا يعيشون فيها أذلة ، وعبيداً . . . فتجمعوا فى مؤتمر ضم مندوبين عنهم :

كعب الأحبار	اليهود
الهرمزان	أمير الأهــواز
جفينة الأنصارى	الرومى
فيروز الفارسى	العجمى

وقرر المؤتمر اليهودى ، الرومى ، الفارسى ، المنافق ، تحطيم كيان الدولة الإسلامية ، ورأوا أن ذلك يبدأ بأول خطوة جريئة وهى : قتل عمر بن الخطاب الذى أفسح للإسلام فى ديار الفرس ، والروم ، ورسموا الخطة ووقع القضاء المبرم ، وقتل أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب ، فأذن مؤذن الهدم فى آذان المؤتمرين ، فتلقفوا المسألة ، وجيشوا الأعداء ، وثاروا على عثمان ، وقتلوه كما قتلوا من قبله عمر بن الخطاب . . . ثم اصطنعوا القضية بروح جديدة فأغروا على قتال على بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى أجمعت الأمة على خلافته ما عدا الشام ، ومصر ، وهما بحكم الشرع يجب أن يخضعوا إلى رأى الأمة ، صيانة للوحدة الكلية التى وصف الله بها أمة الإسلام . وناداها بهذا العنوان :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . (١١٠ : آل عمران)

ولكن مشاغل الحياة ، وطموح الشباب ووسوسة الشيطان ، ورقة هوى العيش ، ومتع النعيم ألهت عقول الناس ووهت عروة الدين فصار الناس يتعشقون الملك والرياسة والنعم ، وأصبح الدين عندهم في المركز الثاني فتفتحت عين معاوية على حرب على بقميص عثمان فانقسمت الأمة إلى حزبين : حزب مع معاوية ، وحزب مع على .

وفى صفين دارت المعركة وقارب على بجيشه على النصر ولكن المؤتمرين على تحطيم الدولة الإسلامية المتمنين سفك الدماء الزكية يخلقون قضية التحكيم إلى القرآن ، ومع رفض على رضى الله عنه لها ، فقد أرغمه فريق من جيشه — المنتصر — على قبولها ، وتلك خيانة لأن الذى يقبل الهدنة هو الجيش الضعيف الذى دالت قوته ولحقه العجز أما الجيش المنتصر فإنه متشوف للحظة الأخيرة التى يتم له فيها حلاوة النصر ، فإذا رأينا جيش على يتقهقر بعد القرب القريب من النصر ، ويستجيب لفكرة الخصم بقبول التحكيم — ومع رفض على وهو رئيس الجيش الذى يجب أن يطاع فإنهم قهروا رأيه وألزموه بالقوة أن يوافق ، ووافق الرجل وفوض عنه عبد الله بن عباس وهو عالم ذكى ، وشاب جذع متين ، يصرع الرأى بالرأى ، ويقابل الحجة بالحجة ، ولكن المؤتمرين على تحطيم الإسلام يجبرون علياً على أن ينيب عنه أبا موسى الأشعرى ، وهو رجل كبير فى السن والمسألة يعوزها قوة الدليل ، وسعة التمرس بالمجادلة ، وفقه القضايا المستورة ، وتحديد اللفظ المعبر عن المعنى المراد ، وتلك مسائل لا يقوى عليها عقل الشيخ ، وقبل على بعد أن نصح وأرشد لو كان يطاع لقصير أمر ؟

ولكن المسألة فى رءوس القوم مسألة إنهاء الإسلام والخلاص من كباره المحافظين عليه .

وبعد التحكيم الذى قبله جيش على ، والذى ألح على على بقبوله .

وبعد التحكيم الذى عين فيه جيش على واحداً من الفارسين مندوباً عن على .

وبعد التحكيم الذى تولى كبره جيش على . . . خرج فريق على على وتشيع فريق لعلى ، وعلى من كليهما برىء .

وهنا نرى قواعد الدين تنسى ، أو تتناسى ، وتظهر ألسنة السوء تطعن الصحابة ، ولا تبالى بنهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك « إذا ذكر أصحابى فأمسكوا » ، ويتطاول الجاهلون على الأفاضل الأجلاء : صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولو أنهم كانوا مسلمين حقاً لالتزموا بحسن الأدب واحترام الصحبة ، والجهر بالحق فى مسألة الخلافة كما حدث فى سقيفة بنى ساعدة ، فإن طابع الخلق هو مبدأ الإسلام فى كل مناقشة ، ولكن القوم كانوا قد عزموا على التحلل من ربقة الإسلام ومن قيوده ، وعشقوا صحبة السوائم فهموا ليطفئوا نور الله بأفواههم فصنعوا لمذاهبهم نصرة من دين الله فلما أعوزهم الدليل كذبوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوضعوا الحديث ، وافتروا النسبة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبئس ما صنعوا والله من ورائهم محيط .

وبهذا العرض يتبين لنا أن السنة هوجمت من حزب الخوارج ، ومن حزب الشيعة ، كما أنها مشجت بأخلاط الهوى الخارجى الشيعى ، ولذا فإن منهج الدراسة للسنة فى هذه المرحلة أعنى مرحلة عناية الأمة الإسلامية فى الحفاظ على السنة ، وتنقيتها ، تتطلب إطاراً خاصا فيه :

(ا) موقف الصحابة من السنة ، من حيث :

١ ــ تلقى سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

٢ ــ تقبلهم العمل بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحرصهم على تلقيها .

٣ ــ صيانتهم سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومنهجهم فى معرفة السنة من بعد النبى (صلى الله عليه وسلم) .

(ب) الأحزاب والسنة :

١ – موقف الخوارج من السنة .

٢ – موقف الشيعة من السنة .

٣ – موقف المعتزلة من السنة .

٤ – متى بدأ الوضع فى الحديث : أسبابه ، ودوافعه ، وآثاره .

٥ – موقف المستشرقين من السنة .

(ج) منهج العلماء فى تنقية السنة وضبطها :

١ – التدوين .

٢ – قواعد التحديث ، وضوابط الوضع . . . إلخ .

(د) العلماء ، والكتب ، و مناهجهم :

موقف الصحابة من السنة

١ — تلقى الصحابة للسنة :

يروى الإمام البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان النبى (صلى الله عليه وسلم)يتخولنا بالموعظة تلو الموعظة فى الأيام كراهية السآمة علينا .

وكان الرجال يغلبون النساء على مجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألت النسوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يجعل لهن يوماً كما جعل للرجال يوماً فأجابهن عليه الصلاة والسلام إلى ذلك ؛ ومعناه :

أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتلقون الحديث من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى حلقات العلم التى نظمها للرجال يوماً خاصاً وللنساء كذلك .

ولقد كان الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)فى الغزوات ، والمسجد ، والحضر والبدو ، والسوق ، والدار . . . يسمعون منه ويحفظون عنه ويعملون بما يسمعونه ، وما وعوه .

يقول مسروق : لقد جالست أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فوجدتهم كالأخاذ (الغدير) فالإخاذ يروى الرجل والإخاذ يروى الرجلين ، والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل أرض لأصدرهم .

قد وجد سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد ملأت صدور الصحابة جميعاً حفظاً ، ووسعت حياتهم عملا ، وتطبيقاً . غاية الأمر أن جمهور الصحابة أجمعين لم يكن على منزلة واحدة فى تلقى السنة :

١ — لبعد الديار وسعة الشقة .

٢ — وكثرة العمل ، وتعدده .

٣ — وكثرة الأسفار ، حلا وترحالا .

ولكنهم تفاوتوا فى السماع مباشرة من النبى (صلى الله عليه وسلم) :

يروى البخارى عن الأعرج قال : قال أبو هريرة رضى الله عنه : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والله إنى كنت امرءا مسكينا أصحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ملء بطنى ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم وقال : قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخيبر وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين فأقمت معه، حتى مات ، أدور معه فى بيوت نسائه وأخدمه ، وأغزو معه ، وأحج ، فكنت أعلم الناس بالحديث .

٢ — حرص الصحابة على تلقى الحديث :

١ — ولم تكن هذه المشاغل تلهى الصحابة عن تلقى الحديث من النبى (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم نظموا لأنفسهم نوبات ودوريات يتلقى أحدهم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوماً ، فيخبرهم بما سمع ، ويتلقى الأخرى يوماً ثانياً فيخبرهم بما سمع ، وهكذا . . .

يحدثنا البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ابن زيد ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ينزل يوماً وأنزل يوماًفإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .

٢ — ولم يكن ذلك فحسب ، بل كان أمر الحرص على تلقى السنة أوسع من هذا فإنه إذا عن لواحد من الصحابة فى أطراف الجزيرة أمر

مسألة يريد أن يتعرف على حكم الدين فيها قطع البون الشاسع ليسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن حكمها .

يروى البخارى عن عقبة بن الحارث أنه أخبرته امرأة بأنها أرضعته هو وزوجته فركب من فوره – وكان فى مكة – حتى بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما ؟ فقال له النبى (صلى الله عليه وسلم) (كيف وقد قيل) ؟ ففارق الرجل زوجته لوقته .

٣ – ولقد ازدوج حرص الصحابة على تلقى السنة بالحرص على العمل بها :

روى الإمام مالك فى الموطأ عن عطاء بن يسار : أن رجلا من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)عن حكم تقبيل الصائم لزوجته ، فاخبرتها أم سلمة رضى الله عنها : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقبل وهو صائم فرجعت إلى زوجها فأخبرته . فقال : لست مثل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحل الله لرسوله ما يشاء . فبلغ قوله ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فغضب وقال : « إنى أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده » .

ويروى القاضى عياض فى الشفاء عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم ، فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقائكم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ، فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيها قذرا . . . .

هكذا كان حرص الصحابة على :

١ – تلقى السنة : ٢ – والعمل بها .

ولم يكن ذلك شأن الرجال فقط .

٣ – بل كانت النسوة كذلك يحرصن على تلقى السنة والعمل بها.

يروى البخارى بسنده عن السيدة عائشة (رضى الله عنها) أن امرأة سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) عن غسلها من المحيض ، فأمرها كيف تغتسل ، قال : خذى فرصة من مسك فتطهرى بها ، قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : سبحان الله تطهرى ، فاجتذبتها إلى ، فقلت تتبعى أثر الدم .. الخ .

تحيرت خطيبة النساء (أسماء بنت يزيد) من الأنصار فى كيفية التطهر من الحيض ، فلم يسعها إلا أن تسعى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لتستفسر عن الحكم منه ، فأجابها النبي (صلى الله عليه وسلم) بالحياء الذى يجب أن يحتذيه المسلمون العلماء فى معالجة الأمور ، والمناقشات ولما استعصى عليها الفهم ، أخذتها السيدة عائشة (رضى الله عنها) تشرح لها ما يستحى الرجل أن يوضحه حتى ولو فى موقف الحكم الشرعى .

وعلى هامش القصة يتبين لنا أن الحياء فى الدين ، وأن عبارة الناس لا حياء فى الدين جهل بأصول الخلق الإسلامى .

ومن هنا نستوضح :

١ – تلقى الصحابة للحديث فى حرص مع كثرة المشاغل ، وبعد الشقة

٢ – عمل الصحابة بالسنة والاقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) .

٣ – اشتراك النساء مع الرجال فى :

(ا) تلقى السنة ، والحرص عليها .

(ب) والعمل بها .

٤ – وإن الحياء فى الدين أسلوب لتبليغ الدعوة إلى النساء .

* * *

منهج الصحابة في صيانة السنة بعد النبي صلى الله عليه وسلم

(ا) الأخذ بشرط الشاهد :

١ – يروى ابن شهاب عن قبيصة رضى الله عنه أن الجدة جاءت إلى أبى بكر (رضى الله عنه) تلتمس أن تورث ، قال : ما أجد لك فى كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر لك شيئاً ، ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : « كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذها لها أبو بكر » .

يتبين من الحديث : أن أبا بكر (رضى الله عنه) لم يأخذ بخبر المغيرة مع أنه صحابى جليل مشهور ، صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أسفاره ، ولكن هذا شيء والتثبت من حديث يتعلق بحكم لم يذكر فى القرآن الكريم شيء آخر ، فطلب أبو بكر أنيساً مع المغيرة يشهد عنده أن ذلك صحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

٢ – كذلك يروى الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن أباموسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاثاً فلم يؤذن له فرجع ، فأرسل عمر فى أثره ، فقال : لم رجعت قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع ، قال لتأتينى على ذلك ببينة أو لأفعلن بك : فجاء أبو موسى ممتقعاً لونه ، ونحن جلوس ، فقلنا : ما شأنك ؟ فأخبرنا ، وقال : فهل سمع أحد منكم ؟ فقلنا : نعم ، كلنا

سمعه، فأرسلوا معه رجلا منهم ، فأخبره ، فقال عمر : إنى لم أتهمك ، ولكنه الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

واضح أن عمر لم يطلب شاهداً على عدالة أبى موسى لأنه لم يتهمه ، ولكن القضية فى أساسها ، هى صيانة الحديث النبوى ، وتدريب الأمة على هذه الصيانة .

(ب) شرط القسم :

وبمقدار ما يمكن من الاحتياط فقد نهج الصحابة الكبار فى أساليب متعددة لصيانة السنة الإسلامية من العبث ، وكان لعلى بن أبى طالب منهجه الخاص ، « منهج القسم ، واليمين » .

يروى أسماء بن الحكم الفزارى : أنه سمع علياً رضى الله عنه يقول ، كنت إذا سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حديثاً نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته ، فإذا حلف صدقته ، وحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر ، قال : سمعت النبى (صلى الله عليه وسلم) يقول : ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له .

(ج) المنهج عند الضرورة :

ويجب أن نلفت أذهانكم إلى أن هذه المناهج التى استخدمها كبار الصحابة لم تكن منهج الاستمرار ، فى تقبل السنة ، بل هى منهج خاص فى الواقعة التى لم يتثبتوا فيها من الرواية ، كما أنه لا مجال للطعن فى صحابى : فقد هاجروا من ديارهم ، وأولادهم ، وأوطانهم ، وباعوا : النفس والنفيس ، واستعذبوا تعب الجهاد فى سبيل الله ، فلم يكن لواحد منهم أن يكذب ، — حاشا الله — ولم يكن لواحد منهم أن يرمى صاحبه بالكذب ، فهم كالنجوم بأيهم اقتدى الناس اهتدوا ، ولكنها الأمانة التى تحملها رؤساء الأمة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فيما يرويه مسلم عن أبى هريرة :

«كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع » ... فإن التثبت فى الرواية هو أفضل من الإكثار فيها ؛ فإنه مع تحديد السنة وجوب التبليغ على الحافظين الشاهدين، للغائبين فيما يروى (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) — فإن التبليغ يجب أن يكون ى دثار من التثبت والحيطة .

(د) الإقلال من التحديث صيانة للسنة :

ولهذا نرى لفيفاً من الصحابة الأجلاء يمتنعون عن الإكثار من الحديث :

١ — يروى البخارى فى كتاب العلم عن عبد الله بن الزبير أنه قال لأبيه : إننى لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : أما أنى لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » ، وليس معنى هذا أن الإكثار من الرواية كذب ولـكنه يتحاشى التحديث خوفاً من النسيان ، أو الخطأ فى فهم المراد ، يفسر هذا المقصود .

٢ — ما يرويه ابن ماجة فى سننه من أن زيد بن أرقم كان يقول : كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد .

٣ — كذلك يقول السائب ابن زيد ، صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة ، فما سمعته يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً .

٤ — كذلك كان أنس بن مالك يتبع الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (أو كما قال) خوفاً من الوقوع فى الكذب عليه .

٥ — كذلك كان الإقلال من التحديث أمرا محتما فما زال القرآن غضاً طرياً لم يستوعبه المسلمون . دراسة وحفظاً ، لا سيما والناس يدخلون فى دين الله أمماً جديدة . والحفاظ على القرآن وظيفة أساسية للحكومة الإسلامية .

ولهذا فقد رغب عمر بن الخطاب عن تدوين السنة . تدوينا رسمياً ، فى كتاب جامع مثل القرآن .

٦ - كذلك نصح عمر بن الخطاب قرظة بن كعب وهو فى طريقه إلى العراق ، قال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمضوا وأنا شريككم » - وامتثل قرظة بن كعب أمر رئيس الدولة : فلما وصل العراق، طلبوا إليه أن حدثنا ؟ فقال : نهانا عمر بن الخطاب .

(هـ) مدى النهى ، ومفهومه :

لم يكن نهى الأمة عن الإكثار من التحديث شاملا لجميع أفراد الأمة ، بحيث يدع التحديث ، والرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك معناه : ضياع السنة ، وحبسها فى الصدور ، وإنما كان مدى النهى هو المحافظة على سلامة التنشئة الاجتماعية بنقل السنة من الموثوق فيهم الذين شهدوا مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورووا عنه بالوعى والفهم ، والحفظ : يقظة أمينة لا نسيان فيها ولا تأويل .

ولذلك نرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبيح لأبى هريرة الرواية ، فقد روى أنه قال لأبى هريرة حين بدأ يكثر من الحديث : أكنت معنا حين كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مكان كذا ؟ قال : نعم ، سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فقال له عمر : أما إذا ذكرت ذلك فاذهب فحدث .

ومفهوم هذا الإقــلال .

أن عمر بن الخطاب والذين نهجوا منه قصدوا .

١ - جمع الأمة على حفظ القرآن الكريم .

٢ - ألا يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نفر معروف بالثقة والأمانة حتى تصل السنة قوية كما علمها لهم النبى صلى الله عليه وسلم .

٣ - حماية مصدرى الثقافة الإسلامية ، والتشريع الإسلامى من الهوى ، واللغو ، بل من مظنة . العبث ، واللهو ، واللغو ؟

ولقد حقق الله لهم المأرب ، فوصلت إلينا مصادر الثقافة الإسلامية ، كما شاء الله أن تصل إلينا حسب ما أراد الرعيل الأول الطاهر الطيب النقى : سليمة مكينة ، مصونة ، ذاتية، كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأوجز عبارة لمعنى مفهوم الإقلال أنها إجازة خاصة لنفر خاص مع هدف نبيل خاص .

شبهة :

وبعد هذا العرض لجزء من موقف الصحابة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهج كبار رجال الدولة نرى أن ما يميل إليه بعض الكاتبين أن عمر بن الخطاب حبس « ابن مسعود ، وأبا ذر وأبا الدرداء » ليس بحق ولا أحب أن أطيل فى الدفاع عن هذه الشبهة لأنها غير متقبلة بالنسبة لمدى النهى ومفهومه ، وغير مؤكدة فى تاريخ السنة ، أو التشريع أو تاريخ الدعوة .

ولكنى سأنقل هنا رأى فضيلة الدكتور المرحوم الشيخ مصطفى السباعى بعد أن بحث هذه الشبهة ووصل إلى أنها غير حقيقية ، قال : « فقد لبثت كثيراً أشك فى هذه الرواية وأقلبها على جميع وجوه النظر حتى قرأت فى كتاب (الأحكام) لابن حزم ما يلى :

وروى عن عمر أنه حبس ابن مسعود ، من أجل الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبا الدرداء ، وأبا ذر . وطعن ابن حزم فى هذه الرواية بالانقطاع لأن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مات سنة ٩٩ هـ أو ٩٥ هـ ، وعمره ٧٥ سنة ، فيكون قد ولد سنة ٣٠ من الهجرة ، فى أواخر خلافة عمر ، فلا يتصور سماعه منه فى مثل ذلك السن ، وعلى ذلك فلا تكون الرواية حجة ، ولا يؤخذ بها (١) .

---

(١) ص ٧٠ السنة للدكتور السباعى .

(و) رحلة الصحابة لتلقى السنة بعد النبى صلى الله عليه وسلم :

لم تقف جهود الصحابة من أجل صيانة السنة والعمل بها عند الشروط وإجازة التحديث لنفر خاص ، بل تعداها إلى السفر وتحمل المشاق ، لسماع حديث من راوية ليتأكدوا من صحة الرواية ونسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن عباس رضى الله عنه . كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو شئت أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ، ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى .

وبحكم طبيعة الحياة فقد أخذ عمر الصحابة فى النهاية فيقربهم إلى الله بعد أن أدوا رسالتهم بأكمل ذمة وأكرم خلق ، وكان لابد لصغار الصحابة فى السن أن يتحملوا من بعدهم ثروة الدين فهاجروا فى جوف الصحراء يطلبون ديار المحدثين وليتم لهم صدق التثبت من نسبة الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

١ — فقد أخرج البخارى عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعه منه فابتعت بعيراً وشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام فإذا هو : عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته فقلت له : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ،فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

يحشر الناس غرلا بهما ، قلنا :ومابهم ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان،لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصها

منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصهامنه حتى اللطمة ، قلنا : كيف ؟ وإنما نأتى الله غرلا ، بهما ؟ قال : بالحسنات ، والسيئات .

هكذا تجشم جابر بن عبد الله رضى الله عنه متاعب الطريق شهرا كاملا :

١ — فى بيداء غير معبدة الطريق .

٢ — لا يستأنس فيها برفيق .

٣ — وليس على طول الطريق أنيس ولا زاد ولا ماء .

٤ — وقد هجر : دياره ، وأهله ، وماله ، طول شهر كامل .

ذلك كله . . . من أجل خشيته أن يموت هو أو يموت عبد الله ابن أنيس دون أن يحفظ الحديث الذى سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — وقد أخرج البيهقى وابن عبد البر ، عن عطاء بن رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل إلى مصر يسأل عن حديث لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مسلمة بن مخلد الأنصارى ، فلما قدم إلى منزل مسلمة — وكان أمير مصر — خرج إليه فعانقه ثم قال : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ . قال : حديث سمعته أنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ستر المؤمن . فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر مؤمناً فى الدنيا على كربة ستره الله يوم القيامة . ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة .

لم تجشم أبو أيوب متاعب السفر من المدينة إلى مصر ؟ إنه لم يتجشم السفر طلباً للنزهة أو المال أو الوظيفة أو السياحة ... إلخ ، ولكن من أجل حديث لم يبق أحد من سامعيه غير مسلمة بن مخلد — أمير مصر — .

٣ — ويبرز هذه المجهودات الشاقة فى طلب السنة ما يقوله سعيد ابن المسيب رضى الله عنه : إنى كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد . وبهذه الجهود الأمينة الشاقة صان المسلمون فى الصدر الأول سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليجزهم الله عن سنة نبيه ودينه ، وأمة الإسلام خير الجزاء .

* * *

موقف الأحزاب وحلفائهم من السُّنه

نقصد بالحزبية هنا كل مدرسة لها رأى لا يتفق مع أصول الإسلام ، ونصوصه ، وروحه ، وتخضع هى له : نقصد بالحزبية هنا كل فكرة عقلية تؤول فى القرآن الكريم لتجر الدين إلى جانبها ، وتجعله تابعاً لرأيها .

وأخص خصائص الفاعلين لهذا الهوى ، أحزاب ثلاثة :

١ — حزب الخوارج .

٢ — حزب الشيعة .

٣ — حزب المعتزلة .

ونقصد بالأصدقاء ، المستشرقين الذين اعتمدوا فى طعن السنة على أقوال وأفعال تلك الأحزاب ، التى انتحلت لنفسها نسبة التعبير عن دين الإسلام فى كل ما فعلته من ثقافة ، ومعلومات اتبعت فيه هوى النفس أو هوى الغير من الذين استحلوا علومهم فنحلوها ، وألهوا بها عقولهم ، ثم فلسفوا دين الله بهواهم المتبع : إن من عند أنفسهم ، أو عند الناس غير المسلمين : فكراً أو دنياً أو زمناً أو جيلا ... إلخ .

ومن الله نستلهم العون فى عرض قضايا هذا الموضوع ، فإلى الله ترجع الأمور .

الخوارج والسنة

فى التمهيد الحتمى الذى صدرنا به هذا البحث وضعنا أيدينا على ظاهرة غريبة عن الخلق الإسلامى ، والوازع الدينى ، تلك الظاهرة هى :

أن المسلمين تعرضوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم لمشكلة الخلافة .

وقد عالج الصدر الأول بعد النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة قضية الخلافة بالخلق الرفيع المحافظ على أصالة ووحدة الأمة ، ورجع هذا إلى ظاهرة أن الدين كان يسوس الدنيا ، وأن الوازع الدينى فى نفوس الصحابة كان يسيطر عليهم فى كل تصرفاتهم .

ولكن الحاقدين على الإسلام عالجوا قضية الخلافة بأسلوب بعيد عن الخلق الإسلامى ، والحرية الإسلامية ، فسفكوا الدماء ، وفرقوا الأمة ، ثم كسوا خلافهم هذا شكلا دينياً ، فألفت كل جماعة منهم قواعد ومبادىء خاصة بها وراحت تنظر فى القرآن والسنة، لتؤول النصوص بغية الحصول على تأييد من الدين لمبادئها ، فلما لم يجدوا ، افتروا وكذبوا .

ومن هنا ندرك أن وضع الحديث مرتبط بحاجة الحزب إلى نص دينى ومن غير شك فإن قضية الخلاف قد أخذت شكلا واسعاً ، شمل الأفراد والأسر ، والصحابة .

وعلى هذا ، فالخوارج لا علاقة لهم بالصحابة قبل التحكيم لأن مبدأ التفسيق أو التكفير عند الحزب هو : قبول التحكيم . فكل من ساهم فى التحكيم وعمل فيه أو قبله فهو مجاوز حد الشريعة ، ومردود إيمانه فى نظرهم ، ومع اعتقادنا أنه ليس لأحد أن يكفر رجلا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن النصوص القرآنية الصريحة لا تسعف الخوارج

فى قضيتهم ، فإننا نريد أن نعرفكم أن الذين قبلوا التحكيم أولا هم الخوارج ، بل هم الذين أجبروا علياً على قبوله ، وهم الذين حددوا النائب عنه من بينهم ورفضوا الرجل الذى أنابه على عن نفسه .

إنهم هم الذين تحكموا فى مسألة التحكيم لهوى فى نفوسهم ، وكيد أصغر ونية سيئة بالإسلام ، ودولته الشابة، يظهرها أنهم كفروا الصحابة : علياً ، ومعاوية ، وأصحاب الجمل . وردوا الأحاديث التى رووها ... إلخ ، بعد موقعة التحكيم بحجة الخلافة . مع أنها عندهم من فروع الدين وليست من أصوله ، فكيف يستقيم عندهم أمر التكفير لمسألة فرعية ؟ ينطق أصحابها بشهادة التوحيد ؟ .

وإذا كان الخوارج يدعون نصرة الدين ، ويظهرون تفانيهم فى الحفاظ على قواعده من الجهة العملية التطبيقية فيرون أن مرتكب الكبيرة كافر ، فإنهم أقل الناس وضعاً للحديث .

فالخلافة ليست مأرباً لهم ، والتقية فى الحق ليس من شأنهم ، إنهم مخربون باسم العدل ، وهم مدعو التدين البحت فقللوا من الوضع ، فلم يكونوا ليكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عندما ألحت عليهم الظروف من الخصوم (الشيعة) الذين ألهبوا عقول المسلمين بخضم من الأكاذيب ، فقابلها الخوارج بكذب أقل منه ، رأوا فيه شفاء للغليل .

يروى الجوزى فى كتاب الموضوعات عن أبى لهيعة أنه قال : سمعت شيخاً من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فإننا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثاً .

ومهما يكن من أمر ، فإن الخوارج كحزب له آراؤه الدينية التى لا يساندها نص واحد من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لابد من جنوحهم إلى الوضع ، والكذب خاصة وخصومهم فى القضية قد أطلقوا عنان خيلهم فى وضع الأحاديث ، ولو كان للخوارج

ـ كما يقول المدافعون عنهم ـ ذمة أو عندهم ورع ما حللوا سفك الدماء التي يشهد أصحابها أن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن القرآن حق ، وتجرءوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفروهم ، في مسألة هي عندهم من الفروع لا من الأصول .

وخلاصة الحديث :

١ ـ إن الخوارج لم يسعفهم القرآن والسنة في مساندة آرائهم فوضعوا كذباً أحاديث ونسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ وأنهم ووجهوا من الشيعة بجحافل من الكذب والحديث الموضوع ، فكان لابد لهم من مجابهتها ولو في حدودهم الضيقة التي يظهرون فيها الورع والصلاح .

٣ ـ وأن وضع الخوارج للحديث وكذبهم قليل بالنسبة إلى ادعائهم الورع ، وبالنسبة إلى الحروب الجمة التي أثاروها ، واصطلوها من سيدنا علي نفسه ، ومن معاوية من بعده ، فهم شركاء على كل حال في جريمة تفريق الأمة ووضع الحديث ولو بنسبة ما .

غلاة الشيعة والسنة

الذين تولوا كبر وضع الحديث ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم هم غلاة الشيعة . يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة :

« اعلم أن أصل الكذب فى أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة » .

والشيعة أقوام : منهم المعتدلون ، ومنهم الزنادقة . والقسم الأخير أسسه أصحاب ابن سبأ وقد ألهوا علياً . قالوا له : أنت هو ؟فقالوا : أنت الله ، فهاله التعبير وأرجفه ، وتبرأ منه ، وأحرق ديارهم نكالا ، وعبرة لمن يلف لفيفهم .

ومن أصدقاء هذا القسم الرافضة ، وهم دعائم الكذب . قال الخليل فى الإرشاد : وضعت الرافضة فى الفضائل نحو ثلاثمائة ألف حديث (٣٠٠,٠٠٠) .

ويقول حماد بن سلمة : حدثنى شيخ من الرافضة قال : كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : « ما رأيت فى أهل الأهواء قوماً أشهد بالزور من الرافضة » .

والشيعة المسلمون غير الكافرين — وهم المعتدلون — يجرحون : أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص .

إنهم يجرحون الصحابة إلا قليلا ممن شايعوا علياً ، وقد قالوا : إن الذين شايعوه خمسة عشر صحابياً (١٥) ، فالسنة عندهم : مردودة إلا ما روى عن أصحابهم الخمسة عشر ، فالقاعدة عندهم أن من لم يوال علياً ويشايعه فقد

خرج على الوصية ، إلا أن الزيدية ترى أن علياً أفضل من الصحابة ، وأن الصحابة مفضولون والإمامة قبل على جائزة .

ونحن نحب أن نضع بين أيديكم نصاً صريحاً للإمام على رضى الله عنه رفض فيه التشيع بادىء أمره ، فغداة تولية أبى بكر الخلافة ذهب أبو سفيان إلى سيدنا على رضى الله عنه وقال له : كيف يغلبك عليها ابن أبى قحافة (أبو بكر) ؟ . والله لو شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا . ولكن سيدنا على رضى الله عنه يرد مقالته ويرفضها ، ويقول له : « ومتى كنت تنصح للمسلمين ؟ » .

كذلك أمر الخلافة شورى بين المسلمين بنصوص القرآن :(وأمرهم شورى بينهم)(١) : ويأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول : (وشاورهم فى الأمر) (٢) . كذلك ليس فى القرآن طبقية ولا فاضل ولا مفضول ، فالناس سواسية كأسنان المشط يناديهم الله : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)(٣) .

ومن هذه النصوص ترون :

١ ــ أن الخلافة شورى بين المسلمين .

٢ ــ وأن الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

٣ ــ وأن التشيع مرفوض ابتداء من سيدنا على رضى الله عنه .

ولكن المظاهرة التى صخب بها المجتمع المتشيع ، لها مهمة سرية هى بعث القوميات الفارسية والمذاهب الفاجرة التى حطمها الإسلام لتثأر من هذا الدين ، ولن يحيق المكر السىء إلا بأهله والله المستعان على ما يصفون .

---

(١) ٤٣ – الشورى (٢) ١٥٩ – آل عمران (٣) ١٣ – الحجرات

نموذج من الكذب الشيعي في الحديث :

١ — تكذب الشيعة فتقول : لما أسرى بالنبي أتاه جبريل بسفرجلة من الجنة فأكلها ، فعلقت السيدة خديجة بفاطمة ، فكان إذا اشتاق إلى رائحة الجنة شم فاطمة .

ودلائل الكذب فى هذا الحديث يقررها التاريخ ، فالمطلعون على فهارس كتب تاريخ الدعوة الإسلامية يجدون تسلسل الحوادث من نقض الصحيفة التى علقها القرشيون على بناء الكعبة لمقاطعة بنى هاشم وأقرباء النبي صلى الله عليه وسلم حتى الإسراء ، تسير هكذا :

دعوة القبائل فى الأشهر الحرام ، حصار المسلمين فىشعب بنى هاشم ، نقض الصحيفة ، عصمة النبي فى تبليغ الدعوة ، موت أبى طالب وخديجة ، ازدياد أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، خروج النبي إلى الطائف ، عرض محمد صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل ، خطبة عائشة ، زواج النبي من سودة ، الإسراء .

والقارئون داخل كتب التاريخ يجدون موت السيدة خديجة رضى الله عنها فى نفس العام الذى نقضت فيه الصحيفة وفك فيه الحصار .

وكان خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فى عام ٦٢٠م ، وكان الإسراء فى عام ٦٢١م ، ومعنى هذا : أن فاطمة كانت بشراً فى الحياة قبل الإسراء .

وأن السيدة خديجة رضى الله عنها لحقتبالدرجات العليا عند ربها قبل الاسراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجمع على خديجة زوجة ثانية ، وقد تزوج من سودة إثر عودة المهاجرين إلى مكة من الحبشة بعد وفاة زوجها ، وعودة المهاجرين من الحبشة وزواج النبي صلى الله عليه وسلم من سودة كان قبل الإسراء ، ولهذا :

١ — ترون الكذب الشيعي جلياً واضحاً فى هذا الحديث ، وفى كل حديث دسوه على السنة الإسلامية .

٢ ـ وتكذب الشيعة فتقول : لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع جمع الصحابة فى مكان يقال له (غدير خم) وأخذ بيد على على مشهد منهم وقال : هذا وصيي وأخي والخليفة من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا . ودلائل الكذب واضحة فى هذا الحديث .

فالتاريخ الإسلامى يقرر فى كل أصوله ، وكتبه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد خطبة الوداع رحل إلى المزدلفة وقضى فيها ليلة ، وفى الصباح نزل بالمشعر الحرام ، ثم ذهب إلى منى ، وألقى الجمرات الواجبة ، ولما بلغ خيامه بمنى نحر ثلاثاً وستين ناقة (٦٣) عن سنى حياته التى عاشها ، ثم نحر على بن أبى طالب ما تبقى من الهدى التى ساقها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم حلق رأسه وأتم حجه ، وعاد الناس إلى بلادهم : النجديون إلى نجد ، والتهاميون إلى تهامة ، والمكيون إلى مكة ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مع أصحابه يفكر فى أمر الروم ، لتوطيد سلطان الدولة على حدود الشام المتاخمة للدولة الرومانية التى تهدد دولة الإسلام .

فجهز النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً جعل أميره أسامة بن زيد ، وهو شاب صغير أثارت توليته دهش الصحابة ، ولكن الحكمة أن أباه كان قد قتل فى سرية مؤتة ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل أسامة فى مكان أبيه ، ولكن الجيش لم ينفذ سيره لمرض النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما لحق بالرفيق الأعلى أنفذه أبو بكر رضى الله عنه حفاظاً على تنفيذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلو كانت وصية غدير خم مثل الوصية لأسامة لما جحدوها ، ولاسيما والشيعة تدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم أشهد الصحابة أجمعين ، فلو جحدها فريق ، لطالب بها فريق آخر .

يقول ابن تيمية : (فإننا نعلم أنه كذب من طرق كثيرة ، فإن هذا النص لم يبلغ أحداً بالإسناد الصحيح ، فضلا عن أن يكون متواتراً ،

ولا نقل أن أحدا ذكره على جهة الخفاء مع تنازع الناس فى الخلافة وتشاورهم فيها يوم السقيفة ، وحين مات عمر ، وحين جعل الأمر شورى بينهم فى ستة .

ولو كان الأمر كما تقول الشيعة فلماذا لم يعلن على نفسه هذه الوصية ؟ ولماذا كتمها على وكتمها الصحابة الأتقياء زهاء ثلاثين عاماً بل تزيد ؟ وأى مصلحة لهم فى كتمان هذه الوصية لو كانوا حقاً سمعوها من النبى صلى الله عليه وسلم ؟ .

إن أبا بكر لم يغتنم من وراء الخلافة مجداً ولا مالا ، فإن التاريخ يشهد أن عظمة الرجل يوم صاحب النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء، وأنه جهز بيته ، وباع ماله كله من أجل انتقال الدعوة إلى المدينة ، وأنه اشترى أرض اليتامى فى المدينة ليبنى فيها أول مسجد للإسلام ، وأنه تبرع بكل ماله إلى جيش المسلمين عام العسرة .

وعمر كان إسلامه أمنية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والرجل مشهود له بالورع والزهد ، فلقد جاءه الرجل بأخبار القادسية ، وهو نائم وتحت رأسه حجر وما عرف أن هذا النائم هو أمير المؤمنين ورئيس الدولة حتى دله الناس عليه ، فأى حظ لهم فى كتمان الوصية ؟ وأى حظ لعلى فى الموافقة على كتمانها وعدم المطالبة بها ؟ .

إن الكذب الذى عشقه اللسان الشيعى لا يستحيى أن يستمر فى البهتان الذى يتجاوز حد العقل ، برأ الله علياً من قالاتهم ، وعافانا من هممهم ، وأبعدنا من سوء مصيرهم .

٣ — ومن كذبهم : (حب على حسنة لا يضر معها سيئة ، وبغضه سيئة لا ينفع معها حسنة) .

وواضح أن هذا الكلام يخالف تعاليم الإسلام ، من امتثال أوامر

الله تعالى ، واجتناب نواهيه ، وإن كل نفس بما كسبت رهينة ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ... إلخ .

٤ – ومن كذبهم أيضاً : (أنا ميزان العلم وعلى كفتاه ، والحسن والحسين خيوطه ، وفاطمة علاقته والأئمة منا عمود توزن فيه أعمال المحبين لنا والمبغضين لنا) .

وأوضح ما يكون الكذب وضوحاً هو هذا الحديث الركيك الفاسد ، فإن سلطة الأئمة فى هذا الحديث أكبر من سلطة النبوة ، لأن النبوة ميزان معطل ، أما الأئمة فهى ميزان لأعمال المحبين وأعمال المبغضين ، وعلى كفتاه فقط ، والحسن والحسين خيوطه . وما هى هذه الخيوط ؟ وفاطمة علاقته . والعلاقة خارجة عن حقيقة الميزان ، وتكون النبوة معلقة فى فاطمة ، وكل هذا فاسد فى معناه ، وأصله ، وحقيقته ، وهى صورة سذاجة وحمق وعبط ! .

وهكذا أيها الإخوة ، أفسد المرجفون بالكذب حياة المجتمع ثقافياً ، وسياسياً ، واجتماعياً . لكن الله سوف يبعث من يجدد لهذه الأمة – من رجالها الأمناء – أمر دينها ، وينقى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثرهم يجهلون .

المعتزلة والسنة

فى دراستنا لفقه التوحيد الإسلامى وقفنا على :

١ — احترام القرآن للفكر ، ودعوة الإسلام العقول إلى التفكير فى آلاء الله التى يرى فيها العاقلون أقوى الأدلة على وحدانية الله الأحد ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، البر ، الودود ، السلام ، المؤمن ، الرؤوف الرحمن ، الرحيم(١) .

وهم إذ يرونها بالعقل ، يستحسونها وجداناً ، وعاطفة بالفطرة الأولى ، قبل الفكر الفاحص .

٢ — كما وقفنا على نهاية قطر الدائرة التى يجول العقل فيها بالتفكير وتأكدنا أن كل المساتير الغيبية لا يقدر العقل أن يجوبها أو يتعرف عليها ، لا بذاته ، ولا بمساعديه من وسائل المعرفة لأنها حسية نظرية ، وهى مع ذلك غير قوية فى دائرة الحس ، لأنها وسائل ظنية عند العلماء الذين اعترفوا بها ، فلم يبق للعقل إلا أن يتقبلها من الوحى الصادق ، وأن يتقبلها بالقدر الذى بلغه الوحى بالأسلوب والفقه الذى جاء به ، لأن ذلك فقط هو الذى يلائم قدرة العقل وفكره على فهم هذه المسائل بذلك الأسلوب والفقه ، وأن الزيادة عليه قد لا يقوى العقل على تفهمها وإدراكها ، وتلك رحمة الله وعنايته بالإنسان .

ومع هذا : فإن جماعة من مفكرى المسلمين ، قد أغراهم صلف العقل وكبرياؤه ، فعملوا فى مسائل ما وراء الطبيعة ، وبحثوا مسائل نهوا عنها ؟ .

---

(١) راجع كتابنا : منهج القرآن الكريم فى إثبات العقيدة الإسلامية .

١ ـ بحثوا فى مسائل الصفات .   ٢ ـ وفى القضاء والقدر .

٣ ـ وفى رؤية الله .   ٤ ـ وفى الواجب على الله .

وتلك كلها قضايا نهينا عنها بالشرع ، وكان مقتضى هذا النهى أن يتجنبها المسلمون ، احتراماً للنهى النبوى ، وأدباً من البشر تجاه الله الأكبر ، ولكنك لا تهدى من أحببت ، والله يهدي من يشاء .

والمعتزلة هم زعماء مدرسة العقل ، إنهم عقلية رجال الإسلام ، ومع أنهم يجلون العقل ويحترمونه ، فإن هذا العقل قد فرقهم إلى اثنتين وعشرين فرقة ، يكفرون أنفسهم ، ولا أدرى إلى أى شيء يستندون فى التكفير ، إلى العقل ، أم إلى الشرع ؟ .

وقد ذكر الإمام البغدادى أن أكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام ، وهو واحد من كبار مدارس الاعتزال . ويقول أيضاً عن الهذيل : « وفضائحه تترى ، تكفره فيها سائر فرق الأمة من أصحابه فى الاعتزال ومن غيرهم » وقد ألف فيه المعروف ، والجبائى ، وجعفر بن حرب من رؤساء الاعتزال كل واحد منهم كتاباً فى تكفيره .

ومدلول هذا أن العقل شهد على أصحاب العقل بالفجر فى الاستقلال بفهم القضايا دون الوحى والشرع ، وأن كل القضايا التى يستند إليها العقليون بعقولهم فاسدة فى كل ما وراء الطبيعة فساد اتفاقهم على مسألة واحدة ، وفساد تكفيرهم أنفسهم ، وخروجهم على الجادة والحق .

وقد ظن العقليون المعتزلة أن السنة لها منافذ تدخل منها عقولهم فتكلموا فى السنة كلاماً متزندقاً ننقله لكم من كتاب (الفرق بين الفرق) للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ ، مستأنسين بما كتبه الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) ستظلين بما ذهب إليه فضيلة المرحوم الدكتور السباعى فى كتابه (السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى) . تكلم البغدادى والشهرستانى عن فرق المعتزلة من ناحية العقيدة كلاماً له اتصالات بدراسات التوحيد ، وكذلك تكلموا عن صلتهم بالسنة فقالوا :

١ — فى واصل بن عطاء :

إنه جوز تفسيق على وأتباعه ، ومعاوية وأتباعه ، وأصحاب الجمل ، لكنه لم يحدد من هم الفسقة ؟ وأقر أنه يرد شهادة على وطلحة ، كما يرد شهادة رجل من أصحاب الجمل لعلمه أن أحداً فاسقاً لا بعينه ، ومع أن هذا تعميم لا دليل عليه فضلا عن الجبن بالجهر بالرأى المراد ، فمعناه رد السنة من كل الصحابة الذين اتصلوا بأحداث الخلافة ، وهواه من ذلك تعطيل للسنة ، ورد لأحكامها وهو هوى سيكون عليهم عمى وحسرة وقد كان ، فقد قيض الله لها من أنصفها وأحياها ، ودافع عنها ورد كيد المعتدين .

٢ — وفى عمر بن عبيد :

يقول الكاتبون : أنه خالف واصل فى تميعه وقال صراحة : بفسق الفرقتين المتقاتلتين ، فرد كل سنة نقلت عن كل منهما ، وفى هذا افتراء لأن آية الحجرات (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...) الآية. لم تخرج الطائفتين عن الإيمان ، بل وصفتهم بأنهم من المؤمنين ، وألزمت أولى الأمر والنهى ، أو الجماعة التى تلتزم بالحق فى المجتمع الإسلامى أن تنصر صاحبة الحق ، ثم تسوى المسائل التى بينهما ، والكل فى ظل الإسلام مؤمن لا يخرج عن ربقة الدين قيد أنملة .

وإذن فالحكم على طائفة من المتقاتلين فى شأن الخلافة بين على ومعاوية لا يسعفه النص القرآنى أياً كان الحكم .

٣ — وفى أبى الهذيل :

قالوا إنه يقول إن الحجة من الأخبار لا يثبت إلا بأقل عدد قدره (٢٠) نفساً ، فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر ، واستدل بقول الله تعالى : (وإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) (الأنفال)

يقول البغدادى ردا على هذا : قال عبد القادر : ما أراد أبو الهذيل باعتبار العشرين فيهم واحد من أهل الجنة إلا تعطيل الأخبار الواردة فى الأحكام الشرعية عن فوائدها ، لأنه أراد بقوله ينبغى أن يكون واحد من أهل الجنة واحداً يكون على بدعته فى الاعتزال لأن من لم يقل بذلك لا يكون عنده مؤمناً ولا من أهل الجنة .

٤ ـ وفى النظام :

قالوا إنه يقول : إن الخبر المتواتر يجوز أن يقع كذباً ، مع ملاحظة أن هذا الرجل يعترف بأن خبر الواحد ملزم يوجب العلم الضرورى ، وهو اضطراب فى الفكر ، تابع لانفصال الشخصية وتحيرها ، ومن آرائه :

١ ـ جواز إجماع الأمة على الخطأ فى الرأى والاستدلال ، وهو لا يثق فى :

(ا) كل ما أجمعت عليه الأمة لجواز خطئها فى هذا الإجماع .

(ب) وبالتبع لا يثق فى أحكام الشريعة ، لأنها مستمدة من الإجماع والقياس ، وكلاهما غير موثوق فيه عنده : (إجماع الأمة غير موثوق فيه ، وعقل النظام فقط هو محل الثقة) .

٢ ـ كذلك هو يطعن فى أخبار الصحابة ، والتابعين ، اجتهاداً وفتاوى ، وقد قال الحافظ فى كتابه (المعارف) إن النظام عاب أصحاب الحديث ، وزعم أن أبا هريرة كان أكذب الناس فى الحديث ، كما طعن فى عمر بن الخطاب ، ورماه بالشك يوم الحديبية ، وطعن فى عثمان ، وذم علياً ، وعاب ابن مسعود ... إلخ (أولئك المجاهدون المفضلون بالقرآن ليسوا على درجة مع النظام !) .

يقول الشيخ المرحوم الدكتور السباعى تعليقاً على ما ذكره البغدادى : « ومنه نرى أن المعتزلة ما بين شاك بعدالة الصحابة منذ عهد الفتنة ، كواصل

ابن عطاء ، وما بين موقن بفسقهم مثل عمرو بن عبيد، وما بين طاعن فى أعلامهم متهم لهم بالكذب والجهل والنفاق مثل النظام ... إلخ .

وقد كان لموقف المعتزلة من السنة هذا الموقف المتطرف المباين لعقيدة جمهور المسلمين أثر كبير فى الجفاء بين علماء السنة ورؤوس المعتزلة حتى تطور الجفاء بين الفريقين إلى خلق المعتزل فتنة خلق القرآن وحملوا الدولة على أن تجبر الناس على اعتقادها ، ولكن المحدثين : الشافعى وابن حنبل ، صمدوا للإغراء ، فأوذوا وسجنوا وعذبوا حتى قيض الله المتوكل عام ٢٣٢هـ وهداه إلى اتباع أهل الحديث ، فأزال عار الدولة الرسمى رسمياً ورفع من قدر المحدثين فتضاءلت المدرسة الاعتزالية ، ولكن بكل أسف فقد ساعدت تلك الملاحم على :

١ — تقديم زاد ممقوت ضد الإسلام للفكر الاستشراقى العدو المناهض للدعوة الإسلامية للطعن فى السنة الإسلامية والتشكيك فى الإسلام .

٢ — كما أوذى كثير من العلماء المحدثين والفقهاء بغير جريرة ولا ذنب ، فقد اتهم الجهلاء أصحاب الإمام أبى حنيفة بموافقتهم على خلق القرآن زورا لعلة واهية هى أن مذهب الدولة الرسمى هو المذهب الحنفى ، مع أن محمداً تلميذ الإمام أبى حنيفة كان يقول : « من صلى خلف المعتزلة يعيد صلاته » . وقد مات أبو حنيفة قبل البدعة الضالة بعمر طويل . ولما سئل أبو يوسف عن المعتزلة قال : « هم الزنادقة » . فليس فى علماء الأحناف واجد يرضى باللسان أو القلب عن قالتهم بله الطعن فى صحتها ، ولكنها النية السيئة التى تشوه الحق ، وجهود المخلصين .

جهل المعتزلة بالحديث :

تتبع الإمام ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » ما تشكك فيه المعتزلة من السنة الإسلامية ، وأظهر جهلهم بفقه الحديث ومدلولاته وحسن التعبير ، وآدابه ، فقال مع التصرف :

قالوا — أى المعتزلة — : حديث يفسد أوله آخره ، رويتم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا قام أحدكم من منامه فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثاً ، فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يداه ، فإن الحديث جائز لولا قوله : فإنه لا يدرى أين باتت يداه ، لأنه ما من أحد من الناس إلا وهو يدرى أين باتت يده ، فإنها باتت حيث بات بدنه ، وحيث باتت رجله وحيث بات أنفه ... إلخ» .

وإن أشد ما يتصور فى أفهامهم أنه مس بها فرجه فى نومه غير عالم، وهو ناقض للوضوء فى اليقظة ، فكيف يؤمر بالغسل لمسه له وهو لا يعلم ؟ مع أن المقرر أن الله لا يؤاخذ الناس بما لا يعلمون ، فإن هجر النائم باللغو من الكلام لا يؤاخذ عليه .

ومحصل رد ابن قتيبة ، أن علة الغسل من النجاسات لأن الفروج مخارج للنجاسات ، وفرق بين نقض اللمس للوضوء فى اليقظة ، وغسل اليد عند اليقظة من النوم ، فإن الأول يوجب الوضوء عند أكثر الفقهاء والثانى يوجب الغسل عند الحنابلة فقط ، وعلته أن النائم لا يعرف ما أصاب يده من النجاسات التى تخرج من الفروج عند النوم ، وعليه فلا اضطراب فى شطرى الحديث كما فهم الاعتزال .

ويزيد الدكتور السباعى : إن فكرة غسل اليد عند القيام من النوم يؤيدها عقل الطب ، بينما لا يستطيع أن يدركها عقل الاعتزال . فيكون الحديث متفقاً مع القواعد الطبية ، ويكون العقل المعتزلى بعيداً عن فهم فقه الحديث .

ونرى من جانبنا : أن الاعتزال أخطأ فى نقطتين :

الأولى : أنه غالط فى شرح أين باتت يده ، وادعى أن النائم يدرى أن يده باتت حيث باتت جميع أعضائه وهو خطأ ، لأن الدراية عمل الفكر فى اليقظة والنائم لا يقظة له ولا فكر .

١ – وعلم النفس يقرر أن العملية العقلية :

إدراك　　　　وجدان　　　　ونزوع

وأن الإدراك يكون فى اليقظة فقط ، تتبعه أجزاء العملية الشعورية المذكـورة .

٢ – وأن الشعور البشرى :

بؤرة　　　　وحاشية　　　　ولا شعور

والبؤرة : عندما يكون الإنسان يقظاً فى حالة تنبه ، والحاشية عند النسيان أو عدم التنبه ، والشعور حياته فى النوم أو الإغماء أو التخدير .

وإذن : فإن النائم غير مدرك أين باتت يده لأن الإدراك يكون فى اليقظة ،وهو نائم ، وأن النائم غير مدرك أين باتت يده لأن إدراكه فى الحاشية ، بل هو فى اللاشعور ، لأنه نائم .

وبالعادة : فقد ينادى الرجل صاحبه النائم ، ولكنه لا يسمع ، وقد يحركه بيده ، وقد لا يشعر ، لأن وسائل الفكر والإحساس ليست فى مرحلة اليقظة المدركة ، ولكنها فى النوم ، فلو كان النائم مدركاً يده أين باتت ، لسمع صوت المنادى ، وأحس بيد الموقظ له ، وعليه فالحديث متفق مع قواعد علم النفس ، والعادات البشرية المحسوسة .

الثانية : أنهم فهموا إن الغسل من أجل اللمس ، وعليه قاسوا مسألة لمس اليقظة التى أخذ بها أصحاب شطر من الفقه الإسلامى أنه لا ينقض الوضوء ، وهى مغالطة ، لأن قول النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام من نومه مع قوله : فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثاً إذ لو كان مدار العلة فى الغسل كونه مس فرجه لأمره بالوضوء لكن العلة كونه نائماً ، والنوم عرضة لإخراج إفرازات عضوية قد تصيب اليد دون شعور النائم بها فتتلوث .

ولما كان الإسلام يحافظ على النظافة كمظهر من مظاهر سلوك الفرد المسلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يرشد المسلمين إلى خلقية صحية هى أن يغسل المستيقظ يده قبل أن يدخلها فى إناء الماء حتى لا تتلوث المياه ، وهى إلى جوار كونها عادة صحية يؤمن بها علم الصحة ويدعو إليها الطب الوقائى فهى تدريب على مبادىء الاقتصاد حتى لا يسرف فى الماء إذا ظهر له أن بيده نجاسة بعد أن يغمس يده فى الإناء فيتنجس الماء ، فيطلب ماء غيره ليصح وضوءه : فيكون مسرفاً .

وبهذا ، فإن فكر الاعتزالى خارج عن منهج العقل الذى يؤمن به منهجاً قويماً ، ويدفعه تعنته إلى الجهل الفاضح بفقه السنة الإسلامية المطهرة .

مع أن العقل يدرك أن علة الغسل : اللمس ، كذلك يمكن أن يفرض أن علة الغسل المحافظة على النظافة لاسيما عند اليقظة من النوم إلا أنهم عطلوا عقولهم وقصروا الفرض على علة واحدة ، فانحرفوا عن نهجهم كما يركب الحمقى الشطط ، ويعى المكابر بالدليل ، ويخرج على قواعده هو ونظمه التى هواها ، وهكذا فسد الاعتزال بفعله هو ولم يفسد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم فتحوا على السنة باباً جديداً ولجه المستشرقون فاتخذوا الاعتزال مادة يستدلون بها على السنة ، فباءوا بالإثم الأكبر وبئس ما كانوا يفترون .

المستشرقون والسُّنة

المرضى بالأعصاب يحفظ لهم الطب السيكولوجى تصرفات خاصة وانفعالات ذات طابع منحرف عن العادة البشرية ، والمستشرقون هم أول المرضى بالأعصاب .

فقد كانت أوربا إلى جوار الأندلس المسلم صورة مزرية من الفقر والجهل والمرض والاستعباد الذليل ، والفوضى والاضطراب ، والطبقية والاحتقار والظلم . . كانت صورة بشعة لمعانى الاحتقار والإهانة للجنس البشرى ، بينما كان العلم فى الأندلس قد ارتفعت مناراته فى قرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة ... إلخ . ومع العلم كانت الحرية والعدالة والمساواة والأمن ، والوحدة النفسية ، والاحترام ، والخلق ، والأمة الأستاذة التى تعلم الناس أصول التعاشر ، ومنطق التكريم ، كأفضل ما تكون الحياة حناناً ، ورخاء ، وأمناً ، وحرية ، وكمالا ... إلخ . كانت هذه الصورة لجارتين متجاورتين : الأندلس المسلم ، وأوروبا الكافرة .

وكان الأندلس مركز إنسانية البشر لأنه مسلم ، وكانت أوربا مركز العبودية لأنها كافرة ، ولم يكن الأندلس الإسلامى أنانياً ، لأن دينه عالمى ، إنه دين الفطرة للناس جميعاً ، فلما تعشق شباب فرنسا وأوربا أن يتثقف على أساتذة الإسلام فى الأندلس فتح المسلمون صدورهم الطيبة وجامعاتهم العريقة ، واستقبلوا التائهين فى طريقهم من مراكز العبودية والجهل إلى منارات العلم والإنسانية .

ولكن المرضى بالأعصاب حقدوا على الإسلام فى الأندلس ، فبيتوا له أمرا.

وكانت الكشوف الجغرافية مقدمة الأمر الذى انتواه تلاميذ المسلمين الذين نفسوا على الإسلام تكريمه للبشر ، ثم كانت الحروب الصليبية دوام عدة قرون من الزمن ، أنهاها الله بالنصر فى موقعة حطين ، وعادت العساكر الأوربية الفاشلة وقد علمها صلاح الدين درساً فى :

١ ــ العسكرية الشريفة .

٢ ــ الأخلاق المهذبة .

علمهم صلاح الدين أن الإسلام يسالم من يسالم ، ويرد كيد المعتدى بيد من حديد ، فلما عادوا من الهزيمة حملوا معهم مشاعل العلم والنور والمعرفة من الشرق الإسلامى المجيد .

ولكن مرضى الأعصاب لا يبرءون أبداً ، فاستعاضوا عن الحروب الصليبية العسكرية بحروب صليبية ثقافية تطعن فى الإسلام وتمزق الفكر الشاب فى المسلمين بالتشكيك والانحلال والفسوق والعصيان .

فكانت عملية الإسقاط التى يسلكها مرضى الأعصاب دائماً ، فاتهموا الإسلام بتهمات هى فيهم عيب ، والإسلام منها براء ، وهى فيهم وباء ، والإسلام لها شفاء .

وكان من ضمن المجالات الإسلامية التى تطاول عليها السلوك العصبى المستشرق السنة الإسلامية ، فقد استخدموا فيها منهجهم المقلوب ، منهجهم الإسقاطى المحموم :

١ ــ قلب الحقائق .

٢ ــ قلب نصوص المادة العلمية .

٣ ــ إخضاع المادة لفهمهم الخاص ، مع جهلهم بالذوق العربى .

٤ ــ تصويرهم لحضارة الإسلام تصويراً عدائياً .

٥ ــ نقلهم عن مصادر لا تمثل الفكرة الإسلامية ، وأصحابها ليسوا حجة على الإسلام .

٦ – قياسهم الإسلام بتخلف شعوبه: إسقاطا لحياتهم الأولى ومغالطة للتقدم الإسلامى الواسع قبل الغزو الاستعمارى لشعوب المسلمين .

بهذا الروح ، وبهذا المنهج ، وبهذا المرض العصبى ، تكلم الحاقدون المستشرقون فى الإسلام كله وفى السنة بوجه خاص . وإليكم حديثاً عن مغالطتهم فى السنة ، وإفكهم فيها ، لتحددوا لأنفسكم كمشاعل للإسلام المكان والعمل الذى يجب أن يكون .

جولد تسهير :

يهودى دماً ، وألمانى جنسية ، ويعد فى عرف العلماء المحدثين شيخ الاستشراق ، فلا تزال كتبه وأبحاثه وآثاره العصبية مرجعاً أساسياً لأبنائه صغار المستشرقين .

كتب عن القرآن ومذاهب المفسرين ، وكتب عن السنة الإسلامية واتهمها واتهم القائمين عليها بما نلخصه فى النقاط الآتية :

١ – القسم الأكبر من الحديث أثر من آثار جهود المسلمين فى عصر نضوجهم وليس وليد العهد الأول .

٢ – تدخلت الدولة الأموية ، وتدخل معاوية فى وضع الحديث لتأييد وجهة النظر الخاصة بهم فى الحكم ، ويستدل على ذلك بأن معاوية زاد فى درجات المنبر .

٣ – الإمام الزهرى من أمثلة العلماء الذين استغلهم العهد الأموى فى وضع الحديث ، ويدعى أن الوليد بن إبراهيم الأموى جاء إلى الزهرى بصحيفة بيضاء وضعها أمامه وطلب إليه إجازة رواية أحاديث ينشرها فيها على أنه سمعها ، فأجازه الزهرى من غير تردد ، ويدعى المستشرق العجوز أن الزهرى قال للوليد « ومن يستطيع أن يخبرك بها غيرى » .

٤ — ويستدل على نسبة السنة إلى الوضع الشخصى فى عصر النضج ما يروى عن وكيع قال عن زياد بن عبد الله« أنه مع شرفه فى الحديث كان كذوباً » .

وهذه النقاط سترون منها :

١ — مدى جهل المستشرق بطبيعة الإسلام ، وتجاهله تاريخه وحضارته.

٢ — كما ترون جهله بحقائق الإسلام ، وكراهيته .

وسوف ترون مزيداً من كل هذا فى توضيح ما أثاره هذا الشيخ المريض بالأعصاب من إشكالات حول السنة .

الإجابة على النقطة الأولى :

يدعى المستشرق أن السنة وضعت عند نضوج المسلمين ، وكلمة نضوج كلمة براقة جاهلة ، لأننا إذا سألناه متى نضج المسلمون ؟ وما هى وسائل نضوجهم ؟ نجده جاهلا تماماً .

لأن المسلمين نضجوا بالرسالة المحمدية ، يوم أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » (المائدة)

ووسائل النضوج هى اكتمال مقومات الأمة ، وقد اكتمل للأمة الإسلامية كل مقوماتها فى عصر النبوة الكريمة :

١ — الدستور

٢ — القانون .

٣ — الجيش .

٤ — الحكومة .

٥ — وتحددت العلاقات فى داخل المجتمع وخارجه .

٦ — واتسع للإسلام وطنه، وتمكنت جيوش الله من الفتح والنصر المبين.

٧ — وفى عهد أبى بكر (رضى الله عنه) كانت الدولة الإسلامية هى أول دولة فى القرن السابع الميلادى تعان الحرب على الجاحدين حق الفقراء ، والمحاويج من إقامة العدل الاجتماعى ، وتحقيق التكافل والرعاية الاجتماعية فى الوقت الذى يسود أوربا الإقطاع والرق ، والطبقية والجهل ، والأحقاد والكراهية والتفتيت الاجتماعى ، والظلم والقسوة ووأد الفكر ، وقتل العلماء (ومحاكم التفتيش) .

وإذن : فقالة المستشرق « السنة وضعها المسلمون فى عصر النضوج » مقالة جاهل بأسلوب النضوج أو متجاهل حاقد على الأمة التى نضجت فى وقت كان فيه أجداده عبيداً جهلاء .

الإجابة على النقطة الثانية :

يحفل التاريخ الإسلامى بذكريات الفتوح الإسلامية التى قامت بها الدولة الأموية ، ويعرف التاريخ أن شاطىء البحر الأبيض المتوسط والشمالى وجزره الشرقية ، كانت مقفلة قبل أن يفتحها جيش الأمويين للإسلام ، وكان على رأس هذه الجيوش أبناء بنى أمية ، ومع هذا المجد العسكرى يحفظ التاريخ لعبد الملك بن مروان كثيراً من الحرص على العبادة والتقوى ، وسيرة عمر بن عبد العزيز إلى درجة المثالية والأمانة ، ولكن المستشرق ينقل المعركة بين الخوارج والشيعة إلى البيت الأموى ويرميهم بأنهم وضعوا فى السنة ما يقوى وجهة نظرهم ويؤيد مذهبهم ، وهذا غلط ، فإن الخوارج والشيعة ليسوا من علماء الإسلام المعتد بهم ، وليسوا من علماء السنة ، وما دار بينهم من خلافات مذهبية شخصية لا تمثل فكرة الإسلام الصحيحة .

وخلافات الأمويين مع الشيعة والخوارج ليست من قبيل اضطهاد العلماء المعنيين بالسنة الإسلامية ، بل هى خلافات حزبية بدليل أن علماء السنة مثل سعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وسالم مولى

عبد الله بن عمر ، وأبى بكر بن عبد الرحمن ، ونافع مولى ابن عمر ... إلخ وغيرهم من العلماء الذين أخذت السنة عنهم واشتغلوا فيها ، لم يصطدموا مع الأمويين فى معركة ما ، ولا حفظ التاريخ عنهم سجلا لواقعة حربية أو كلامية ، حتى الحجاج وهو المشهور بالقسوة مع خصوم الدولة الأموية كان له أثر دينى وفضل ثقافى فى إعجام القرآن وشكل كلماته،وتلك خصلة تحترم العلم والعلماء ويدفعها التدين الأصيل فى نفس الإنسان .

لهذا ترون مقدار الخلط بين الخلافات الحزبية ، وبين الآثار العلمية ، وتتعرفون من هذا على فحوى المغالطات ، وتركيب المقدمات الخاطئة الموصلة لهوى متبع ونتيجة ضالة ، دفع إليها الحقد والحسد والإسقاط الذى يمنى به مرض الأعصاب دائماً .

وأما ما يختص بزيادة المنبر ، فإن العقيدة المسيحية عند أصحابها ، وهى الدين الذى يؤمن به جولد تسهير تجعل الكنيسة جزءا من العبادة ، ومن الدين ، فنى نظر جولد بناء على هذه العقيدة أن المنبر جزء من الدين الإسلامى ، وأن الزيادة فى المنبر زيادة فى الدين ، وهى جهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عقيدة الإسلام ، وهو إلى جوار ذلك سجل على جمود جولد وجهله بالفوارق بين عقيدة واضحة هى الإسلام ودين معقد هو مسيحية القسيسين والرهبان ، فإن الزيادة فى المنبر مسألة عادية لا علاقة لها بنظم الدين وقواعده . والإسلام قد ترك مسائل جزئية تتولد فى حياة التعاشر الإسلامى تركها للعقل والذكاء الذى احترمه الدين وقدسه ، ولكنه قدر لم يحفل به انجيل جولد تسهير ، ولم يتعرف عليه فأسقط حجره العقلى على حرية العقل فى الإسلام ففضح دينه ، ونفسه من حيث لا يدرى .

الإجابة على النقطة الثالثة :

يدعى جولد أن الدولة الأموية استغلت الإمام الزهرى فى وضع الحديث لنصرة مبادئها ، وإذا كنا نعرف فى تاريخ تدوين السنة أن الزهرى أول

من جمع السنة وكتب فيها ، ندرك مدى ما يقصده المستشرق من تحطيم كيان السنة ، وهدم جدارها الأساسى ، وتلك غاية دنيئة ، ليست من خلق العلم ، ولا من أسلوب حرية البحث ، ولننظر معاً لنعرف من هو الإمام الزهرى ؟

أولا — الزهرى عند علماء الجرح والتعديل :

كان الله قد منح السنة رجالا أكفاء هذبوها من الدخل وأبرؤوها من سقام الكذب الذى بعث ديدانه الشيعة والخوارج والمنافقون والجهلاء ، وكان فى مقدمة أولئكم الرجال علماء الجرح والتعديل الذين قننوا القواعد المستقصية لحياة الرواة وسلوكهم ، ومقدرتهم على تحمل السنة ، ونصيبهم من القدرة على أدائها ... إلخ . وجعلوا لذلك درجات ، وصفات وأحوالا أولئك العلماء تكلموا عن الإمام الزهرى ، فقالوا : « كان الزهرى ثقة ، كثير العلم والحديث والرواية ، فقيهاً ، جامعاً » . (ابن سعد فى الطبقات)

« أحسن الأسانيد تروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة : الزهرى عن على بن الحسن عن أبيه عن جده . والزهرى عن عبد الله ابن عباس » . (النسائى)

« الزهرى أحسن الناس حديثاً ، وأجودهم إسناداً » (ابن حنبل)

« سئل أبو زرعة : أى الإسناد أصح ؟ فقال : أربعة أولها الزهرى عن سالم عن أبيه » . (ابن أبى حاتم)

« كان الزهرى من أحفظ أهل زمانه ، وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار ، وكان فقيهاً فاضلا ، روى عنه الناس » . (ابن حيان فى كتابه : الثقات)

« حدثنى أبى قال : الزهرى مدنى تابعى ثقة » (صالح بن أحمد)

يقول الدكتور السباعى : « ..... وهكذا تضافرت روايات الأئمة

والحفاظ ، وعلماء الجرح والتعديل ، على توثيقه وأمانته ، وجلالة قدره ، ونبله فى أعين المحدثين .

ثانياً ـ حياته ، وعلمه :

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحرث ابن زهرة القرشى الزهرى . توفى والده فى الحروب التى اشترك فيها ضد الأمويين مع عبد الله بن الزبير ، وترك ولده ـ شيخنا هذا ـ يتيما معدماً .

توجهت همته إلى تثقيف نفسه فأكب على حفظ القرآن الكريم فأتمه فى ثمانين ليلة ، حكاية عن أبى أخيه ، تعلم الحلال والحرام على يد أساتذة ممتازين فى الدين والخلق منهم : أنس ، وابن عمر ، وجابر ، وسهم بن سعد ، وهم رعيل أضاء صدره نور النبوة .

كذلك تلقى جانباً من التثقيف الدينى على يد التابعين الأوائل مثل : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وعبيدالله بن عتبة .

يقول العلماء الثقات : « جلس الزهرى إلى الإمام الجليل سعيد بن المسيب ثمانى سنوات متواصلة » .

وكان إمامنا الزهرى سخياً ، كريماً ، جواداً ، يقول الليث بن سعد : «كان ابن شهاب الزهرى من أسخى من رأيت ، يعطى كل من جاءه يسأل ، وكان يمد للناس على الطريق موائد الثريد والعسل » .

ومن أبرز صفاته العلمية :

١ ـ حرصه على طلب العلم . يقول أبو الزناد : « كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس » .

يقول إبراهيم بن سعد : قلت لأبى : بم فاتكم ابن شهاب ؟ قال : كان يأتى المجالس فى صدورها ، ولا يلقى فى المجلس كهلا ولا شاباً إلا سأله ،

ثم يأتى الدار من الأنصار ، فلا يلقى كهلا ولا شاباً إلا سأله حتى يجادل ربات الحجال .

وأما عن حفظه وجودة ذاكرته وقوتها ، فيقول ابن عساكر فى تاريخه بسنده إلى عبد العزيز بن عمران : أن عبد الملك كتب إلى أهل المدينة يعاتبهم فوصل كتابه فى طومارين (صفحتين) فقرىء الكتاب على الناس فى المسجد عند المنبر ، فلما فرغوا وافترق الناس اجتمع إلى سعيد بن المسيب جلساؤه ، فقال لهم سعيد : ما كان فى كتابه ؟ ليتنا وجدنا من يعرف لنا ما فيه ؟ فجعل الرجل من جلسائه يقول : كان فيه كذا . . ويقول الآخر : فيه كذا . . قال : فكأنما سعيد لم يثق فيما سأل عنه بخبرهم ، فبان ذلك لابن شهاب ، فقال : أتحب يا أبا محمد أن تسمع كل ما فيه ؟ قال : نعم . فقرأ حتى جاء عليه كله كأنما كان يقرأ من كتاب » .

يروى عبد الرحمن بن إسحق عن الزهرى قال : قال الزهرى : « ما استعدت حديثاً قط ، وما شككت فى حديث إلا حديثاً واحدا ، فسألت صاحبى : فإذا هو كما أحفظ » .

ويروى عنه الليث أنه قال : ما استودعت قلبى علماً فنسيته .

ومن هنا نرى علماء السنة والمشتغلين بالحديث دراية والعاملين فيه رواية يقولون : « لم يكن فى الناس أحداً أعلم بالسنة من الزهرى » .
(سفيان بن عيينة)

« ما رأيت أنص وأبصر بالحديث من الزهرى » (عمر بن دينار)

« لولا ابن شهاب لضاعت أشياء من السنة » .
(سعيد بن عبد الرحمن بن حنبل)

فهل لمثل هذا العالم الفاضل الجليل أن يكون إمعة ؟ وأن يبيع جهوده ، وأن يمالىء الحكم على دين الله ؟ لا . . ولا . . ثم لا .

ثالثاً ــ حول شبهات جولد تسهير :

يدعى العجوز فى مرض الأعصاب شيخ الحاقدين على الإسلام ، أن الأمويين استغلوا الزهرى فى وضع الحديث ؟ .

ونحن نقدم لكم نموذجاً لموقف الزهرى من الأمويين ، لا سيما بعد أن تأكدنا أن الدولة الأموية لم تتركها حركة الفتح الإسلامى فى فراغ تضع فيه أحاديث ، كما أن رجال الدولة لم يكن حماسهم أقل من غيرهم فى التمسك بالدين ، بل وجهاداً فى سبيل توسيع إمبراطوريتهم .

يروى صاحب العقد الفريد فيقول : « دخل الزهرى على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ، ولم يكتب له السيئات . قال الزهرى : باطل يا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبى ؟ قال الوليد : بل نبى خليفة . قال الزهرى : فإن الله تعالى يقول لنبيه داود صلى الله عليه وسلم : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »(١) . فهذا وعد يا أمير المؤمنين لنبى خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبى ؟ . قال الوليد : إن الناس ليغيروننا عن ديننا . اهـ .

إن علماء المسلمين لا يصدهم عن دينهم ملك ، ولا حكم ، ولا رهبة ، ولا أمانى . وإن أبدانهم وأموالهم وأولادهم عندهم هباء إذا افتدى الدين بكلهم.

وهذا لون جديد من منزلة العلم لم يتمرس بها تاريخ أوربا ، فلم يستطع « جولد » أن يدركها أو يتجاهلها لو أدركها ، ولكن الإسقاط الذى يسلكه مرضى الأعصاب دائماً هو الذى يجعله يتهم الزهرى بما فى الغرب من عجز

---

(١) ٢٦ من سورة ص .

علمائه وبيعهم ذممهم والدين والخلق والحق من أجل متعة حقيرة وتافهة قصيرة .

وأما قصة إبراهيم بن الوليد الأموى ، فإن العلماء يقررون أن إبراهيم قد تعلم على الزهرى ، وسمع منه فقط ، والقدر الذى جهله المستشرق هو أن تحمل رواية الحديث يكون بالمناولة وبعرض المناولة .

والأخيرة هى أن يقدم التلميذ لشيخه كتاباً فيه أحاديث سمعها من شيخه ، فيتأملها الشيخ ثم يجيز له التحدث بها ، فإذا صحت رواية إبراهيم الأموى فهى من هذا القبيل الذى جهله « جولد » أو تجاهله ليطعن على السنة ، وهو منهج العكس . أما عبارته : « من يستطيع أن يخبرك بها » فهى تحريف من « جولد » وتصحيحها : ومن يجيزك بها غيرى . وهو حق لأن إبراهيم الأموى كتلميذ فى الحديث على الزهرى ، لا يجيز له فى الحديث أستاذ سواه ، كما هو مقرر فى مصطلح الحديث .

ولكن إذا تأملنا كتب الحديث ، والجرح والتعديل ، وكتب الثقات والمجرحين ، لم نجد لإبراهيم الأموى ذكراً لا بالرواية ولا بالجرح ولا بالتعديل .

وإذن : فقصة الورقة التى قدمها إبراهيم الأموى إلى الزهرى كذب خلقها شيخ الحاقدين المرضى بالأعصاب وتولى كبرها دون ما حياء من الحق ولا خجل من التاريخ الذى يؤكد كذبه وافتراءه .

الإجابة على النقطة الرابعة :

ينقل جولد نصاً يستدل به على أن وكيعاً يطعن فى زياد بن عبد الله ويرميه بالكذب ، فيقول : إنه كان مع شرفه فى الحديث كذوبا . وتلك واحدة من جنايات المستشرق على أمانة النقل ،وأمانة البحث العلمي. ومنها تعرفون منهجهم وكذبهم فى ادعاء الحيدة فى البحث العلمي :

١ — الكذب .

٢ — تحريف النص .

٣ — الإسقاط من حياتهم المريضة السيئة على حياة الإسلام .

٤ — انتحال التزوير ، وتلفيق التهم ، والأقاصيص الباطلة .

٥ — شرح النصوص خطأ أو متعمداً أو تجاهلا .

فإن حقيقة النص كما يرويها الإمام البخارى ، وقال عقبة السدوسى عن وكيع : هو — أى زياد بن عبد الله — أشرف من أن يكذب ، فالنص يشهد بأن وكيعاً يبرىء زياد بن عبد الله من الكذب ويجعله أشرف من أن تلصق بأخلاقه خصلة الكذب .

ولكن جولد يحرف النص فيقول : « أنه كان مع شرفه فى الحديث كذوباً » ، وليس أكذب من جولد اليهودى الذى بدل النص وحرف العبارة ، بما لايتفق صدرها مع عجزها ،فأى شرف ذلك الذى يكون صاحبه كذوباً ، إذا كان الوصفان منصبين على التحديث ؟

وهكذا يتضح لكم مقدار الأمانة العلمية عند الاستشراق ، وترون مبلغ أمانتهم على تحمل تحرى الحق ، ونقل النصوص ، وكذلك ترون ما يكنون من حقد على الإسلام جعلهم يز ورون ويكذبون ويعتدون على العلم والأخلاق ، والتاريخ !

وبكل أسف فإنهم ينتحلون مذهب الحيدة فى البحث ويدعون إلى حرية البحث مجردة عن العواطف الخاصة ، وهذا مكر خبيث ، يريدون به تجريد العلماء المسلمين ، والشباب المسلم من تحمسهم لدينهم الذى نيط به تكريم البشرية ليفرغ لهم المجال يملأونه بالحقد والتعصب الأسود والحمق الأصفر والخبث الدفين .

وبكل أسف فإن بعضاً من أبناء المسلمين قد تبعهم وتبنى فكرتهم :

إما جرياً وراء الشهرة والسمعة أو طلبا لمادة تجرى عليهم من مال الاستشراق ثمناً بخساً للضمير والخلق والحياء ، أو ضعفاً فى الدين ، وجهلا بأصوله ومنهجه وروحه . وبكل أسف فإن هؤلاء التلاميذ لهم من الشهرة العلمية البراقة ما يخدع الشباب ، ويضلل الفكر ، ويلهى العقل : فإنهم يلسون سم الاستشراق فى ثقافة الإسلام باسم الدين وبأسلوب براق مخادع ، مثل كتاب فجر الإسلام : وضحى الإسلام ؛ الذى يذكر فيه مؤلفه حديثاً ملتوياً تعلمه من جولد تسهير عن السنة ائتم فيه ؛ بمطاعن شيخ المرضى بالأعصاب ؛ ومثله كتاب أضواء على السنة الإسلامية التى حررها كبار المستشرقين الحاقدين على الإسلام مثل ديترش ، دينيه ؛ زيتر ستين ، سبير ستركك . . . إلخ . وكتاب المسيحية فى الإسلام للقسيس لوقا .

ومن غير شك إذا كانت هذه هى مراجع الكتاب فى مادته ، فهو كتاب لا يمثل السنة ولا يلقى عليها أضواء ، ولكنه كتاب يضيف إلى المكتبة العدائية ضد الإسلام واحداً من الكتب الخبيثة ضد الدين .

وقد أحببنا أن نذكر لكم هذين الكتابين كنموذج تتعرفون منه على سمات الكتاب الذى يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة ويصح مرجعاً إسلامياً ، والكتاب الذى يعتدى على الفكرة الإسلامية ويطعنها أو يشوهها ليكون لكم فى مستقبل العمر إن شاء الله قدرة على رد الشبه ودفع الهوى ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد حمل الصالحين فى هذه الأمة شرف الدفاع عن السنة فقال : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

٣
منهج العلماء في تنقية السُّنة وضبطها

* الوضع فى الحديث : زمنه ، وأسبابه .
* الرجال الوضاعون ، والكتب الخاصة بهم .
* تدوين السنة : مفهوم التدوين

التدوين فى الطور الأول.

التدوين فى الطور الثانى .

التدوين فى الطور الثالث .

* منهج العلماء فى ضبط الرواية .
* منهج العلماء فى ضبط السند وتقسيم الحديث

الوضع فى الحديث

فى أسلوب الحياة العادية عندما تخف الرقابة يعبث الماجنون وينفر المتمردون على القيم والأخلاق : لا سيا إذا كان العابثون يتربصون الدائرة وينتهزون الفرصة ، ويستعجلون الساعة . . .

والأمة الإسلامية من بعد الخلافة الشابة خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمة خفت فيها الرقابة بكل أنواعها :

١ — الرقابة الدينية فى نفس الفرد .

٢ — الرقابة الشعبية الدينية فى نفس المجتمع .

٣ — الرقابة الإدارية الدينية فى الحكومة .

فانفتحت أبواب واسعة للعابثين بحياة الإسلام المتدينين وأده وقتله المنظمين لعملهم إطاراً ووسيلة وغاية .

وكان مع الحرب ، والقتل ، والتخريب ، وسيلة أخرى هى أم الكبائر التى عميت عنها الأبصار ببهرجها البراق الأثيم ، لفت كل نشاط إجرامى متجه نحو قتل الدولة الإسلامية بثياب من تعاليم الدين ونصوصه مغالطين الحق ، مبتعدين عن نصوص الوحدة ، متجافين مع صفة الأمة الإسلامية المنصوص عليها فى القرآن الكريم :

كنتم خير أمة أخرجت للناس (١) .

---

(١) آل عمران ١١٠ .

وكذلك جعلناكم أمة وسطاً (١) .

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٢) .

وقد أعموا بصائرهم وبصرهم عن تعليمات الوحي في مثل الظروف التي تختلف فيها الأمة ، وتكاد موجة الغضب تسل السيوف وتمتشق الحسام فيما تتاوه سورة آل عمران «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» (٣) «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم »(٤). فضل الناس الطريق عمداً وحببوا لأنفسهم الضلالة ، تمنياً للهوى والشهوة ، وتمنوا أن يقبروا الإسلام فى شبابه ثأراً للدول الطاغية التى أقام الإسلام فوق أنقاضها الحنان والعدل والسلام . . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، فهم قد ارتكبوا من الآثام ما جعلهم حطباً لنار جهنم وبئست لهم القرار ،ولكن الدين قد حماه ربه، رغم الإفك والضلال البعيد « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٥) .

أعوزت التعاليم التى يلف فيها المتجسسون على الإسلام مبادئهم فاندفعوا إلى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يلفقون كلامهم العيي الخائر الواهي المريض وينسبونه فى جرأة فاسقة إلى النبوة الكريمة .

١ — فمتى بدأت هذه الحركة . . . . .

٢ — وما هى علاتها . . . .

٣ — ومن هم رجالها. . . . . ؟

٤ — وما هى علامات الوضع . . . . ؟

٥ — وما أشهر الكتب فيهم . . . . ؟

(١) البقرة ١٤٣ .

(٢) الأنبياء ٩٢ .

(٣) آل عمران ١٠٣ .

(٤) آل عمران ١٠٥ .

(٥) الحجر ٩ .

١ - متى بدأ الوضع فى الحديث ؟

ليس فى وسع الذمة المؤدبة ، ولا فى وسع العقل البصير ، أن يتصور أو يفرض فرضاً ضعيفاً أن تكون حركة الوضع كانت فى عهد الصحابة الكبار أو الصغار فإن ما بذله هؤلاء الأعلام من الجهد المالى والنفسى والأسرى ، ما لا يجده التاريخ لأى دعوة من دعوات الفكر أو السياسة فى أى عصر ، فلم يعرف التاريخ دعوة تنازل فيها الفرد عن قرابته لوالده من أجل الدين ، وعشقه هجرة مسقط رأسه من أجل الدين ، وأن يبذل دمه فى كل يوم فى معارك الجهاد من أجل الدين ، وأن يهجر بيته وأولاده شهوراً طويلة فى ظل السيوف والدماء من أجل الدين ، لا من أجل دنيا أو مال أو ملك ، أو زوجة، أو شهوة ، أو جاه . . . بل من أجل الدين وحده ، يؤثرون على أنفسهم وقد كان بهم خصاصة . . أولئك هم الراشدون أصحاب سيدنا محمد النبى الأمين الكريم صلى الله عليه وسلم ، كما أن التاريخ يحمل لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من معانى الكمال الإنسانى ما لا يحمله لزعيم من زعماء التاريخ فى الغابرين والحاضرين وأصل تلك المعانى ما ملأته العقيدة نفوسهم من تحمل المسئولية ، ومجابهة الباطل والانحراف .

يخطب عمر فى الناس فيقول : « أيها الناس لا تغلوا فى مهور النساء . . . » إلخ ، فتقوم إليه مواطنة مسلمة تعلمت من دينها الصراحة ، ونصرة الحق ، ومناقشة الرياسة ، فى كل أمر يتعلق بشأن الحياة والدين فتقول له دون تكلف : مهلا ياعمر ، يعطينا الله وتحرمنا أنت ، أليس يقول الله عز وجل : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » (٢٠ — النساء) فيقول عمر دون خجل : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

---

(١) فى تصورى أن عمر لم يخطئ لأنه كان يتكلم عن عدم التغالى فى المهور وهو من المصالح المرسلة التى يقدرها الحاكم المسلم، والمرأة كانت تستدل بآية تدور حول مؤخر الصداق عند الطلاق ، ولكن عمر لم يشأ أن يناقش حتى لا يعرض النص لكثير من التأويل تحاشياً من الخلاف واحتراماً لعصمة القرآن الكريم .

وتلك الحرية التي تعلمها الصحابة من الإسلام ، أبعدت أذهانهم ووجدانهم عن نقيصة تمس الدين أو الخلق ، إنهم ما دخلوا فى الدين من أجل ملك أو جاه ، أو مأرب ، ولكنهم أرادوها عليا لله وجعلوها سفلى للذين كفروا .

وظلت الأمة فى صدرها الأول نقية من حب الشهوات تبحث عن الحق بحرية كاملة وتلوذ بقواعد الدين فى كل أمر يحزبها ، حتى كانت فئة الليل المتربصين بالإسلام ودولته . وسلت جيوش الجاسوسية الثقافية القديمة والمنافقين المتربصين سيوفها ، فأعملت القتل ، ولوثت الأرض الطاهرة أرض السلام والحرية بدم الشهداء الزكى ، وافترقت الأمة إلى شيعة وخوارج بعد حرب صفين ،وتزندقت الأحزاب فحاكت جلابيب الوضع وألصقته بالسنة تريد سوءاً بها ، ما هم ببالغيه أبداً إن شاء الله .

يروى عن ابن سيرين أنه قال : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قال : صفوا إلينا رجالكم ، فينظروا إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظروا إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .

ومن هذا النص تدركون : أن الدعوة الماجنة التى تفترض وجود الوضع فى الحديث كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالها من بقايا الجاسوسية الثقافية التى وقر فى صدرها الحسد على فشل المخطط الأثيم لإنهاء الإسلام ديناً ودولة وحضارة ، وتقفون على جهل أولئك المتجسسين لحساب الإثم والعصيان إذ يستندون على فهمهم المريض فى التهم السوء تلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وهذه المقالة لم تكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأن رجلا كذب عليه فقال هذا الحديث ، وهو فهم سقيم مصدور يكذبه تاريخ الصحابة ، وجهادهم الذى يسجله القرآن الكريم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم

ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » (١) .

وهنا تجدون توضيحاً لموقف الصحابة بما يرويه مجاهد قال : جاء بشير العدوى إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . إلخ قال : فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه فقال : يا ابن عباس ما لى أراك لا تسمع لحديثى ، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس : إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ،فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

ويحدد لنا أبو إسحاق معنى الصعبة والذلول فيقول : لما أحدثوا تلك الأشياء بعد على رضى الله عنه قال رجل من أصحاب على: قاتلهم الله أى علم أفسدوا . . . وهنا فإن العلماء المستبرئين لدينهم وأعراضهم كانوا لا يأبهون ولا يحترمون الوضاعين الكاذبين . يروى عن جرير أنه لقى جابر بن زيد الجعفى فلم يعتد به لأنه كان يؤمن بالرجعة ، فهو من أهل البدع والضلالة .

إن السنة نصف الدين حماها الصحابة حفظاً وتطبيقاً ، فى سبيلها بذلوا الحياة كلها مع رفعة الغرض ونبل الهدف ، وسمو المقصد ، فأثنى عليهم ربهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (٢)

ثم ركب الناس الشطط والهوى واتبعوا الباطل وعشقوا الترف المنحرف فأرادوا أن يطوعوا السنة لمبادئهم فاستعصت على ضلالهم فبدلوا وكذبوا عندما استحرت الشهوة ، وألحت الوظيفة الشيطانية ، وكان ذلك بعد الفتن والهوة التى شيئت لهذه الأمة أن تنهار فيها ، ولا راد لقضاء الله إذا جاء

---

(١) الآية ٢٩ من سورة للفتح .
(٢) ٥ : البقرة .

إلا من رحم، فكان ذلك بدء الوضع ، وكانت تلك أهوال هى البلاء التى حطمت جسد الأمة ، وأبقى الله على معانيها فى صدور ثلة جعلها الله حصناً للدين . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، فنهضت فيما بعد تخلص السنة من أدران الجاسوسية العلمية المصدورة على نحو ما سيأتيكم فى هذا الدرس إن شاء الله .

وكان أول من اقتحم ميدان الجريمة هم الشيعة ، يقول الإمام الزهرى : «يخرج الحديث من عندنا شبرا فيرجع إلينا من العراق ذراعاً » .

ومالك رضى الله عنه وضع اسماً خاصاً للعراق القديم فسماه (دار الضرب)

ففيها تصك الأحاديث ، وتضرب كما تصك الدراهم وتضرب .

ومن بعد هذا الافتتاح اتسعت الحلقة وتبارى فرسان المعاصى فى الكذب ، والبهتان ، وكثرة الداعية والأسباب ، والشهوة ، تتلذذ بالمعصية وتكره النصيحة ، وتصم أذنها عن سيرة التقوى ، فانغمر الناس فى لجاج البهتان ، يريدون أن يطفئوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الله ولكن الله أبى إلا أن يستمر نوره كما أبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون والوضاعون . . . . إلخ .

٢ ــ أسباب وضع الحديث :

وإنكم لتجدون أسباب وضع الحديث كثيرة فى الكتب الكبرى المعنية بالكلام عن تاريخ السنة وجهود العلماء المخلصين فى تنقيتها من فضول الوضاعين ، وسوف تجدونها مندرجة تحت ثلاثة أبواب رئيسية :

١ ــ العصبية ٢ ــ الاختلافات ٣ ــ الانحرافات .

- وتجدون تحت باب العصبية :

العصبية السياسية ، والعصبية القومية

- وتجدون تحت باب الخلافات :

الخلافات الكلامية ، والخلافات الفقهية

- وتجدون تحت باب الانحرافات :

التقرب للملوك ، والزندقة ، والجهل بالدين

العصبيــــة

(ا) العصبية السياسية :

١ — ركب الناس رؤوس الشياطين فى الخلافات التى صنعوها بين سيدنا على ومعاوية حتى قاربوا الشرك ووقع فيه جانب منهم الرافضة ومشايعوهم فى كفر صراح ، إذ جعلو علياً نبياً أو جعلوه إلها وقد حرقهم سيدنا على رضى الله عنه نكالا لكل منحرف عن جادة الإسلام الحنيف .

وفى مقام تأييد الشيعة آراءهم الضالة التى لم يساندهم النص القرآنى لأن القرآن يوحد الأمة ، ويأمر بالبعد عن الخلافات التى تشتت « اجماع الأمة » « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . فصنعوا من الكذب ديناً وبهتاناً ليقضوا على عرى الإسلام ، ونسبوا صنعتهم إلى السنة المطهرة ، فاخترعوا حديث غدير خم ووضعوا معه نحو ثلاثمائة ألف حديث (٣٠٠٠٠٠) فى فضائل على وأهله .

٢ — وفى مواجهة هذا الصنيع جابههم الخوارج ، وإن لم يكونوا مثلهم فى كثرة الوضع إلا أن الظرف نفسه وهو تقوية الرأى بالدين قد كان مهمة كل ذى عصبية سياسية ، فخاضوا مع الناس اللجة سواء كان الشيعة فى عمقها العميق أو الخوارج فى شطها القريب فالكل قد غاص لجة الإثم والافتراء .

٣ — ومعها خاض الشاميون الموالون لبنى أمية ساحة المعصبية فوضعوا أحاديث تنصر هواهم منها :

« الأمناء ثلاثة : أنا ، وجبريل ، ومعاوية » ، أنت منى يامعاوية وأنا منك » « لا أفتقد فى الجنة إلا معاوية فيأتى آنفاً بعد وقت طويل ، فأقول : من أين يامعاوية ؟ فيقول : من عند ربى يناجينى وأناجيه فيقول : هذا بما نيل من عرضك فى الدنيا » .

وكل هذا كذب مفترى ، والسنة منه براء .

٤ — والمؤيدون للعباسين يدخلون المعركة فيضعون على المنوال أحاديث للعباسين ، فيقولون : « العباس وصيى ووارثى » ، ومن كذبهم : إذا كان سنة (١٣٥) خمس وثلاثين ومائة فهى لك ولولدك السفاح ، والمنصور ، والمهدى » .

وهكذا يتحلل ذوو الشهوة من الأخلاق ومن الدين جرياً وراء مآرب سياسية ستزول حتما ، ويسجل التاريخ تنطعهم وتطفلهم ، فإن التاريخ إذ يكتب فإنما يكتب بعقل ذكى وقلم حر ووجدان صادق وروح عالية ، ينظر ويناقش ، ويحكم بلا رهبة ولا وجل ولا ظلم ولا تحد ، ولا تضليل .

والتاريخ لا يمليه العظماء ، ولكن الحق هو الذى يكتبه ، فلئن ضلل الحاضرون فإن الغد ولو كان بعيداً تاريخ رصد ، والذكر للإنسان عمر ثانى : فمن حسن عمره الأول ، حسن عمره الثانى ، ومن ساءت حياته الأولى استحق الخلود الخلقى الرخيص ، « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم » (١) .

(ب) العصبية القومية :

ليس الإسلام دين وطن واحد ، أو شعب واحد ، أو جيل واحد أو مكان واحد ، أو للغة واحدة ، أو للون واحد ، ليس الإسلام لجزء

---

(١) الملك ٢٢ .

من الحياة فى الزمن أو المكان ... إلخ ، ولكنه دين الله للناس كافة ، للأسود مع الأبيض فى كل زمان على نحو ما قرر فى فقه التوحيد الإسلامى . أن غد البشرية مماثل ليومها وأمسها ، ومطالب الناس واحدة :

- عقيدة واحدة واضحة .
- وشريعـــة رحيمة .
- وأخـــلاق فاضلة .

والإسلام وحده هو الذى اكتملت فيه على السمو الرفيع قواعد الاعتقاد وقوانين الشريعة ، ومبادىء الأخلاق العليا .

فالمجتمع الإسلامى ليس مجتمعا طبقياً ، إنه مجتمع الإخاء والود ، والرحمة والحنان : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) . (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) . (كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه) . (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) .

ولكن الدم الملوث بالأحقاد ، والعقل الملتوى المبهم يفسق عن مبادىء الحق والفضيلة ، والدين ، بلا خوف ولا رهبة ، بل بالحسد والكراهية والتدابر ، فيؤلفون من الكذب سنة تنصر نوعيتهم القومية ويتمادحون بالأحاديث المختلفة المدسوسة بفم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيقول الفارسيون : إن الله إذا غضب أنزل القرآن بالعربية ، وإذا رضى أنزل الوحى بالفارسية . ويجابه هذا الكذب القومى فئات غبية من ضالة العرب فيقولون بعكس الحديث الكاذب : (إن الله إذا غضب أنزل الوحى بالفارسية ، وإذا رضى أنزل الوحى بالعربية) .

وهكذا يتبارى جهلاء القوميات فى صناعة الكذب ، ليمدحوا أوطانهم ، وما دروا أن عقيدة الإسلام أكبر من القارات وهى فى عدالتها أمل الناس جميعاً عبر المحيطات ، تسوس بالعدل وتقضى بالمعروف .والناس كلهم لآدم وآدم من تراب .

ومثل هذا التعصب القومى : التعصب المذهبي الذى ولده الجهل بحقيقة التاريخ التشريعى ، وحاجة المجتمع إلى الفقه الإسلامى من الثقات المطمئنين .

فيقول جهلاء الفقه المتعصبون لأبى حنيفة،رضى الله عنه « سيكون رجل فى أمتى يقال له أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتى » ، ويفترى المتعصبون على الشافعى (رضى الله عنه) فيقولون«سيكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن إدريس الشافعى أضر على أمتى من إبليس) وكذبوا معاً .

وهكذا : تجدون مجموعات من الأكاذيب وضعها المتعصبون ، ضعاف الدين والفهم والشخصية تأييداً لفكرة ضحلة ، تدور حول : القومية ، أو السياسة ، أو البلد ، أو المذهب . وهى كلها مزيفة تبرأ منها السنة ، ويبرأ منها دين الإسلام الحنيف .

الخلافات

(ا) الخلافات الكلامية :

من العوامل التى ساهمت فى صناعة الحديث المدسوس الخلافات فى علم الكلام ، لاسيما تلك الأمور التى ليس لها نصيب فى القرآن والسنة الصحيحة من الصحة وليس لهامن سند تعتمد عليه غير الكذب والاختلاق. ومثال ذلك : أن قضية خلق القرآن قضية حاكها الفكر الفارسى ليثبت له علماً فى حركة النشاط العمرانى للدولة العباسية فى مقابل تقدم الفرد العربى فى الدراسات الفقهية ، وحفظ السنة الإسلامية .

وهذه القضية ولدها شعور ناقص فى إدراكه للعلاقات بين الأفراد فى ظل الدين الإسلامى لأن العمل المقبول هو الذى توجهت به النية الخالصة إلى الله ، سواء كان الفرد أسود أو أبيض ، وسواء كان فارسياً أو تركياً أو عربياً أو إنجليزياً ... إلخ . فأساس العمل هو النية الخالصة لله: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

والله يقول : « إنما يتقبل الله من المتقين »(١) .

ولئن كان العلماء العاقلون ، يرون أن قضية : القرآن مخلوق حديث أو هو قديم يرونها قضية جديدة على العقيدة الإسلامية ، ويرونها ليست بذات أثر فى ناحية الهدف داخل المجتمع الإسلامى ويرفضون الخوض فيها لعدم وجود أدلة على الإثبات ، ويرونها مسألة من المسائل التى يجب عدم الخوض فيها ، فإن التناحر النفسى بين القوميات الخالية من الوازع الدينى ، قد ملأت كتب الكلام بالحديث عن جزئيات الرأى فى هذه المسألة التى ألجأتهم إلى صناعة الزور ودسوه حديثاً على السنة الإسلامية .

فيقول المرجفون بالباطل : (من قال القرآن مخلوق فقد كفر) ، (كل من فى السماوات والأرض وما بينهما فهو مخلوق غير الله والقرآن) (سيجىء أقوام من أمتى يقولون القرآن مخلوق فمن قال ذلك فقد كفر بالله العظيم وطلقت امرأته من ساعتها) .

وكل ذلك كذب ما سمعه واحد من أصحاب العقيدة ، وأهل الثقة على أنه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ٢٧ – من سورة المائدة .

(ب) الخلافات المذهبية الفقهية :

ألزمت ظروف المجتمع البشرى الجديد داخل البيئة الإسلامية الناشئة فى أوليات القرون الأولى ، ألزمت كبار الفكر ، والعقيدة استنباط الحكم الدينى من مصادره الأساسية المأمونة : القرآن ، والسنة لاسيما بعد أن ضعفت ملكة المولدين من الدماء المختلطة ، وابتعد الناس عن عصر النبوة ، وتولدت أحداث جديدة ليس فى وسع الفرد العادى أن يربطها بقاعدتها فى التشريع .

فكان لزاماً على أولى الفكر الثقات الأمناء أن يوضحوا للناس حكم الله ، وكانت حركة الفقه الإسلامى دليل الحرية الفكرية ، ودليل بعد المجال العقلى فى التفكير ، ودليل رسائل العقل التى يمتد إليها فى حركته ... إلخ ، مجالاته المحددة بالدين .

حرية فى استنباط الحكم من قواعده إلى أقصى مايستجد من أحداث فى الحياة بعيداً عن المتشابه وما وراء الطبيعة ليربط حاضر الأمة بماضيها بواسطة النظر فى القرآن والسنة الصحيحة ، والنظر الخاضع لإجماع سلفه الصالح والنظر الواعى ليسر الشريعة وتسامحها ، النظر الذى يقيس الأمور بدقة وفهم ومعايير خاصة بعيداً عن الهوى المتبع والشهوة الضالة ، والتقليد التطورى الماجن الذى يفصل الأمة الإسلامية فى حاضرها عن ماضيها ، ولكن قاصرى النظر من أتباع الأهواء غابت عنهم هذه القيم فأسسوا حلقة للمصارعة فى المسائل البسيطة التى لا يضر تركها بالأصول ولا بالفروع ، وكانت هذه الحلقة مباراة لخلق الحديث الذى يدس على السنة فتراهم يقولون : أمنى جبريل عند الكعبة فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، فيصنعون حديثاً يصورون به رأى الإمام الذى يرى الجهر بالبسملة فى مواجهة من لا يرى ذلك ، وهى مسألة سهلة لا تستحق عناداً ولا جدالا بله الكذب ودس الجسد فى نار جهنم ، كذلك تراهم يقولون : المضمضة والاستنشاق للجنب فريضة . « من رفع يديه فى الصلاة فلا صلاة له » ، ليسندوا آراء

القائل بهذين الحكمين فى مجابهة من لا يقول بهما ، وإن أجل ما نرثه عن الأئمة الأوائل أنهم اتفقوا على :

١ – أصول العقيدة فهى عندهم واحدة وليس هناك أدنى خلاف فيها والحمد لله .

٢ – أنهم تلمسوا الحكم من السنة الصحيحة ، وكل وضع له قواعد خاصة لقبول الحديث ، فمن ثبت عنده الحديث أخذ به ، ومن لم يثبت تركه .

ومع هذا فقد وضعوا لنا قاعدة جليلة « إذا صح الحديث فهو مذهبى » فليس فى تاريخ التشريع ما يورث هذا العناد ، بل فيه ما يورث الوحدة والبحث عن الحديث الصحيح ، ولكنهم عافاهم الله إن شاء تركوا كل هذا وأضافوا مجوناً أجهد العلماء فيما بعد عندما أرادوا أن ينقوا السنة من شعث المتهوكين .

الانحرافات

(أ) الزندقة :

وجد المستعبدون تحت العروش قديماً ، فى دين الإسلام كرامة واحتراماً للفرد والعقيدة ، وأحست مشاعرهم بغذاء روحى يقضى على الأوهام والخزعبلات والخرافات التى تعلموها فى الدين القديم الذى كان ملوكهم عليه ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، حتى اكتسح الإسلام بذاته كبرى الدولتين القديمتين فارس المجوسية ، والروم المسيحية ، ولقد كانت قوة الإسلام الأولى فى ميدان السياسة والعسكرية ، لا مثيل لها بحيث ظلت آمال العاشقين فى عبودية الشعوب ، وهواة الانتقام من الإسلام واستعادة دول الذل والاستعباد مختفية ، فلجأ الزنادقة من بنى أولئك المشتهين طعن الدين ثقافياً ، فولجوا مع الناس ، حرمة السنة ، مستترين بالتشيع حيناً ، وبالتعبد

أحياناً ، أو بالفلسفة مرة ، أو بالزهد أخرى ، وهم فى كل ألوان هذا الدجل يتوخون توهية الدين وحشو السنة بالخلل ليتحطم القصر الشامخ الذى أقامه نبى الإسلام رحمة وهدى للعالمين .

فتراهم يلدون من بطون الحقد والكراهية : « ينزل ربنا عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة » ، « خلق الله الملائكة من شعر ذراعيه وصدره »« إن الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة » ، « إن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل وأجراها فعرقت فخلق نفسه منها » ، « النظر إلى وجه الجميل عبادة » ، « الباذنجان شفاء من كل داء » ، « إن الله لما خلق الحروف سجدت الباء ووقفت الألف » .

ومثل هذا كثير تجدون فيه لحن الكفر ، وبدعة الزندقة ، وانحراف المعنى ، وخروجه عن السوى من الخلق ، وفيه فسق بدين الله الحنيف .

يروى لنا الدكتور السباعى فى كتابه : « أنه لما قدم عبد الكريم ابن أبى العرجاء للقتل ، وهو من كبار الزنادقة الوضاعين للحديث اعترف بأنه وضع أربعة آلاف حديث (٤٠٠٠) ، يحرم فيها الحلال ، ويحلل فيها الحرام ، ولذلك فإن الخليفة العباسى (المهدى) عندما أحس بالخطر الزندقى على السنة أسس لهم ديواناً خاصاً يتتبع أوكارهم وشعبهم وشعابهم ، ورؤساءهم ومدارسهم ليجهز عليهم حماية لدين الله ، ودفاعاً عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشهر الوضاعين الذين سفك دمهم واستراحت منهم أفكار الشبيبة وأبعد الله بفنائهم شيطان الوضع :

بيان سمعان المهدى ، قتله : خالد القسرى .

محمد بن سعيد المطلوب ، قتله : أبو جعفر المنصور .

عبد الكريم بن أبى العرجاء (الذى سبق ذكره آنفاً) قتله : محمد بن سليمان أمير مدينة البصرة . .

(ب) الجهل بالدين :

الإسلام دين الحياة : الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى . وهو لذلك اعتنى بالتشريع الخاص بتنظيم الحياة للفرد ، والأسرة والدولة ، فى مجالات : الرعاية الاجتماعية ، والعمل والتحرك الاقتصادى ، والنظام السياسى ، والأسس العسكرية ، والمعاهدات ... إلخ . وفى تاريخ الدعوة الإسلامية مجال تطبيقى لهذه الأسس ، وهو يعطى الفرد دليل صحة التدين، الذى يحفظ عقله وماله وذريته ، ونفسه ، وأسرته ، وجماعته ودولته .

والإسلام وحده بفقه التدين يمرس الفرد على أن يوفق بين مطلبه ومطالب المجتمع الذى يعيش فيه .

وتقوم الدعوة فى الإسلام على أساس من إقناع العقل ، واحترام التفكير ، وقد خاطب الله العقل وأمره أن ينظر : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(١) ، « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢) إلى آخر الآيات .

ولكن قوماً جهلوا الدين فى :

١ — عرضه : فأفسدوا حقائقه ، واستعانوا على ذلك بإثارة العواصف ، وتهييج الأفئدة بخلق قصص قد تولد استكانة ؛ أو تميت عزيمة .

٢ — أو فى فهمه : فظنوا الخلاص من الحياة ديناً حميداً ، فخلعوا ثياب الدنيا زهداً ؛ وجهلوا أن الفقر ليس زهداً، وليس الزهد فقرا ، وإنما الزهد فى أدق معانيه الإسلامية : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »(٣) . والزكاة لم تفرض على الكسالى يخرجون من كسلهم زكاة ، والإسلام لم يحفل برعاية اليتامى عالة على جهود الزهاد العرايا ، بل نظم القوانين المالية ليزهد الناس فى الحرام بالحلال ، ومن الحلال يصنعون دولة العطف والرعاية كنموذج للأمة الفاضلة التى لا يجد فيها

(١) ١٠١ يونس .
(٢) ١٩٠ آل عمران .
(٣) الحشر .

المسكين والفقير مكاناً للعوز والحاجة ، والذلة النفسية .

ولكن الجهلاء بالدين صنعوا لهم قيما خاصة فأضروا بالدين ، وألحقوا أنفسهم (لا عن عمد) بالذين ظلموا وكانوا مجرمين .

فالوعاظ والقصاصون ورواد الدعوة وجهوا همهم فى الحصول على دموع السامعين وطأطأة الرءوس وسلب العقول ، وإثارة العواطف ، فأحدثوا بدعة القصة ،وورث تاريخ الدعوة إحصائيات كثيرة عن أقاصيص الجنة والنار . ويقول ابن قتيبة فى وصف حالة الوعاظ الجاهلين بالدين :

« فإنهم يميلون وجه العوام إليهم ، ويشيدون ما عندهم بالمناكير والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن نظر العقول ، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ، فإذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك أو زعفران ، وعجيزها ميل فى ميل ، ويبوىء الله وليه قصراً من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون ألف قبة ، فلا يزال هكذا فى السبعين ألفاً لا يتحول عنها »

ويمكنكم أن تتبعوا دروس الوعظ فتجدون فيها من الخيالات ما لا تتفق مع العقل الإسلامى البناء ، فترون مثلا : « من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان » . ومن الظريف جداً أن جرأة هذا الصنف يلغت حد السخرية بقيمة الوعظ ، فبينما جلس واحدهم فى مسجد الرصافة يحدث فيقول : حدثنا أحمد بن حنبل ، ويحيي ابن معين قالا : حدثنا عبد الرزاق عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله ... إلخ الحديث السابق سأله يحي بن معين وكان حاضراً فى المجلس هو والإمام أحمد بن حنبل وهما اللذان يدعي الرجل أنه يحدث عنهما ، قال له يحي : من حدثك بهذا ؟ قال القاص : أحمد بن حنبل ويحي بن معين . فقال يحي : أنا يحي وهذا أحمد ما سمعت بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ولا بد فعلى غيرنا ، ولكن حماقة القاص تهجم وتقول : لم أزل أسمع أن

يحيي بن معين أحمق حتى تحققته الآن . فقال له يحيي : وكيف ؟ . فقال الرجل : أليس فى الدنيا يحيي بن معين ، وأحمد بن حنبل غيركما ؟ . لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ، ويحيي بن معين ؟ .

وبكل أسف : فإن هذا المنهج قد ساعد جهال الأمة على انتشاره وأصبح من العسير أن يوجه الرأى العام الإسلامى بالحجة والإقناع ، فقد استروح الناس لذة القصة ونأوا عن محجة الدين ، ومحاجة الفكر ، وذلك داء يعطل وظيفة الأمة التى بعثت أستاذة تعلم الناس شئون الحياتين .

لذلك فإن أسلوب الدعوة يجب أن يتخذ له منهجاً فى : ...

- توضيح حقيقة الإسلام من نواحيه كلها : العقيدة ، والشريعة، والأخلاق :
- نشر الثقافة الإسلامية الواضحة ليتعرف الفرد على طريق الله السليم فى خضم النظريات المواجهة .
- تربية الدعاة الفدائيين ليكون توصيل الدعوة مرتبطاً بقيادة واعية ، وتفسير عملى لحقيقة الإسلام ، ولسوف نجد إن شاء الله جهازاً للدعوة الإسلامية فى هذا الوطن الإسلامى الشقيق يعطى الدنيا أدلة العمل الإنسانى من دين الإسلام ، فإن أندونيسيا وطن بكر لدين الإسلام وحقل خصب للتجربة الرائدة .

وأما الزاهدون بغير علم ، والعابدون بغير معرفة ، فلنا معهم حديث : أما المنهمكون فى العبادة ، فقد ظنوا أن ترقيق القلوب فى الطاعة ، وأن الكذب بالحديث للإسلام لا شىء فيه ، وهم جاهلون . لأن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه : نسبة قول أو فعل أو تقرير إلى النبى صلى الله عليه وسلم بغير حق ؛ فسواء كان الحديث مرغباً فى الإسلام أو كان مفسداً للإسلام فكلاهما وضع على صاحبه أن يتبوأ مقعده من النار .

إن الأمانة فى الدين ، وإن الأمانة فى العلم ، وإن الأمانة فى الخلق ،

هى الأداء بلا زيادة ولا نقصان ، ولكن الراغبين فى الطاعة مع الجهل ، خرجوا على حدودها المقررة ، فوضعوا فى الترغيب والترهيب أحاديث ، فلما وجههم العلماء ، وذكروا لهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ردوا عليهم بفلسفة عمياء فقالوا : له نكذب لا عليه . وهو جهل وعمه ، لأن مدار المنع هو على النسبة للرسول صلى الله عليه وسلم مطلقاً ، إذ هو الدين والسنة ، والرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، فليس للرأى الخاص ولا للعقل مجال بعد النص،وقد تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته . ولقد أكمل الله للمسلمين دينهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(١) . فليست العقيدة والشريعة ، والأخلاق والدعوة فى حاجة إلى زيادة من بعد ذلك أبداً .

ونوح بن مريم أحد الوضاعين رغبة فى الخير وجهلا بالدين لما رأى الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى بن إسحاق وضع لهم بعض أحاديث فضائل القرآن ليحملهم على قراءته .

ومثله غلام خليل الزاهدى المحتسب الذى أغلق أهل بغداد لموته جوانيتهم حزناً عليه ، وضع الأحاديث فى فضائل الأذكار والأوراد ، وقد اعترف بنفسه بهذا الوضع عندما سئل فقال : وضعناها لنرقق بها القلوب .

يغفر الله لهم سيئاتهم ، ويعافيهم إن شاء الله ، إنه هو الغفور الرحيم .

(ج) التقرب للملك :

ضعاف النفوس هم الذين يحقرون أنفسهم طلباً للمادة ، وأصحاب النفوس الكبيرة هم الذين ترتفع هممهم فوق المادة والجاه ، وتعتز بدينها وخلقها ، وترى أن العزة فى طاعة الله .

---

(١) المائدة ٣ .

وقد خسر أولئك الذين حقروا أنفسهم حياة الدنيا والآخرة ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش) . وقليل من الناس من يقوى على شهوته ويحترم عقله ، وينصر دينه ، وكثير منهم من يتبع الهوى ، فيضل عن سبيل الله .

ومن أمثلة ذلك أولئك المتسكعون أمام الأبواب عند الملوك والرؤساء يضحكون إذا ضحكوا من غير معرفة لهم لماذا ضحكوا ؟ أو يقومون هم بإضحاكهم إذا شاءوا ، فهم الإمعات التي تسخر نفسها لتقدم زادا ولو حقيراً لغيرها . ولو أنهم باعوا حياتهم ومروءتهم فقط لكان الذنب صغيراً والجريمة واهية ، ولكن الويل كل الويل لأولئك الذين باعوا دينهم مع دنياهم ثمناً بخساً لمتعة تزول سريعاً ، ونعمة هم فيها ساقطون صاغرون .

يروى العلماء الثقات : أن غياث بن إبراهيم دخل على المهدى الخليفة العباسي فوجده يلعب بالحمام ، فأراد أن يلصق لعب الملك بالسلوك العبادى للنساك الطائعين ، فذكر له الحديث المشهور : « لا سبق إلا فى نصل أو حافر » ثم زاد من عنده « أو جناح » ويتهاون المهدى فى تأديب ذلكم الكاذب ويمنحه عشرة آلاف درهم ، ثم يقول بعد أن ولى : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر بذبح الحمام .

ولو أنه شج رأسه ، وأدخله السجن وعزره بالضرب لكان أصون للدين وأجود للتهذيب وأنكى للغير ، ولكنها خلة الملك تهوى التسكع من المتسكعين حول البلاط وزوايا القصور .

تلك هى البواعث والعلاقات التى دفعت فريقاً من الحزبيين ، والجاهلين ، والمتعصبين ، والزاهدين ، والمتسكعين لخلط كلامهم بالسنة ، ولسوف يهيىء الله لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ينقيها من الدنس ، وهوى الزندقة ، وكذب الاستشراق ، وافتراء الساسة .

فالله خير حافظاً وهو على ما يشاء قدير .

الرجال الوضاعون
أو الكتب الخاصة بهم

لئن كان الشيطان يملك قوة يضلل بها ويفسد ، ولئن كان له من الجنود ما تشتهى ضلالته ، فإن الله له جنود السموات والأرض أكثر عدداً ، وأقوى عدة ، وأنفذ إرادة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وفى نهاية المعارك دائما تستقر الحقائق ، وتعلو كلمة الله ، ويعض الظالم على يديه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً، «وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى» (١).

فقد منح الله تاريخ السنة أفذاذاً عباقرة أولياء صفوها من شوائب المتنطعين والمتشدقين ، ولئن كانت حبات الملح التى ذوبت فى الماء قد وجد الناس لها طريقاً للحصول عليها مرة أخرى عن طريق عملية الترشيح الكيماوى ، فإن ما ألصقه — بل ما حاول إلصاقه — جماعات الزنادقة والشعوبيين ، وكلاب البلاط الملكى ، كانت كحبات الخرز الأسود فى صندوق اللؤلؤ الحر الأصيل . وبرادة الحديد وسط كتل الماس ، فالتقطها العلماء وأخرجوها من السنة وبوبوا لها ولرجالها حتى صارت للسنة الإسلامية كتبها النقية ، وصار للملتصقات المكذوبة ورقاتها وللوضاعين مثلها ، وعلى قدر الجهد الممنوح لنا هنا من الله وما نملكه من المراجع نقدم إليكم طرفاً من :

الرجال الذين اقترفوا إثم الوضع ، والتحريف .

والكتب التى اشتملت على كلامهم ، وسيرتهم ، وأحصت مفترياتهم .

---

(١) سورة إبراهيم ٢٢ .

(ا) الرجال الوضاعون :

فيما تتبعه العلماء الثقات وعثروا عليه من الكذابين :

١ – بيان بن جعفر التميمي : وضع على أبي حنيفة ٣٠٠ حديث لم يحدث الإمام بواحد منها .

٢ – إبراهيم بن زيد الأسلمي : كذب على مالك فروى كذباً أحاديث لا أصل لها .

٣ – أحمد بن عبد الله الجويباري : وضع آلافاً مؤلفة من الأحاديث للكرامية ، وفرق علم الكلام .

٤ – جابر بن يزيد الجعفي : حاك ثلاثين ألف حديث . يقول فيه سفيان : سمعت جابراً يحدث بنحو : ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئاً .

٥ – محمد بن شجاع الليثي : وضع أحاديث التشبيه ، ورفعها كذباً إلى رجال الحديث الأمناء .

٦ – نوح بن أبي مريم : وضع أحاديث فضائل سور القرآن سورة سورة .

٧ – مقاتل بن سليمان ٨ – محمد بن سعيد المصلوب .

٩ – الحارث بن عبدالله الأعور ١٠ – وهب بن وهب القاضي .

١١ – محمد بن السائب الكلبي ١٢ – أبو داود النخعي .

١٥ – مأمون بن أحمد الهروي . ١٦ – محمد بن عكاشة الكرماني .

١٧ – محمد بن القاسمي الطيلكاني .

(ب) الكتب :

أفرد العلماء الأحاديث المشكوك فيها ، والأحاديث المختلفة ، وصنفوا لها الكتب الخاصة ، وإليكم طرفاً من هذه الكتب :

١ – الموضوعات : للحافظ أبى الفرج الجوزى ٩٥٧ هـ ، ذكر فيه كل الأحاديث التى لم ترق إلى مرتبة السنة الصحيحة .

٢ – المغنى عن الحفظ والكتاب : لأبى عمر بن بدر الموصلى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ذكر فيه الأبواب التى ليس فيها حديث صحيح من الروايات .

٣ – الدر الملتقط فى تبيين الغلط : لرضى الله أبى الفضل حسن بن محمد ابن حسين المتوفى سنة ٦٥٠ هـ .

٤ – تذكرة الموضوعات : لابن طاهر المقدسى .

٥ – اللآلى المصنوعة فى الأحايث الموضوعة : للحافظ السيوطى .

ذكر فيه مختصراً لكتاب الموضوعات ، لابن الجوزى ، وزاد عليه مسائل أخرى .

٦ – تذكرة الموضوعات : لمحمد بن طاهر بن على المتوفى سنة ٩٨٦ هـ ، وقد ألحق به رسالتين عن : الضعاف فى الرواية والوضاعين الكذابين .

٧ – الموضوعات : للشيخ على القارى الحنفى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ .

٨ – الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة : للإمام الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .

٩ – اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع : للشيخ محمد بن أبى المحاسن القاوقجى الأزهرى المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ .

ومع هذا الجهد فى إبراز الأحاديث الضعيفة والموضوعة فقد ألف العلماء مصنفات خاصة بالأحاديث الدائرة على ألسنة الناس ، وكثر التحدث بها ، ووضحوا صحيحها وضعيفها وموضوعها . إلخ ومن تلك الكثير :

١ – تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث : لابن الديبع الشيبانى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ .

٢ — حسن الأثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر : للشيخ محمد الحوت البيروني .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث عن السنة فى مرحلتين من مراحلها :

١ — مرحلتها قبل الوضع : والدين يسوس العقول والمشاعر والحياة .

٢ — مرحلتها بعد الوضع : وقد وقرت السنة فى صدور العلماء الثقات فى وقت ازدحمت فيه الحياة الاجتماعية باللغط السياسى ،وسيس الدين بالدنيا والشهوات . ولكنهم حافظوا عليها من الدخيل والشوائب .

وبهذا نكون قد وقفنا على عتبة باب المرحلة الثالثة للسنة : وهى مرحلة التدوين والصقل ، وتخليصها من هوى الأفاكين ، وهى مرحلة يسترد فيها المسلم ثقته بعلماء الدين ، ويسترد شرفه الثقافى الذى حاول المتنطعون عبثاً أن يلوثوه، ويقدم المسلم للتاريخ والحياة جهود علماء الإسلام التى بذلوها خالصة لله ولرسوله وللإسلام ، حفاظاً على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتبين للتاريخ الفرق بين موقفين :

١ — موقف الذين تبرعوا بتغيير الحق بالباطل ليشتروا به ثمناً قليلا .

٢ — وموقف الذين جاهدوا لإبراز الحق من الباطل الذى شاء أن يقضى على ثروة الأمة فجابهوه بالقوةوالعزم الصادق الأمين، ولسوف يجد الدارسون المنصفون أن الأمة الإسلامية وحدها هى التى امتازت بالسند المتصل فى تحمل السنة النبوية ، وأن رجال الدين فيها أمناء : فى عفة ، منبعها الحياء الدينى والخلق الإسلامى ، وأن ليس لأمة غير أمة الإسلام سند متصل ولا كتاب يحمل له التاريخ ثقة فى ذاته وفى ناقليه .

وإلى الغد لنحيا مع العلماء الثقات فيما قدموه لنا من قواعد لضبط السنة وتمييز الحشو الذى افتراه الماجنون لنقف على جهاد ثقافى رائد لندفع به فى الحاضر كيد المعتدين ، والله المستعان ، وبه الحول والطول للعاملين المخلصين .

علامات الوضع :

وضع العلماء الثقات علامات يعرف بها الحديث المدسوس على السنة الإسلامية ، وهذه العلامات :

إما خاصة بالسند : وهم الرجال الراوون .

وإما خاصة بالمتن : وهو الكلمات المروية .

(ا) علامات الوضع فى السند :

أما فيما يختص بالطريق والسند والرجال الراوين للحديث فقد وضع العلماء لهم علامات منها :

١ ــ أن يكون الرجل معروفاً بالكذب ، وأن لا يكون الحديث قد رواه ثقة غيره .

٢ ــ أو يعترف الراوى نفسه بأنه وضع الحديث ، وأدخله على السنة مثل اعتراف عبد الكريم بن أبى العرجاء بوضعه أربعة آلاف حديث .

٣ ــ أن يدعى الرواية عن شيخ :

لم يثبت تاريخياً لقاؤه به أو لم يسمح عمره بالتلقى عنه أو لقائه به أو لم تسمح الحادثة المذكورة بدخوله المكان الذى يروى عنه مثل ادعاء المأمون بن أحمد الهروى أنه سمع من هشام بن عمار ، وهشام يسكن الشام ، فلما سئل مأمون متى دخلت الشام ؟ قال : سنة ٢٥٠ هـ ، قال الحافظ بن حبان : وهو السائل : أن هشاماً الذى تروى عنه مات سنة ٢٤٥ هـ ، فالحادثة والتاريخ لا يسمحان بلقاء مأمون بهشام ، فادعاؤه اللقاء كذب .

ومثله : عبد الله بن إسحق الكرمانى حدث عن محمد بن أبى يعقوب ، مع أن محمد بن أبى يعقوب هذا مات قبل أن يولد عبد الله بن إسحق الكرمانى بتسع سنوات .

وهكذا من كل سند لا يمكن أن يتحقق فيه اللقاء لعدم إمكانه تاريخياً ، أو لمانع من حداثة السن ، أو موت المروى عنه قبلا ، أو تغاير الأمكنة . إلخ.

٤ ـ أن تكون نفسيته عصبية المزاج مثل رواية محمد بن الحجاج النخعي فقد روى كذباً : الهريسة تشد الظهر ، فقد كان بياعاً للهريسة .

ومثل رواية سعد بن طريف : معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المساكين ، فقد وضعه عندما دخل عليه ولده يبكي ، فلما سأله : قال : ضربني المعلم .

ومثل هذين الرجلين : رجال الأهواء والبدع ، وأصحاب المذهب الخاص والرأي الشخصي .

يروي الجوزي في كتابه « الموضوعات » : عن أبي لهيعة أنه قال : سمعت شيخاً من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً .

(ب) علامات الوضع في المتن :

١ ـ ركاكة اللفظ :

فقد امتازت ألفاظ النبوة بجرس خاص وصقل فريد ، وتركيب متين ، وتناسق ، مع أصول العقيدة وروح التشريع ، يقول ابن دقيق العيد: . . . وحاصله أنهم لكثرة ممارستهم لألفاظ الحديث حصلت لهم هيئة نفسية وملكة قوية يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم وما لا يجوز ـ ومعناه :

أن الدارسين للسنة رواية ، يكسبهم التمرس ذوقاً خاصاً لأسلوب النبوة ، وملكة خاصة بجرسها يتعرفون به على الحق ، ويفرقون به بين الصحيح والمريض ، والحق والفاسد .

٢ ـ فساد المعنى : مخالفة الحديث :

ـ للبديهيات من المعقولات .

ـ أو لقاعدة من قواعد العقيدة .

– أو لنص من نصوص الشريعة .

– أو يكون خارجاً على صفة من صفات الأمة .

– أو لحادثة من حوادث التاريخ .

مثل قولهم : « إن الله خلق الفرس فأجراها فعرقت فخلق نفسه منها» « الباذنجان شفاء من كل داء » ، – « ولا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة » « النظر إلى الوجه الحسن يجلى البصر » ، «أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً ، وصلت عند المقام ركعتين » ، « جور الترك ولا عدل العرب » . . . إلخ .

فكل ذلك كذب لمخالفته بديهية العقل وحدود العقيدة والشريعة والتاريخ.

٣ – عدم الاتفاق مع نص القرآن :

مثل قولهم : « ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء » ، فإنه غير متفق مع مبدأ المسئولية الفردية « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ومثل قولهم : « آليت على نفسى ألا أدخل النار من اسمه محمد » ، لأنه مخالف لقوله : « كل نفس بما كسبت رهينة » .

ومثل قولهم : « من قضى صلوات من الفرائض فى آخر جمعة من رمضان كان ذلك جابراً لكل صلاة أتته فى عمره إلى سبعين سنة » فإنه مخالف للإجماع من أن الفائتة لا يقوم مقامها شيء من العبادة غير قضائها ، وقول الله «وأقيموا الصلاة » ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

٤ – عدم الاتفاق مع حقيقة الحوادث فى عهد النبوة :

مثل حديث وضع الجزية عن أهل خيبر ، فإن الثابت فى التاريخ أن الجزية لم تكن معروفة إلا بعد عام تبوك ، وأن سعد بن معاذ المدعى عليه أنه شهد كتابة معاوية حديث الجزية توفى فى غزوة الخندق قبل خيبر ، وأن معاوية أسلم عام الفتح ، فالأحداث التاريخية تفند زعم القائلين بأن الجزية وضعت على أهل خيبر ، ورفع عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم السخرة والكلفة ، مثل ذلك : دخلت الحمام فرأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم مؤتزراً فهممت أن أكلمه فقال : يا أنس إنما حرمت دخول الحمام بغير مئزر من أجل هذا . إذ الثابت فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل الحمام قط لأنها لم تكن معروفة فى ذلك العصر فى الحجاز . .

٥ ـــ أن يوافق الحديث مذهب الراوى : مثلما يرويه واحد من الشيعة أو الخوارج أو الزنادقة ، أو الجهمية من أصحاب الهوى والرأى الخاص .

يقول الزنادقة : إن الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة ، رأيت ربى ليس بينى وبينه حجاب فرأيت كل شىء منه حتى رأيت تاجاً مخصوصاً من اللؤلؤ ، وينزل ربنا عشية على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة ، خلق الله الملائكة من شعر ذراعيه وصدره .

وكل هذا باطل وكذب ، ومثل الزنادقة ، الرافضة ، وبقية الشيعة والجهلاء المعتدين على السنة . فكل رواية فيها واحد من هؤلاء وأمثالهم فهى مردودة مكذوبة .

٦ ـــ أن يدل لفظ الحديث على تواتره ووجوب علمه ثم لا يكون كذلك،مثل حديث غدير خم الذى ادعت الشيعة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم من الحج سمعوه جميعاً من النبى صلى الله عليه وسلم مع أن الحديث لم يظهر إلا بعد الفتنة بين معاوية وعلى رضى الله عنهما .

فلو كان الحديث صحيحاً لكان معلوماً لجميع الناس ، لأن كلمات الحديث تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة لعلى وأمر الصحابة أن يسمعوا له ويطيعوا ،فلو كان هذا حقاً لماجحده كبار الصحابة وما تركوه ، لكن الصحابة جميعاً لم يسمعوا به حتى كانت الفتنة الضالة فصنع الحديث قوم مشايعون لعلى حبا فى وأد الدين لا حباً فى على وآل البيت .

يقول ابن حزم : ما وجدنا قط رواية عن أحد فى هذا النص المدعى إلا رواية واهية عن مجهول يكنى أبا الحمراء لا نعرف من هو فى الخلق ؟ .

٧ ـــ اشتمال الحديث على إفراط فى الثواب أو العقاب أكثر من

تحديد القرآن مثل : من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطى ثواب سبعين نبياً ، من قال لا إله إلا الله خلق الله تعالى له طائراً له سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له .

تلكم هى أسس القواعد التى ضبطها العلماء لمعرفة الصحيح من الفاسد ومنها تتعرفون على ملاحظات :

الأولى : أنهم وضعوا قواعد لنقد السند ، كما وضعوا قواعد لنقد المتن وبهذا تستطيعون الرد على مزاعم المستشرقين وتلاميذهم فى الشرق والغرب القائلين بأن السنة كانت تطوراً لحياة المسلمين وأن العلماء صنعوها لما أعوزتهم الحياة السياسية .

الثانية : لتقدموا للعالم سبق الأمة الإسلامية إلى النقد الفنى كأساس لضبط السنة ، يقول ابن الجوزى : الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه فى الغالب .

ويقول الربيع بن خيثم : «إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه به ، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها » .

وهذا التذوق الفنى له أسس يعرفها فى أنفسهم الصادقون فى العقيدة والعاملون بالسنة والمدافعون عن دين الله .

الثالثة : ولتدمغوا جهل القائلين من المستشرقين : أساتذة وتلاميذ ، أن علماء الجرح والتعديل لم يعنوا بنقد السند ، ولتعلموا قاعات البحث العلمى أن الاستشراق ومنهجه وأعوانه وطلابه ، يقلبون الحقائق ويشوهون الحق ولا يبرأون من التعصب الأعمى ، الذى يستهدف التضليل ، ويعتدى على العلم وقواعده .

ولتعلموا أنتم أن ادعاء علماء الغرب الحيدة العلمية فى البحث ، هى دعوة إلى التجرد من الخلق والدين واتباع هوى النفس « المرض التقديم » الذى علمه السوفسطائيون فى العصور الأولى بدء التاريخ الفلسفى ليسدوا

منافذ الحق ، ويغلقوا طريق البحث باسم دعوة الحيدة وما هم إلا خونة العلم وقواعد البحث الأمين ، وممن اضطلع بهذا الإفك :

١ — شيخ المستشرقين الكاذبين جولد تسهير .

٢ — وأحمد أمين فى كتابه : فجر الإسلام ، وضحاه ، وهو كما تسمعون عنوان براق ولكن حوى فى داخله إثماً ، فهو الجعبة التى ملئت بالسم الزعاف ، ثم قدمها بيد الصداقة الخائنة غذاء لمن شاء له صاحب الجعبة أن يموت .

٣ — وأبو رية فى كتابه : أضواء على السنة الإسلامية، وهو كتاب ماجن اعتمد على كتب المستشرقين والمؤرخين المسيحيين . ولم يعتمد فى فكرته على سند من كتب السنة ولا من تاريخها ولكنه نأى بها إلى « بارات » الاستشراق وزمرة المسيحيين ، فخان بذلك الأمانة وتنكب جادة الطريق .

ولسوف تجدون فى حديثنا ما يساعدكم على إدراك العلل النفسية التى ألجأت أولئك القوم إلى تنكب جادة الحق واتباع الهوى وتضليل الحقائق . لتساهموا بدوركم فى الحفاظ على السنة كضريبة أساسية تدفعونها فى إخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين .

وفى الغد نعرج بكم على مرحلة حاسمة من مراحل السنة وهى مرحلة التدوين إن طالت لنا حياة وبالله التوفيق ؟

منهج العلماء فى تدوين السنة

فى معالجتنا للموضوعات السابقة استوضحنا وجود ظاهرتين فى حياة السنة ملخصهما :

١ – أن نقيي العقيدة ، وطاهرى الوجدان ، المخلصين لله ولدينه الحنيف الذين أجهدوا أنفسهم فى الحفاظ على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مظاهر ذلك :

١ – فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الحرص على سماع الحديث منه حتى أن الغائب منهم لبعد الشقة يتناوب مع صاحبه حضور الحلقة ليخبر كل منهما صاحبه بما سمع من العلم . وكان الصالحون من المسلمين إذا حزبهم أمر فزعوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ديارهم البعيدة فى سفر طويل ليسألوه عليه السلام عن حكم الحادثة ، وكان الضعاف فى الحفظ يسألون النبى صلى الله عليه وسلم إجازة كتابة الحديث لهم مثلما طلب أبو شاه أن يكتب له الحديث يوم غزوة الفتح ، كما كان المثقفون الكاتبون الحرصاء على تدوين السنة فى صفحتهم الخاصة ولما اعترض عليهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم مثلما حدث لعبد الله بن عمرو . . . . إلخ .

٢ – أن الخبثاء الذين لوثوا بالكفر كرامتهم ، وقلوبهم وجعلوا على بصائرهم غشاوات متراكمة ، أرادوا أن يفسدوا السنة مما حاكوه من كلمات سوداء ظهرت لبصيرة المخلصين ظهور النكتة السوداء فى الثوب الأبيض فجردوها منه بالقاعدة ، والأساس والدليل . . إلخ .

ومعنى هاتين الظاهرتين : وحدة الفكر المعتدى على الإسلام . قديماً وحديثاً ، فليس فى أسلوب المعتدين جديد بالرأى ولا جديد

بالمنهج ، ولكن الجدة فيه أن المسلمين ينسون القضايا القديمة التى حيكت ضد الدين ، فيرون التهم المستحدثة جديدة ، وفى مجابهة هؤلاء جميعاً كان العلماء المخلصون لله ولرسوله وللإسلام قد دونوا السنة الإسلامية ، ونقوها من الفضول ، وهذبوها من الدخل . وأن جلد كتب السنة لصخرات تتحطم عليها رؤوس المعتدين ، وإن فى جوفها لنورا ، لاتستقبله العين الرمداء ، وإنه لتسعد به وتقر أعين السالمين من الأمراض .

ونحن فى هذا الشوط سنعالج قيمة السند من الناحية التاريخية بمفهومها التاريخى ومراحله لنضع بين أيديكم جهودالعلماء فى محافظتهم على الدين ومصادره ليبلغ الشاهد منكم الغائب عسى أن تنالوا من الحظ والشرف ما يقدره الله من مكافأة للأبرار المجاهدين .

معنى تدوين السنة وأطواره

(أ) مفهوم تدوين السنة :

جمع الأحاديث التي صح ورودها عن النبي صلى الله عليه وسلم وتقرر حكماً أو تصف فعلا ، أو توافق على تصرف متفق مع الإسلام : روحاً أو نصاً من فعل الصحابة ، ومعناه : استقراء جميع الأحاديث التي صحت نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجمعها في صحف يكون لها طابع الكتاب ، والمرجع .

والتدوين بهذا المعنى لم يوجد إلا في الطور الثالث من تاريخ السنة بعد أن اكتملت الظروف التي تلح على جمع السنة بهذا المفهوم ، والتدوين بشكل عام :

١ – بشكله الشخصي ، والشعبي ، والفردي .

٢ – وبشكله الرسمي الحكومي .

٣ – وبشكله المكتمل للوسائل والطرق :

– الوسائل المادية .

– والطرق النفسية والفكرية

التدوين بهذا العموم ، أخذ ثلاثة أطوار :

الطور الأول :

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وكبار التابعين من أول التاريخ الهجري حتى عام ١٠٠ هـ .

الطور الثاني :

في عهد صغار التابعين وتابعيهم من سنة ١٠٠ – ١٥٠ هـ

الطور الثالث :

(ا) فى عهد الازدهار والحركة العلمية والمحدثين من سنة ١٥٠ ه إلى أوائل القرن الرابع .

(ب) ولقد صاحبت حركة التدوين للسنة حركة أخرى هى :

حركة تنقية السنة من الوضع : تكلم العلماء فيها عن قواعد قبول الحديث من الراوى وأحوال الرواة ، وصفاتهم . . . إلخ ، وعن درجة الحديث ونصيبه من : التواتر ، والصحة ، والحسن ، والضعف . . . إلخ .

(ج) ولذلك فإن الرأى عندى أن تدوين السنة له وجهتان :

١ — وجهة مادة الحديث المنسوب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — المتن —

٢ — ووجهة الضمانات التى تثبت صحة الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو باختصار :

أصول السنة وتنقيتها من الدخل .

وكل هذا يدرس على أنه من جهود العلماء المسلمين الذين نفروا خفافاً فى سبيل الله لحماية أحد مصدرى الإسلام : وهو السنة الإسلامية .

تدوين السنة فى الطور الأول

عصر النبوة وكبار الصحابة ، والتابعين

١ - عصر النبوة :

١ - بحكم التجربة يوافق الناس جميعاً فى كل وطن على أن أكثر الناس دراية بأصول العمل المكين فى مجال بناء الدولة هم الكبار المتمرسون بأساليب الإدارة الواعون للخفى من أطراف العلاقات التى لا تلحظها أفكار العاديين من الرعية .

فإذا انضم إلى هذا التمرس العصمة - وهى خاصة بالأنبياء - أدركنا أن وظيفتنا أمام الأحاديث التى نهت عن تدوين السنة ، والأحاديث التى أذنت بكتابتها فى حالات فردية - وظيفة دقيقة علينا أن نتحسس أطراف العلاقات التى تربط بين النهى والإذن .

ومن بادىء الأمر : فإنا لا نوافق على آراء القائلين :

١ - أن النهى منسوخ بالإذن .

٢ - أو النهى باق والإذن كان لأفراد يوثق فى ذممهم فهو إذن خاص لا يمنع النهى المستمر ، لأن القضية ليست قضية حكم يتعلق بالتحليل والتحريم من حيث تكاليف الذمة الإنسانية، بل هو إدراك لقضية دستورية لأمة جديدة لم يزل قرآنها يترى به الوحى ، والنبوة كرياسة عليا للدولة الشابة ترى أن الدستور الذى ما زال غضاً طرياً فى حاجة إلى عناية خاصة من الأمة الإسلامية بحيث يكتمل لهذا الدستور :

١ - انفراده بأهمية الفكر الإسلامى الجديد .

٢ - انتظار كماله الذى يحدد اتجاهات الدولة وسلوك الفرد والجماعة ، وأطراف العلاقات فى داخل الأمة وفى خارجها .

٢ ــ إبقاؤه ذاتياً متميزاً بالحفظ والكتابة .

فإذا ما كتبت السنة برأى الدولة وإذنها وموافقتها ، فكأنما أعطت فرصة للفكر يتشاغل بها عن القرآن ، وهو ما زال غضاً لم تستوعبه الصدور والقلوب ، وأعطت فرصة أخرى للزمن يسجل فيه التاريخ أهمية الأمة وتشاغلها عن القرآن ، وهو أمر لا يرغب فيه رئيس الدولة « النبى » صلى الله عليه وسلم ، فقد يوهم هذا الأمر :

١ ــ اختلاط الأحاديث بالآيات فى صحف الكاتبين .

٢ ــ وقد يوهم كذلك : وحدة الدرجة فى الحفظ ، زمنا وطريقاً .

٣ ــ وقد يعطى الحديث درجة القرآن فى الحفظ فيفسد بذلك كثير من أمر العبادة ، وقد يقرأ الرجل الحديث فى الصلاة على أنه قرآن إذا اشتبه الأمر عليه ، وهو أمر لا تقر به رياسة الدولة الإسلامية كما تعرفونه مقرراً فى أبحاث الفقه الإسلامى .

وإنكم لتجدون هذا كله منصوصاً عليه فى الأحاديث التى نهت عن تدوين السنة ، إنها لم تنه عن التدوين لذاته ، بل للعلل :

يروى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا استأذنه فى كتابة السنة التى يحدث بها عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ إن نبيكم كان يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا كما كنا نحفظ .

ولو أنكم طالعتم معنا نصوص الأحاديث لوجدتموها ظاهرة فى حرصها على صيانة القرآن ، يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه .

فلما قاربت الظروف أن تهيىء للناس القدرة على إدراك قصد النبوة أذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

١ ــ لضعاف الذاكرة الذين يحرصون على حديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم ولا يمكنهم بعد الشقة من اللقاء بحضرة النبوة ، مثلما ذكرناه من حديث أبي شاه ، يوم فتح مكة .

٢ — كما أذن للمثقفين المدونين ، فقد كان عبد الله بن عمرو صحابيا حريصاً على تدوين السنة ، فكتب صحائف سماها الصادقة، فأنكر نفر من الصحابة ذلك ، فبلغ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : اكتب عني فوالذى نفسى بيده ما خرج من فى إلا حـــق .

ومع هذا الإذن : فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابة أحكام الزكاة ، ومقاديرها ، ونصابها ، كما ثبت تاريخياً أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوفد رسله إلى ملوك ورؤساء العصر يدعوهم إلى الإسلام .

فالنهى والإذن ليسا متواردين على محل يتحمل تحليلا أو تحريماً تتعلق به ذمة المكلفين ، ولكنه إدراك لأطراف قضية دستورية من جانب رئيس الدولة أعلم المتمرسين بشئون الأمة ، ورعاية مقوماتها .

وإنكم لترون أن إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى شاه ، فى كتابة السنة كان يوم فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وأن عبد الله ابن عمرو استمر فى التدوين بعد إذن الرسول صلى الله عليه وسلم له مما يدرك سره من حديث سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فقد كان يكتب ولا أكتب ، وذلك عندما خفت الظروف الداعية للنهى ، وإلا لو كان النهى ذاتيا لما سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بالكتابة لأحد مطلقاً .

ومن هنا تدركون أن الإذن الذى منحه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فردياً : أما الدولة نفسها فلم تتخذ قراراً رسمياً بتدوين السنة كما جهزت كل وسائلها لتدوين القرآن الكريم .

ومن هنا يمكن لكم أن تدركوا فقه المسألة :

مسألة النهى عن التدوين ؟

أنه حفاظ على القرآن الكريم : ذاتية ومنزلة وليس نهيا متعلقا بشىء يحلل أو يحرم .

وعلى هذا : فليس فى المسألة نسخ ، ولا خصوص ولا عموم .

٢ ـ فى عهد الصديق :

الحكومة الإسلامية الأولى بعد النبي صلى الله عليه وسلم كانت امتداداً للقيم التى تربى عليها المجتمع الإسلامى فى عصر النبوة الكريمة ، وبالإضافة إلى كونها امتداداً لعصر النبوة فقد واجهت حكومة أبى بكر رضى الله عنه عدة مشكلات :

الأولى : مشكلة المرتدين ، وملخصها : أن من القيم التى ورثها المجتمع الإسلامى عن النبوة ديناً وخلقاً الرعاية الاجتماعية وعدالة التوزيع والكفاية والعدل ، ومن القوانين الإسلامية التى شرعت لتغطية هذه القيم الزكاة ، على هذه القيم خرجت جماعة ، ورفضت تسليم حقوق المحاويج من الزكاة فماذا يكون الرأى . . . ؟ رأى الحكومة الإسلامية ما يتلوه القرآن الكريم : « خذ من أموالهم صدقة » ، فالزكاة ليست سنة وجباية ومنحة من الأغنياء ، بل إنها لحق مفروض واجب للمستحقين فى مال الله الذى وكل فيه الأغنياء بالعمل والتنمية والإنتاج .

وإذن فلا بد من تنفيذ حكم الله ، ولهذا توجهت الحكومة الإسلامية إلى إخضاع المرتدين للقانون الإسلامى .

الثانية : كان حول المدينة المنورة العاصمة الأم للحياة السياسية الإسلامية ، مجموعات من المتنبئين الذين يتربصون بالإسلام الشرور لا سيما بعد أن لحق رسوله الأمين بالرفيق الأعلى ، فكان لابد للحكومة الإسلامية من تأمين حدود الدولة ، وصد هجوم الملحدين ، لا سيما والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد جهز فى الأيام الأخيرة جيشاً حدد قائده ، وميدان قتاله ، فكان لابد من تنفيذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لابد من حماية حدود الدولة . فاتجهت الجيوش الإسلامية حسب الخطة العسكرية التى أملتها الظروف القاسية لتؤدى رسالتها نحو الله والدين والوطـــن .

الثالثة : أن كل أمة تتحرك فى حياتها بناء على دستور : يحدد أهداف القوانين وحقوق الأفراد والجماعات ويرسم طريق الدولة ورسالتها ووسائل حياتها لهدفها فى الحياة ويوضح علاقتها داخليا وخارجياً ، وقد امتازت الأمة الإسلامية بدستور معصوم هو القرآن الكريم وجدت فيه :

١ — كرامة الإنسان وحريته وإنسانيته وعزته .

٢ — واكتمل لها فيه تنظيمها كأمة كاملة: الحياة الاجتماعيةوالاقتصادية والعلمية والسياسية .

٣ — واستوضحت فيه : العقيدة كأمثل ما يريده العقل من فكر وأرفع ما يريده من استدلال .

٤ — وأحست فى تشريعه : اليسر ، والسماح ، والتخفيف ، وقبول المعذرة .

٥ — ثم رأت أنه فى عمر قصير قد بنى أمة وأسس حضارة وأعز الكيان البشرى ، وأهدى الفكر الضال . وانتقلت البشرية به من الدرك الأسفل إلى الدرجات العليا : كرامة واعتقاداً .

فكان لابد لها حكومة وشعباً أن تتحصن بالقرآن الكريم ، وكان من اول واجبات هذا التحصن الحفاظ عليه بالطريق الذى ورثته عن نبيها صلى الله عليه وسلم : حفظاً فى الصدور ، وكتابة فى الألواح ، وكانت الحروب الإسلامية قد اتسعت رقعتها ، واندمج فيها كثير من الحفاظ المجودين للقرآن ، وبطبيعة الحال كانت الشهادة أمراً محتوماً لمن جاء أجله من أولئكم الرعيل المجاهد ، فرأت الدولة الإسلامية أنها مسئولة عن الحفاظ على القرآن الكريم فجندت إمكانيتها الأمينة القوية للحفاظ على القرآن ، فكانت حكومة أبى بكر رضى الله عنه هى الحكومة التى شرفها الله بجمع القرآن الكريم ليصل السند بالإجماع المتواتر الذى يملى احترامه على التاريخ والعلم كما شاء الله ليكون

القرآن وحده الدستور الديني المعصوم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لهـذا : لم تكن الظروف التى واجهتها الخلافة الإسلامية الأولى تساعد على أن تتجه الدولة لتدوين السنة تدويناً رسمياً ومع هذا فإن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه يجمع ٥٠٠ خمسمائة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الرجل تهيأ له المخاوف الأولى التى أحاطت بالسنة وقت نزول القرآن ، وأحس بالتشابه بين بدء حركة جمع القرآن وبدء نزوله ، لا سيما وقد دخل فى الإسلام أقوام لا يحسنون الضاد وإعرابها . فينثنى عن إتمام مشروعه ، ويحرق الصحائف التى كتب فيها الحديث .

يقول صاحب تذكرة الحفاظ وهو يروى عن عائشة رضى الله عنها تقول : « جمع أبى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيراً ، قالت : فغمنى ذلك ، فقلت : أتتقلب لشكوى أو لشىء بلغك ؟ فلما أصبح قال : أى بنية : هلمى بالأحاديث التى عندنا ، فجئته بها فدعا بنار فحرقها ، فقلت : لم حرقتها ؟ قال : خشيت أن أموت وهى عندى فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به ، ولم يكن كما حدثنى ، فأكون قد نقلت ذلك .

فالرجل العظيم لم يمنعه من تدوين السنة إلا : إيهام أن يكون حال أحد الرواة فى المستقبل قد يكون غير مأمون فإذا نسبت الرواية إلى سيدنا أبى بكر استوثقت الأمة من الرواية لما تعرفه من مكانته العليا عند النبوة ، وهم يحفظون أو يقرءون فى السنة : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح .

فالرواية عن الرجل لا تحتمل أدنى شك فخاف أبو بكر على نفسه ومنزلته ودينه أن يروى حديثاً تثق فيه الأمة وربما يكون فيه أحد الرواة مجهول الحال أو مضعف الثقة ، فيتحمل معه سيدنا أبو بكر مسئولية

لا يرضاها له التاريخ والخلق والدين ، فأحجم الرجل بعد أن كتب صحائفه وحرقها .

وهنا أحب أن أوضح لكم : مع ما سلف أن هذا الموقف لا يرتبط بمنزلة السنة فى مصدريتها للتشريع لأننا نجد سيدنا أبا بكر رضى الله عنه يعمل بالسنة ويأخذ بتشريعها على نحو ما سلف ، ومثلما يرويه ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث . . . إلـــخ الروايـــة .

إذ كونها مصدراً للتشريع يثبته عمل الصحابة بها ، وعدم تدوينها لا يتنافى مع ذلك للعلة التى شرحناها ووضحنا غايتها سالفا (١) .

٣ — فى عهد الفاروق :

الزعامة فى مفهومها الواضح القدرة على تحقيق رسالة الأمة حسب أهدافها التى حددها الدستور . . . فليست الزعامة رأياً شخصياً تقدم له الفضائل قرباناً ، وليست الزعامة تسلطاً يبدد الأمن من قلوب أهل الشورى المتخصصين فى العلم والسياسة ، والاجتماع . . . إلخ ، إنما الزعامة قبول آراء المتخصصين حول تحقيق رسالة الأمة وتوجيهها حسب البصيرة ، وفقه الدستور المعصوم — القرآن الكريم — يقول الله تعالى : «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله»(٢) ، بهذا الروح كان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يحدد للسياسة مفهوم الزعامة فى العمل البناء لخدمة الوطن بالدين .

وخدمة الوطن فى المفهوم الدينى الإسلامى ربط سلوك الأمة فى التصرفات المستحدثه الجديدة ، بنظم القرآن : الدستور المعصوم المستمر على مثال سلوك الأوائل من الرعيل الإسلامى ع أيام الخلافة الإسلامية تنفيذا للنص الدستورى

---

(١) راجع هذا الموضوع فى أول الكتاب .

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (١) ، وهى عملية شاقة ودقيقة تحتـــاج إلى :

- صيانة الدستور .
- وربط سلوك الأمـــة بـــه .
- وسلامة التثقيف والتفكير .
- ومراقبة العلاقات داخل المجتمع وخارجه .

ولم يعرف التاريخ السياسى مثل عمر بن الخطاب رجلا استطاع أن يربط الأمة بدستورها ، ويراقب سلوك الشعب ، ويحافظ على سلامة التربية والتفكير ، ويتحسس كنه العلاقات بين الناس ، مع القدرة العسكرية على توسيع امبراطورية الإسلام ، شرقاً وغرباً ، حتى بلغت الدولة حدوداً بعيدة ، وهو أخذ بحجز الفرد والجماعة ، ينئيهم عن الخطـــأ ويجنبهم الانحراف ويجافى بينهم وبين المعاصى ، ويدلهم على الصراط المستقيم ، ويقيم العدل ، ويدربهم على الرحمة ، ويملى عليهم الحنان ؛ ويجبرهم على الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

وأن الفاروق عمر بن الخطاب مع درجته فى العقيدة والدراية بأصول التشريع ، وإحساسه بحاجة المجتمع ، وقدرته على التصرف العادل ليحفظ له التاريخ موقفين :

الأول : تجـــاه القرآن .   الثانى : تجـــاه السنة .

أما موقفه تجاه القرآن فقد طالعناه معا فى دراستنا لعلوم القرآن وفيها استوضحنا عزيمة الفاروق الصادقة وحجته التى شرح الله بها صدر أبى بكر ، فجمع القرآن الكريم ، وكان عمر المراقب العام لعملية الجمع وهى وظيفة لها خطرها فى عدم افتراض وجود رجل يطعن فى حفظه وعدالته إذ لا لا يقوى واحد من الناس أن يجرؤ ويدخل اللجنة وعمر أمام باب المسجد

---

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء .

وهو ذو منهج معروف للقاصى والدانى والبعيد والقريب ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يرحم فى الدين متهوكاً أو منافقاً ، ولذلك فقد تواتر القرآن فى سلسلة ماسية من الثقة والطهر والأمانة والإجماع المنقطع النظير .

وأما موقفه تجاه السنة : فيوضح خطوط العمل الزعامى ، الذى يستشير ويدقق فى حرص على مصلحة الوطن بالدين ، وحماية الدين من العواطف العميـــاء :

١ — ذلك أن عمر بن الخطاب فيما يرويه السيوطى فى كتابه تنوير الحوالك : أراد أن يكتب السنة فاستشار أصحابه ولكنه بعد الفحص شهراً يتردد ويرفض ، وقد أخرج الهروى ، قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة واستشار فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك فلبث شهراً . . يستخير الله فى ذلك شاكا فيه ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت ذكرت لكم من كتاب السنة ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء . .

ومن هنا تستوضحون أمرين :

أحدهما : أن السنة لم تدون لفهم عمر بن الخطاب أن التدوين منهى عنه ، كلا : بل لعلة أساسية هى : إبعاد الأمة الإسلامية عن الخطأ الأثيم الذى ارتكبه أهل الكتاب من قبل بتبديل كتاب الله : التوراة ، والإنجيـــل بوصيات الرسل وجعلوها هى الكتب المنزلـــة .

كذلك تمكينا للدستور المعصوم — القرآن — فى حياة المسلمين تمكيناً بالحفظ ، والعمل ، والاتباع .

وثانيهما : أن سيدنا عمر رضى الله عنه لم يتلذذ صواب الفكرة الأولى له وهى جمع القرآن فيعجب بنفسه ويستمر فى خلق آراء وأفكار باسم

العمل الدينى ، ليجود لنفسه تاريخياً : لأنه يدرك أن الزعامة استخلاص رأى الشورى، وتوجيههم باسم الله ، والقرآن ، من أجل أن تحقق الأمة الإسلامية رسالتها وأهدافها ، وهو أمر من شأنه التبصر والتروى ، ومناقشة المضاعفات ، وما عسى أن يجد من مشكلات ، وهو لهذا خشى أن يدون السنة فيكب عليها المسلمون ويتركوا القرآن فيتشبهون بأهل الكتاب مع وجود الفارق الأساسى أن المسلمين يفرقون بين القرآن والسنة ، ويدركون أسلوب القرآن من أسلوب السنة ، وأنهم يقرءون القرآن على أنه قرآن ، ويقرءون السنة على أنها سنة، وأنهم لم يرتكبوا فيها جناية مثلما ارتكب اليهود والنصارى ،تركوا كتاب الله ، وبدلوه بكلامهم ، ولكنه الحذر والاحتراس الذى يستبصره الرئيس الأمين دائماً .

أنه افتراض مع الفارق الذى يدركه سيدنا عمر ولكنه يخشى وقوع الأمة الإسلامية فى شبهة التشبه بأهل الكتاب إن هم تركوا القرآن لقراءة السنة فهو لهذا يمتنع بعد شهر من الاستشارة والاستخارة عن التدوين .

٢ — وتدركون هذا النهى جلياً فى حرصه على التمكين للقرآن من حياة المسلمين فيما يوجهه من الأوامر إلى قرظة بن كعب عندما سيره إلى العراق ، قال عمر : أترون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم مكرمة لنا ، قال : ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ،جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم .

وبذلك تدركون حرص الفاروق على استمرار العناية بالقرآن الكريم وربط حياة المسلمين به ، وتمييز السنة عن القرآن ، وخوف تشبه المسلمين بأهل الكتاب فى تركهم كتاب الله .

ولكن الله ادخر نية عمر فى ذريته فلسوف تنال السنة من أحفاد ابن الخطاب مجهوداً أميناً فتشرف الأسرة بأنها الأمينة على القرآن والسنة .

٤ ـ فى عهد معاوية :

كان اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول حلقة من المخطط الإلحادى دبر ضياع الأمة الإسلامية كخطوة للقضاء على الإسلام ، ومن بعدها تلاحقت الأحداث ، وكانت الحلقة الثانية اغتيال الخليفة الورع ذى النورين سيدنا عثمان بن عفان ، فتلاحقت الأحداث فى سرعة مستعجلة ، وركب الشيطان القلوب ، والعقول، ونسى الناس حرمة الدين ، والوطن، والجماعة ، فنشبت حروب طاحنة بين على ومعاوية كان من نتائجها :

١ ـ اغتيال الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه غدراً ، وظلماً ، وجهلا ، وفجوراً .

٢ ـ وتفريق الأمة إلى أحزاب : لم تدخر وسعاً فى توسيع هوة الخلاف ، حتى ركبت الصعب والفسوق فألفت لمبادئها من الكذب كلاماً ادعته شطراً من السنة الإسلامية .

و إذن فالمجتمع من الناحية السياسية : قد تشتت مبادئه وابتعد عن الدستور المعصوم واتبع كل صاحب رأى هواه .

ومن الناحية الثانية فقد أصبح للفكر الخاص مذهب :

١ ـ أصحاب الملك المتغلبون وهم الأمويون : لهم رأيهم فى الحكم .

٢ ـ الأحزاب : الخوارج والشيعة ، وكل المشتغلين بالعمل الحزبى والسياسى لهم آراء فاسدة أخرجتهم من الاتزان إلى الاعتداء على السنة ، والتفسير ، والصحابة . والعلماء . . . إلــخ .

٣ ـ العادلون من الصحابة الذين تفرقوا فى الأمصار يحدثون الناس بالحق من سنة النبى صلى الله عليه وسلم ويوجهون العقول والقلوب إلى الصدق ، والحق ، والدين السليم .

(ا) أما الأمويون :

فقد شغلهم تمكين ملكهم ، واستتباب الأمن فوجهوا جهودهم إلى الإدارة وضبط الأمر ومحاربة الخصوم بالسلاح ، أو بالمال ، ولم تكن لهم صلة بالعمل فى الحديث ، وإن كان كلاب البلاط قد تبرعوا بوضع أحاديث تدور حول البيت الأموى .

(ب) أما الأحزاب :

فقد فكت عقال الذمة من الدين وركبوا جواد الكذب فى مسابقة الهوى والضلال ، فأحدثوا من الكلام الكذب أساليب تنصر مذاهبهم ، وتؤيد باطلهم ، وأرادوا أن يلصقوها بالسنة ، وليس أدل على كذبها من وجودها بعد الفتنة وانقطاع سندها من أصحاب الأمر الذين يدعون التشيع أو التخريب أو النصرة لهم .

وقد أخذت العلاقات الثقافية بين الأحزاب شوطاً طويلا من الضلالة والغى ، والاتهامات ، والأكاذيب ، والاعتداء ، ما أخجل التاريخ وأثقل الهم على الخلق .

ولم يكن للأمويين علاقة فى هذا السباق لأن همهم متوجه إلى تثبيت الحكم ، وتملك زمام الأمور . ولكن العلاقة بين الأمويين وهذه الأحزاب كانت معارك حرب وجلاد ، وقتال ، فشرد الجيش الأموى الخوارج ، مثلما شردهم على نفسه ، وأذلوا جيش الشيعة .

وفى وسط هذه الظواهر ترون جهل المستشرق اليهودى جولد ، إذ يفهم العلاقات السياسية الحزبية بين الأمويين ، والأحزاب ، أن الدولة الأموية اضطهدت علماء الحديث ، وهو جهل فاضح :

— بحقيقة الوقائع التاريخية .

— وبمن هم علماء السنة والحديث. كما ترون افتراءه إذ يدعى أن معاوية يضغط على العلماء لينصروا آراءه بوضع الحديث ، ويستدل على رأيه بزيادة معاوية فى درجات المنبر ، وهو جهل كبير :

– بحقيقة الإسلام ، ونظمه ، وطبيعته ، لأن المنبر ليس جزءاً من الدين.

– وكذب على التاريخ الذى يحمل حديثاً واحداً وضع لنصرة معاوية الذى اتخذ له منهجاً خاصاً فى معاملة الخصوم « إنى لا أضع السيف حيث يجدى المال » و « إذا كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، فإن هم شدوا أرخيت ، وإن هم أرخوا شددت » .

وليس أدل على جهل جولد وافترائه من واقعة معاوية مع زيد بن ثابت فقد دخل على معاوية يوماً : فسأله عن حديث ، ولما حدث به زيد أمر معاوية إنساناً أن يكتبه ، فقال له زيد : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا ألا نكتب شيئاً من حديثه ، فمحـــاه .

ولهـــذا :

١ – لشغل معاوية بتثبيت أركان الدولة الجديدة التى ولدتها الحروب والخلافات .

٢ – لزحمة الفكر بالمجون من الجهـــلاء والماجنـــين .

لهذا لم يتمكن معاوية من جمع السنة ، بل : إنه لم يتوجه إلى فكرة تدوينها رسمياً لا سيما وقد أذعن لرأى زيد بن ثابت فى عدم تدوين الحديث .

(ج) وأما العلماء الثقات :

من الصحابة فقد انتشروا فى البلاد والأمصار انتشار اللؤلؤ ، وتوزعوا فى المدن والأصقاع توزيع النجوم فى بساط السماء ، وكان ذلك من حكمة الله ، ومعونته ليبلغوا السنة الصحيحة للناس ليميزوا الحق الأبلج من الباطل اللجلج وليسمع الناس لسان السنة الفصيح ليتعرفوا على هراء الوضع الأخرس .

فكانت هناك مدارس الحديث تنير الطريق وتهدى السبيل وتبين الحق وتنصره وتزهق الباطل وتدمغه .

وقد امتازت مدارس الحديث فى هذه المرحلة الشاقة أن شيوخها هم المصادر الوثيقة الذين اكتمل فيهم الطهر والأمانة ، والإخلاص لأنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاميذ أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم .

مدارس الحديث

وقد كانت هذه المدارس موزعة كالآتى :

١ ـ مدرسة المدينة :

أشهر علمائها :

١ ـ أبو هريرة رضى الله عنه (١) .
٢ ـ عبد الله بن عمرو رضى الله عنه .
٣ ـ أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه .
٤ ـ زيد بن ثابت رضى الله عنه .

ومن أشهر تلاميذها :

١ ـ عروة بن الزبير .
٢ ـ سعيد بن المسيب .
٣ ـ ابن شهاب الزهرى رضى الله عنه .

٢ ـ مدرسة مكة :

ومن أشهر علمائها :

١ ـ عبد الله بن عباس رضى الله عنه .

وقد تخرج على يديه كثير من العلماء من أشهرهم :

---

(١) لما بعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى إلى أمير البحرين : المنذر بن ساوى أرسل معه أبا هريرة وأوصاه به خيراً .

يقول أبو هريرة : بعثنى الرسول صلى الله عليه وسلم مع العلاء بن الحضرمى وأوصاه بى خيراً فلما فصلنا قال لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوصانى بك خيراً فانظر ماذا تحب؟ قلت : تجعلنى أؤذن لك ، والعلاء أخو الصعبة أم طلحة .

١ — مجاهد بن جبير :

٢ — عطـــاء بن أبى ربـــاح .

٣ — مدرسة الكوفة :

ومن أشهر علمائها : عبد الله بن مسعود ه

وقد تخرج عليه جمهور غفير من التابعين ، منهم :

١ — الأسود بن يزيد النخعى .

٢ — شريح بن الحارث الكندى .

٤ — مدرسة البصرة :

ومن أجل علمائها : أنس بن مالك رضى الله عنه ، وعلى يديه تخرج وفد من التابعين منهم :

١ — الحسن البصرى ٢ — محمد بن سيرين .

٥ — مدرسة الشام :

وهى المدرسة التى لم يستقر لها شيخ خاص ، بل كانت ملتقى العلماء الثقات الغادين والرائحين لأنها وجدت فى مدينة السلطة والحكم ، فكان يفد عليها أو يلتقى فيها شيوخ أجلاء منهم :

١ — معاذ بن جبل بعد أن رجع من اليمن .

٢ — عبادة بن الصامت .

٢ — شريح بن حسنة .

٤ — زيد بن ثابت .

ومن أشهر المتخرجين فى هذه المدرسة :

١ — رجاء بن حيـــوة (٢) مكحول بن أبى مسلم .

٣ — وأبو إدريس الخولانى .

٦ – مدرسة مصر :

وقد امتازت مدرسة مصر بأن شيوخها من ذوى النشاط السياسى ، وكان من أعلم علمائها :

١ – عبد الله بن عمرو بن العاص « صاحب الصادقة » وقد اجتمع فى هذه المدرسة أكثر من مائة وأربعين صحابياً : تخرج على أيديهم عدد كبير من التابعين ، من رؤسائهم :

١ – مرثد بن عبد الله . ٢ – يزيد بن أبى حبيب .

بهذا الانتشار المدرسى المعلم للسنة الحقة الصافية ينتهى الدور الأول من تدوين السنة ، بما عند الناس من سنة محفوظة فى الصدور أو تدوين خاص ، مثل الصادقة ، وصفحات أبى شاه ،ولم تحظ هذه الفترة ، كما أنها لم تساعد على أن تدون السنة تدويناً رسمياً مثلما دون القرآن الكريم .

وإن كنا نلاحظ فى هذه الفترة :

١ – أن التدوين للسنة أمر لا يتعلق بالتحليل ولا التحريم ، ولا بقيمتها التشريعية .

٢ – وأن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جائز بشروطه .

٣ – وأن الوضع فى الحديث لم يظهر إلا بعد الفتنة والافتراق

٤ – وأن المدن والأمصار تشرفت بمدارس الصحابة الذين تفرقوا يعلمون الناس سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ – وأن الأعمال السياسية والشغب المذهبي ألهى نظر الدولة الأموية عن فكرة تدوين السنة .

٦ – وأن المجتمع الإسلامى بات فى حياته الثقافية أحد رجلين :

(ا) تلميذ لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف السنة الحقة السليمة .

(ب) كاذب واضع مفتر متمذهب متهاون فى رعاية حقوق الله .

فأذنت نهاية هذا الشوط بحركة بعث يبتدىء بها فجر المرحلة الثانية من تاريخ السنة ، والله وحده الذى يقدر ويهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

تدوين السنة فى الطور الثانى

تابعو التابعين

التدوين الرسمى الأول :

فى أخريات الحكم الأموى اتصفت الحياة بشىء من الهدوء السياسى ، والركود الحزبى ، وفتح الله بركاته على الناس فأرغدوا ، وامتلأت الخزانات العامة بالخير ، وإذا امتلأت البطون نامت العيون، وإذا عشق الناس الترف أحبوا الراحة والعافية والسلامة ، فلم يصخب المجتمع بالإفك السياسى الذى تولى كبره : الخوارج ، والشيعة ، ولا ضج بمقالات السوء التى باء بها الآثمون، ولكأنما كان رواد الفضيلة من الصحابة وتلاميذهم فى الماضى أضواء الحياة فى ذلك العصر ، لا سيما ورئيس الدولة شاب اكتملت عنده حسن العبادة مع هدوء الدولة ، ورخاء المعيشة ، ولكأنما المواريث البيئية الدموية قد نقلت إلى عمر بن عبد العزيز الشاب الورع نية جده لأمه عمر بن الخطاب نحو تدوين السنة ، فأحس الخليفة العادل برغبة ملحة أن تتولى الدولة تدوين السنة رسمياً ، فأرسل إلى أبى بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة يقول له : انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فإنى خفت درس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً ، ووجهه فى خطابه إلى أن يدون الأحاديث التى عند :

- القاسم بن محمد بن أبى بكـــر .
- عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية .

ويقول العلماء : إن عمر بن عبد العزيز لم يكتف بهذا ، بل كتب إلى الآفاق كلها ، فيروى أبو نعيم فى تاريخ أصبهان الحديث السالف بلفظ :

« كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . . . الـخ ».

ويميل إلى هذه الرواية الدكتور السباعي فيقول : « والذى يظهر أنه لم يخص ابن حزم بهذا الفعل الجليل بل أرسل إلى ولاته فى الأمصار كلها ، وكبار العلماء فيها يطلب منهم مثل هذا »ا . هـ بتصرف فى الأسلوب ، وكل الذى قام به أبو بكر بن حزم أنه دون ما عند القاسم بن أبى بكر ، وما عند عمرة الأنصارية ، ولكنه لم يستوعب كل ما عند أهل المدينة من أحاديث .

ويذكر فضيلة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه : « تاريخ الفقه الإسلامى » أن الكتب التى دونها أبو بكر بن حزم لم يبعث بها إلى عمر بن عبد العزيز ، وقد توفى الخليفة ولما تصل إليه ، وكأنه يشير إلى ذلك الخلاف بين العلماء فى أول من دون السنة ، بأمر عمر بن عبد العزيز ، هل هو : أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم أو : الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ؟

ابن حجر يرى أن أول من دون الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز هو ابن شهاب الزهرى فيما ينقله السيوطى فى كتابه « تنوير الحوالك على موطأ مالك » ، وإلى هذا الرأى يميل الدكتور السباعى فيقول : والذى يظهر أن ابن حزم كتب لعمر شيئاً من السنة فقد أنفذ إليه ما عند عمرة ، والقاسم ، ولكنه لم يدون كل ما فى كتب المدينة من سنة وأثر ، وإنما فعل هذا الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى الذى كان علماً خفاقاً من أعلام السنة فى عصره ، والذى كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن يذهبوا إليه لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه .

وسواء لدينا كان أول من دون السنة بأمر عمر بن عبد العزيز هو ابن حزم أو ابن شهاب فإن المهم هو :

ـ أن الدولة الإسلامية توجهت إلى تدوين السنة رسمياً فى ظل خليفة ورع ،

ووجهت لذلك كتاباً رسمياً يقول فيه : . . . . . والذى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنن التى لم تدع شيئاً من دينكم ولا من دنياكم نعمة عظيمة ، وحق واجب فى شكر الله كما هداكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فليس لأحد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ولا رأى ، وأن الذى حرضنى على أن أحملكم عليه من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هو حجتى فى الدنيا ، وبغيتى فيما بعد الموت ، فلا تلبسوا ذلك بغيره .

* أن الأثر الذى ظهر ، كان للإمام محمد بن مسلم الزهرى ، وإن كان التاريخ يحفظ صورة الأمر الذى وجه لأبى بكر بن حزم ونشاطه فى الجمع داخل المدينة . بيد أن العمل المحيط العام الذى ورثته الثقافة الإسلامية كان للإمام الزهرى ، ولكليهما دعاء طاهر أن يجزل الله لهما العطاء بقدر ما خدما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيا شطراً أصيلا من مصدرى التشريع الإسلامى .

وهكذا شاء الله تعالى ، وهيأ الظروف النفسية ، والعلمية ، والسياسية ، والأخلاقية لمولد تدوين السنة تدويناً رسمياً ترعاه الدولة الإسلامية وتحث عليه وتجند له عساكرها ، وقواها .

ولئن كان هذا المولد قد جاء متأخراً فقد صادف ظرفه الهادى وطابق عمره عمر البارحة وشيخه أئمة الأمس فالخليفة ولد عمر بن الخطاب .

والزهرى تلميذ مدرسة المدينة : شيوخها عبد الله بن عمر وزيد ابن ثابت ، وصحابة أفذاذ لهم باع طويل فى العلم والحديث والورع ، وبهذا التدوين الرسمى أذن للذين فى قلوبهم إيمان راسخ وعقيدة قوية أن يلجوا الباب ، وأن يدلوا بدلائهم ، وأن يقدموا لله ورسوله ما استطاعوا إليه سبيلا فإن الجهاد بالقلم واللسان حق واجب على العلماء كما أن الجهاد بالسيف والمدفع واجب على الجنود فى القوات المسلحة .

التدوين العــام :

ثم انتقلت إلى الأمة شعبياً حماسة تدوين السنة بعد أن فتحت الدولة رسمياً باب الإذن بالتدوين فحفل هذا الجزء من تلك المرحلة بكتيبة من العلماء الأفذاذ : خلقاً ، وديناً ، وعلماً ، وغدت غدوتها فى سبيل الله لجمع أحاديث النبوة الكريمة ، صافية من منابعها وطرقها ورجالها الأمناء ، وكان فى مقدمة تلكم الطليعة :

١ — عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج م ١٥٠ هـ فى مكة
٢ — ابن إسحاق م ١٥١ هـ فى مكة
٣ — سفيان الثورى م ١٦١ هـ الكوفة
٤ — حماد بن سلمة م ١٧٦ هـ البصرة
٥ — سعيد بن أبى عروة م ١٥٦ البصرة والمدينة
٦ — عبد الرحمن أبو عمرو الأوزاعى م ١٥٦ هـ الشام
٧ — معمر بن راشد م ١٥٣ هـ اليمن
٨ — جرير بن عبد الحميد م ١٨٨ هـ الرى
٩ — هشيم بن بشير م ١٨٨ هـ واسط
١٠ — عبد الله بن المبارك م ١٨١ هـ خراسان
١١ — الربيع بن صبيح م ١٦٠ هـ —

التدوين الرسمى الثانى :

وفى تلك المعركة العلمية المتعاونة تدخلت الدولة وكلف أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس أن يكتب كتاباً يوطىء للناس سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع الإمام كتاب الموطأ فى أربعين عاماً وهو فى مقدمة الآثار الباقية لنا من جهود هذه الحركة الميمونة المباركة .

منهج التدوين فى هذه المرحلة :

ويعتبر موطأ الإمام مالك صورة حية للطريقة التى اتبعها العلماء فى هذه المرحلة من تدوين السنة فقد التزموا بهذه الخطوات :

١ – تبويب الحديث حسب الموضوعات : الصلاة ، والزكاة . . إلخ

٢ – جمع الحديث مع أقوال الصحابة رضى الله عنه مع مأثورات التابعين

٣ – وضع مجموعة من الأبواب فى مؤلف واحد .

٤ – وزاد الإمام مالك :

(ا) اجتهاده الفقهى فى أحكام بعض المسائل .

(ب) وشرحه لبعض المفردات ، أو الجمـــل .

(جـ) النص على عمل أهل المدينة فى الأبواب التى فيها أحاديث الآحاد ، وبمقدار ما منح الله من الجهود ، وما أفاض من الفتح لم يدخر العلماء فى هذه المرحلة وسعاً لم يبذلوه فى خدمة السنة، فقد شمروا عن سواعد الجد، والنية مخلصة، والعزم أكيد، والحرص ملح على الدقة والجودة، فقدموا مواريث السنة كلها فى أمانة إلى أجيال المسلمين ليحفظوا على رعيلهم الأول :

١ – أحاديث النبى الكريم .

٢ – آراء الصحابة الأجلاء .

٣ – آثار التابعين الأمناء .

فنقلوا بهذا خبرة أجيال وأصول علم عارم ، ومواثيق حضارة إنسانية كانت لمن بعدهم ذخيرة ونورا وعلما ، وحياة .

تدوين السنة فى الطور الثالث

عصر الازدهار

ورث جيل القرن الثالث الهجرى مواريث الأجيال الماضية من مصادر أمينة ، ذات منهج وقواعد فى أعمالها حسب الطاقة والقدرة ، فوجهها إيمانها أو شاء الله لها أن تقدم عملا جليلا تنفرد به السنة عن تفسيرات ومأثورات الصحابة والتابعين ، فوجهوا عقولهم وقلوبهم شطر السنة مخلصين جادين فوضعت اللوائح والأهداف ، حتى ورث تاريخ السنة فى هذه المرحلة طاقات هائلة من العمل الذى ازدهرت فيه السنة :

١ — لها مقدمة : هى المسانيد .

٢ — وقمة : هى الجامع الصحيح .

٣ — وموسوعات : هى السنن .

مقدمة الازدهار

عصر المسانيد :

وهكذا شاءت العناية الإلهية أن تيسر للسنة أجواء وآفاقا عليا تظهر حقيقتها وتقطع لسان المتشدقين بالتضليل والتأويل، والكذب عمداً أو جهلا ، أو ارتزاقاً .

والله يهيء لدينه دائماً من يجاهد مخلصاً يهب حياته بقضها وقضيضها، ونفيسها لدينه لا طلباً فى مجد ولا ابتغاء مركز ، وإنما حسبة لله ولرسوله ومن يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له والله ذو الفضل العظيم، فقد تعامل مع الأجود الأكرم ، فأسمعوا الدنيا ، من قلب حلقات العلم :

١ — أصول البحث العلمى .

٢ — منطق العلم الهادف للخير :

٣ — وقواعد العمل البناء للدين والخلق والحياة .

مع : إنكار الذات ، وإخلاص النية ، ودقة العمل ، وتنازل عن المطالب .

ومع رغبة صادقة فى الحق ، لذاته ، وعاطفة متزنة نحو حماية التراث الحضارى الأول للبشرية ،وغاية ما يسعدهم من أمل أن يكونوا مع الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » فإنهم يدركون من دينهم : أن غاية ما يأمله المجاهدون من درجة هى أن ينالوا رضوان الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) : فإنهم يرددون حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)« من حفظ على أمتى أربعين حديثاً فى شئون دينها ودنياها بعث يوم القيامة أمة وحده »

وإذا كانت السمة الثقافية للمسلمين قد أراد أن يشوبها المجرمون بالكذب المفترى ، فإن جهود العلماء كانت أكبر من محاولات المنافقين وإنكم لو تعرفون الانفعالات النفسية للخونة ، والمجرمين قبل ارتكاب الجريمة وبعدها ، لأدركتم أن أوهن ما تكون القوة ضعفاً ، وأجهل ما يكون الفرد غباء ، عندما يحصر عقله فى مقومات فعله الإجرامى ، إن قوته لأوهى من احتمال الشعرة البيضاء فى رأس العجوز الهرم بين أصبعى بطل مغوار عالمى ينتزعها فى خفة النسيم الرقيق فلا يدرى ما هنه ؟ كذلك أمر الآثمين المفترين ،يجابهه فى صرامة قوية بالذكاء ، والمنهج والنية ، علماؤنا الأفذاذ فيظهر للعلم والحق والتاريخ أن نتائج افترائهم ذرات صدأ بين كتل الماس الأصيل .

ولقد وجد علماء القرن الثالث جهوداً مباركة من علماء القرون السابقة فيما دونوه من السنة وما حولها من شرح الصحابة ومأثورات التابعين فعقدوا

النية على إبراز ذاتية السنة ، وجعلها وحدها فى مكانها الكريم وكان من أول المتقدمين لهذا العمـــل :

١ – عبد الله بن موسى العبسى الكوفى .

٢ – مسدد البصرى .

٣ – أسد بن موسى .

٤ – نعيم بن حماد الخزاعى .

وعلى أثر هذه الطليعة اقتفى الأثـــر :

١ – إسحاق بن راهويه . ٢ – عثمان بن أبى شيبة .

٣ – الإمام أحمد حنبل : وهو وحده الذى وصلتنا آثاره فى المسند .

منهج التدوين فى هذه المرحلة :

كان عزم علماء هذه المرحلة متوجها إلى : إفراز السنة من كلام الصحابة والتابعين ، ولذلك فقط التزموا بتلك الخطوات :

١ – جمع الحديث بشروطهم الخاصة .

٢ – فصل الحديث عن كل ما عداه .

٣ – تقبل الحديث بدرجاته مع عدم الفصل .

٤ – تدوين الأحاديث التى رواها صحابى معين فى مسند خاص به مثلا : الأحاديث التى رواها أبو بكر رضى الله عنه تجمع كلها فى مسند واحد ، ولا فرق بين أحاديث الصلاة والزكاة وغيرها كل المرويات .. الخ

ولهذا سميت كتبهم مسانيد لأنها اتبعت فى التدوين طريق الراوى تسند إليه كل مروياته دون نظر للأبواب ، كما كان الأمر فى الحلقة الثانية السابقة .

والسبب فى هذا : أن علماء العصر الثانى كانوا فى حاجة إلى الأحكام الفقهية فأثبتوها مع السنة لتطالع معها ،أما العصر الثالث فهو فى حاجة إلى تمييز السنة من فتاوى العلماء وتفسير الصحابة لاتساع مدارس الفقه ووجود

الفقهاء المجتهدين . فهو عمل طبيعى سيرته حوادث الحياة ، والعلم يخدم الحياة ويوجهها وعلماء الإسلام فطنون فالتزموا فى عملهم بمقتضيات الزمن وحاجات العصر ، فنهجوا فى التدوين الطريق الأمثل الذى يغذى الحياة مع الحفاظ على سلوك المجتمع فى اتصاله بالسلوك الإسلامى الأول ، دون ما تغيير أو تبديل فى الحكم أو فى توجيه القضايا ، لأن الأمة المسلمة : ديناً ، يجب أن لا تخضع لغير القرآن دستوراً وللسنة الإسلامية تفسيراً ، فبهما إذا أخذت الأمة فلن تضل من بعد نبيها أبداً .

قمة الازدهار
عصر الجامع الصحيح

قدم السابقون من أصحاب السنن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدونة تدويناً شاملا عاماً ، لم يتضح فيه الصحيح من غيره لغير المتخصصين من أئمة الشأن ، ولذلك وجه الله — وهو المستعان — فكر الشباب المتدين الطموح للعلا فى الدين ، المجاهد فى الدين بالحياة كلها — إلى تهذيب السنة وتنقيتها ، وتجريدها مما يظن عالقاً بها من آثار النقع الذى اصطلى فيه الجو الفكرى فى المرحلة التى منيت بها الأمة من أمراض سياسية وضعف فى الدين ووهن فى العقائد ، فشمروا عن سواعد الجد وهم فى نعومة أظفارهم قبل أن يطر الشارب وخفوا سراعاً للجهاد فى سبيل الله .

١ — وكان فى مقدمة الركاب الصاعد المجاهد الشاب الأريب التقى محمد بن إسماعيل البخارى ، حدث فى العاشرة من عمره يتوقد ذكاء ، وحصافة وطموحاً ، ومع هذا كله عزم مخلص لله ، ونية صافية نحـــو الدين ، وقدرة استعذبت الجهد فى سبيل السنة الإسلامية فأخذ الشاب فى فجر عمره بألمعيته الوقادة يفحص الحديث وينقب عن الإسناد ، ويفتش عن الرجال ، ليقدم للذمة العلمية والتاريخ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبها الذاتى ، فنظر الرجل العالم وقدر ووضع المنهج الدقيق والشروط المتينة :

١ — معاصرة الراوى لمن يروى عنه .
٢ — ثبوت اللقـــاء به .
٣ — وثبوت التحدث والسماع منه .
٤ — عدالة الراوى وضبطه .

وفى عمر طويل أمضاه الشيخ الشاب فى عبادة الله أتم جامعة الصحيح

للسنة ، وما زال حتى يومنا هذا وسوف يزال دائماً الكتاب الذى ارتضاه الله للمسلمين مصدراً أساسياً لسنة نبيهم الكريم وموئـلا أميناً للصحيح من الحديث النبوى الشريف .

٢ — ويرث عن البخارى صفة التقوى وخدمة الدين والتحمس للحفاظ على السنة تلميذ بار ذكى ألمعى واضح الفهم دقيق التعبير منظم الفكرة هو الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى الذى ألف جامعه الصحيح وأبدع فيه تنسيقاً وتبويباً احتل مكانة كبيرة عند العلماء وكان جامعه فى المرتبة التى تلى الجامع الصحيح لشيخه البخارى . ولئن بدا بين الشيخ وتلميذه فارق فى المنهج من حيث الدقة والتساهل فيكتفى مسلم بالمعاصرة دون بقية الشروط التى قعدها شيخه ، فإنما ذلك يرجع إلى علة نفسية هى أن الإمام البخارى كان إمام تراث عام لم يستوضح فيه العقل الحسن والصحيح من غيرهما ، وقديماً لج المجتمع بأمهات الأكاذيب التى تحتاج إلى الكشف عن الحقائق والبصائر فشدد وأكد الشرط وقوى العقدة ، أما الإمام مسلم فقد وجد فى جو استقرت فيه الثقة ووجد فيه المصدر الأمين « جامع البخارى » فأحس بالأمان والطمأنينة لا سيما وقد زالت أسباب الفتنة وملئت الأسماع بالتقعيد لحال الرجال ، وبثت السنة فى الأمصار انبثاث الماء المنهمر من المزن الثقال ، فسهل ، وقلل .

وإنكم لتدركون هذا من مقارنة حالين لتلميذين :

أحدهما : يثق فى شيخه ، ويتمسك به ثم يسمعه يقول : « لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » فيحس من أعماقه أن شيخه ما زال يرى للسنة مكاناً أرفع يجب أن تتبوأه فى التدوين بعيداً عن عبث الجاهلين وتعلم الكاذبين ، ذلكم أمر البخارى مع شيخه إسحاق بن راهويه ، فكان لابد أن يتشدد .

وثانيهما : يتتلمذ على يد شيخ مستقر قرير العين مطمئن إلى ما وصلت إليه السنة من رفعة وازدهار فيرى لنفسه مكاناً آخر هو التفقه فى التبويب

وإختصار السند المكرر وذلكم أمر الإمام مسلم مع شيخه البخارى ، فكان لابد لمسلم أن يتساهل وإنه لتساهل فى كثرة الشروط ، وليس تساهلا فى قبول الحديث مطلقاً ، لأن العدالة والضبط شرط أساسى عند العلماء .

وبهذين الشيخين العظيمين المجاهدين تبوأت السنة مكانها وازدهرت إلى قمتها ولكن ما زال فى الأمة شباب وحب للسنة ، خاصة وقد اكتملت الأصول ، والمراجع ، فأخذت العهود تتجه بالسنة نحو تدوين أحاديث السنن فقط فكانت الحلقة الثالثة التى ختمت بها هذه المجهودات والتى أتم الله بها تدوين سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فإن طبيعة الشباب المؤمن تتجه نحو حماية الدين والحرص على أصوله وقواعده ، وتاريخه ، وإلى ذلك هيأ الله، وبه وحده التوفيق .

الموسوعات الفقهية فى الحديث

عصر السنن

لكأنما النزعة التى افتتح بها تدوين السنة فى عمل الإمام الزهرى والإمام مالك من المزاوجة بين السنة والاجتهاد الفقهى قد ورثها الفكر الإسلامى فى أخريات القرن الثالث الهجرى بعد أن تمم الله تدوين السنة تحت أضواء الأمانة والعدل ، والحفظ والثقة ، فاتجه الشيوخ بعد قمة ازدهار السنة إلى جمع الأحاديث الخاصة بالحكم الشرعى متجنبين أحاديث الآداب ، والفضائل ، فأفسحوا للقلم فى كل قرطاس يدون السنن التى تحيا فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأرخوا العنان فى الجمع ليحصلوا على كثرة من أحاديث الأحكام .

ولذلك : فهم يقبلون الحديث الضعيف مع الحسن والصحيح ما دام يحمل حكماً شرعياً ، وهم بهذا قد ساهموا فى تقديمهم السنة بكامل درجات الحديث ليجد أصحاب الذمة مأربهم ، وطلبتهم ، والمستوثقون لدينهم يتخيرون فإن الأحاديث كلها صحيحة فى نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنها تختلف فى الدرجة حسب السند ، والرجال .

وليس فى الضعيف حديث مدسوس ، ولا موضوع ، فقد هذب الشيوخ بقواعد مصطلح الحديث ، وقوانين الجرح والتعديل ، فضول الملحدين وتدليس الخائنين .

وتطهرت السنة ، وبرئت ، وتمت بهذه الجهود آخر مرحلة لتدوين السنة . والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٤

العلماء والكتب

١ ــ العلمــاء :

١ ــ الطلعة الورع ابن شهاب الزهرى .

٢ ــ مفتى المدينة مالك بن أنس .

٣ ــ الصابر المحتسب أحمد بن حنبل .

٤ ــ المناقش الرحالة البخارى .

٦ ــ أصحاب السنن : النسائى ، أبو داود ، الترمذى ، ابن ماجة .

٢ ــ الكتب :

١ ــ الموطــأ .

٢ ــ المسند .

٣ ــ الجامع الصحيح الأول .

٤ ــ الجامع الصحيح الثانى .

٥ ــ المجتبى .

٦ ــ السنن (أبو داود)

٧ ــ الجامع .

٨ ــ السنن (ابن ماجه)

العلامة الورع ابن شهاب الزهرى

(١) حياتـه :

١ — هو : أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن الحرث ابن زهرة القرشى الزهرى ، ولد على الأرجح سنة ٥١ هجرية ، تولاه اليتم منذ الصغر لوفاة والده وهو حدث صغير بعد أن اشترك فى حروب ضد الأمويين مع عبد الله بن الزبير ، فنشأ فى حجر أخيه الأكبر .

٢ — ويكاد يتفق الكاتبون الثقات على أن الزهرى كان عبقرى زمانه فقد حفظ القرآن فى ثمانين ليلة وقد ولع لقوة عارضته بمعرفة الأنساب ، فجعل يتردد على عبد الله بن ثعلب حتى حذق الفن فطمحت نفسه إلى معرفة الحلال والحرام ، الذى يميز الإنسان فى سلوكه السوى عن الترنح فى الشهوات وتردى المنحرفين ، فطاف لأجل ذلك على كل من أسعده به الحظ ، ثم توجه نحو رواية الحديث ، فكان تلميذاً لجلة من الصحابة منهم : أنس ، وابن عمر ، وجابر ، وسهل بن سعد ، كما كان تلميذاً لثلة من التابعين الخالصين منهم : سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبيد الله بن عتبة ، وأبى بكر بن عبد الرحمن . وكان أطول مدة تتلمذ فيها على شيخ هى حياته العلمية مع أستاذه سعيد بن المسيب فقد جلس إليه فى الدرس ثمانية أعوام متواصلة .

٣ — وقد ارتحل إلى كل مصر علمى ، وتردد على كل منهل عذب صاف : فسافر إلى مصر الكنانة،وأكثر من التردد على الشام ، والعراق إلخ، واتصل بالولاة ، والخلفاء اتصال العالم الثقة بالأمير الأمين ، وكان من أبرز الخلفاء الذين أجلوا الزهرى ووقروه الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز .

يروى الدكتور السباعى : كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن

يذهبوا إليه لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه ــ أى الزهرى ــ

٤ ــ وقد وافته المنية الحتمية فى أدامى بين الحجاز وفلسطين سنة ١٢٤ هـ على أرجح الأقوال وعمره : ٧٢ سنة .

يقول الكاتبون : وقد أوصى الزهرى أن يدفن على قارعة الطريق ليدعو له كل من يمر بقبره . رحمه الله بقدر ما قدم للسنة من خدمات ، وصان للدين من حرمة وأسس للعلماء من كرامة .

(ب) صفاته العادية :

٥ ــ وكان من أبرز صفات الزهرى الكرم والسخاء ، يقول الليث ابن سعد : كان ابن شهاب من أسخى من رأيت ، يعطى كل من جاء يسأله حتى إذا لم يبق شىء يستلف من أصحابه فيعطونه .

وكان يمد للناس موائده على الطريق ، ويسعف المحتاج ، ويعاون الضعيف ، يروى أنه نزل مرة على أهل ماء فشكوا إليه أن لهم (١٨) ثمانى عشرة عجوزاً ليس لهن خادم . ولا معهن شىء ، فأجر لهن الزهرى خدماً لكل واحد منهن جارية .

وكان يجوب البطحاء إلى الأعراب والأميين يعلمهم الدين وفقه الحديث ويقدم لهم الطعـــام .

وبهذه الصفات ركز الزهرى قواعد الأخلاق للعلماء :

١ ــ بعد عن الشح إلى الكرم والسخاء .

٢ ــ وهجر للعزلة إلى الألفة والإخـــاء .

٣ ــ وترك للكسل إلى السعى للتربية والتثقيف .

٤ ــ وجهاد ابتغاء رضوان الله (١) .

---

(١) ليت شعرى لو علم سلفنا الصالح ما يفعله الآن بعض علمائنا من شكاوى كيدية وعرائض واقتراحات لتغيير اللوائح والقوانين حقداً وحسداً على نعمة يسوقها الله لواحد من إخوانهم الذى سبق أن قدم لهم كثيراً من العون ١٩٧٧/٦/٨م .

(ج) صفاته العلمية :

٦ ـ وإذا تجاوزنا هذه الصفات العادية للإمام الزهرى ، كإنسان فاضل فى خلقه وعفيف فى كرمه وزاهد فى تصرفه ، ومسلم فى سلوكه ، وفحصنا حياته العلمية وجدنا له ثلاثة آثار بارزة :

الأولى : عناؤه فى طلب العلم .

الثانية : عبقريته .

الثالثة : جودة شخصيته .

أما عن صفته الأولى : عناؤه فى طلب العلم :

فقد ورث الزهرى بعد وفاة والده وهو طرى الأنامل حياة خشنة فى ظل أخيه الأكبر ، ولكن هذا الميراث المادى قابله ميراث عقلى دفع الشاب إلى حلقات العلم فى حرص دقيق فقد اشتهر الزهرى فى طلبه العلم بما يلى :

١ ـ حرصه على لقاء العلماء من الصحابة وكبار التابعين ، وقد تتلمذ على كثير من خاصتهم لا سيما سعيد بن المسيب الذى صاحبه ثمانى سنوات .

قال إبراهيم بن سعد : قلت لأبى : بم فاقكم ابن شهاب ؟ قال : كان يأتى المجالس من صدورها ولا يلقى فى المجلس كهلا ولا شاباً إلا سأله ، ثم يأتى الدار فلا يلقى شاباً ولا كهلا ولا كهلة إلا سأله حتى يجادل ربات الحجـال .

ويروى أنه كان يخدم عبيد الله بن عتبة بن مسعود ليأخذ عنه الحديث ، حتى كان يستقى الماء ثم يقف بالباب فيقول عبد الله لجاريته : من بالباب ؟ فتقول له : غلامك !

٢ ـ تدوينه كل ما يسمعه :

يقول أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس .

٣ — حفظه باتقان كل ما سمع وكتب :

يروى أنه كان إذا رجع إلى بيته بعد الدرس أيقظ جاريته وقال لها : اسمعي : حدثني فلان بكذا ، حدثني فلان بكذا ، فتقول له : ما لي ولهذا الحديث؟ فيقول لها : قد علمت أنك لا تنتفعين به ولكني سمعته الآن فأردت أن أستذكره .

ويذكر عنه المشتغلون بالتأريخ لحياة العلماء : أنه إذا خلا إلى بيته وضع من حوله كل كتبه واشتغل بها عن كل أمور الدنيا ، حتى ضاقت بها زوجته ذرعاً ، وقالت له : والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر .

وأما عن صفته الثانية : عبقريته :

فقد روى ابن أخيه أنه حفظ القرآن فى ثمانين ليلة ، ويروى الليث عن الزهرى أنه قال : ما استودعت قلبي علماً فنسيته ، وروى عبد الرحمن ابن إسحاق عنه : ما استعدت حديثاً قط ، وما شككت فى حديث إلا حديثاً واحداً ، فسألت صاحبي عنه فإذا هو كما حفظت .

يقول العلماء الثقات : أراد هشام بن عبد الملك أن يمتحن الزهرى فى حفظه ، فسأله أن يملى على بعض أولاده ، فأملى عليه (٤٠) حديثاً وبعد شهر قال له هشام: إن الكتاب قد ضاع ، فطلب إليه أن يمليه مرة أخرى ، فأملاه الزهرى فراجعه هشام على الكتاب الأول فوجده هو .

ويذكر المؤرخون أن عبد الملك بن مروان أرسل كتاباً إلى أهل المدينة يعاتبهم فيه ، وكان الكتاب فى طومارين (صفحتين) فقرىء الكتاب على الناس فى المسجد ، وذكر أمره إلى سعيد بن المسيب فقال : ليتنا نعرف ما جاء فيه . . . ؟ فجعل كل من جلسائه الذين سمعوه يقول : كان فيه كذا وفيه كذا . . . فأحس الزهرى أن ذلك لم يشف غله ولم يبل ظمأ شيخه فقال : أتحب يا أبا محمد أن تسمع كل ما فيه . . ؟ قال

سعيد : نعم، فقرأه الزهرى حتى جاء عليه كله ، لكأنما يقرؤه من كتاب بين يديه .

وأما عن صفته الثالثة : جودة شخصيته :

فقد عرف للزهرى منزلته كعالم إسلامى ، نيط به أشرف عمل وأجل مسئولية ، فارتفع بشخصيته فوق المال والملك ، وألزم الأقوياء دين الله .

يروى صاحب العقد الفريد : أن الزهرى دخل يوماً على الوليد ابن عبد الملك — الخليفة — ورئيس الدولة فقال له : ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ، ولم يكتب له السيئات ، قال الزهرى : باطل يا أمير المؤمنين . . . أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ قال : نبي خليفة ، قال الزهرى : فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) .

فهذا وعيد ياأمير المؤمنين لنبي خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبي ؟ فقال الوليد : إن الناس ليغووننا عن ديننا .

بهذه الشخصية القوية حدد الزهرى مركز العالم الإسلامى ومنزلته مع الحكام ، إنها منزلة القائد للرعية كلها ومسئولية توصيل دين الله الحق إلى الناس كافة ، دون ماهوى متبع أو شح مطاع أو رجاء تافه أو عظيم إنه صوت الحق بالدين ، يعلو بالطبيعة على صوت سأل عن الحق بالدين . بل : إنه لصوت الدين الذى يجب أن يصل إلى كل الآذان حتى لا يكون للناس حجة بعد التبليغ .

---

(١) سورة ص : ٢٦ .

- ولم تكن تلك الحادثة وحدها لتعبر عن شخصية الزهرى ، بل هناك من الأحداث ما يبرز جودة هذه الشخصية التى تعتبر فى الأخلاق ميزان خلق العالم ، ومحور القطر الذى تدور فيه عملية الشيخ المبلغ دين الله .

يروى ابن عساكر بسنده عن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه أن هشام بن عبد الملك سأل سليمان بن يسار عن تفسير قوله تعالى : والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، فقال هشام : من الذى تولى كبره فيهم ؟ قال سليمان : هو عبد الله بن أبى بن سلول فقال هشام : كذبت ، إنما هو على بن أبى طالب ، (وهى مقالة أراد هشام اختبار الشيوخ فى شدتهم للحق وانتصارهم له) فقال سليمان بن يسار : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، ثم وصل ابن شهاب الزهرى فسأله : من الذى تولى كبره فيهم ؟ فقال ابن شهاب الزهرى : هو عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال له هشام : كذبت إنما على بن أبى طالب ، قال الزهرى - وقد امتلأ غيظاً وغضباً : أنا أكذب ؟ لا أبالك ، فوالله لو نادانى مناد من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت ؟ حدثنى فلان وفلان أن الذى تولى كبره منهم هو عبد الله بن أبى ابن سلول .

ذلك موقف شخصية جيدة لا تخضع العلم لهوى الحكم ، ولا تتأثر برأى خاص ، ولا تخرج الحق عن دائرته لهوى الملوك واستجابة لرغباتهم .

ومن هنا ندرك :

١ - أن الطعون التى يختلقها الإستشراق وتلاميذه يوهنها جودة شخصية الزهرى التى لم يعرف طريقها فى العصر الحديث علماء أوربا وشيوخ المسيحية الذين أذلوا شعب أوربا باسم الدين وجعلوه لقمة سائغة للملوك والحكام ، وقدموا عرضه هنيئاً مريئاً ، وقرباناً مباحاً .

٢ - وأن ميزان العلم والعالم هو منهج الدين : سلوكاً فى حياته وتبليغاً أميناً كما تحمله كبار الخلق والضمير والشخصية الفذة .

وأن اتباع الهوى الشخصى أو إخضاع الدين لهوى الدولة ، أو الملك أو الحكام انحراف حقير يذل الشخصية العلمية وينئى العالم عن مكانته ومركزه ؟ .

٣ — أن الاعتداء على مكانة الزهرى باعثها النفسى إسقاط عيوب المرضى على الأقوياء التى تتغذى بالحسد والحقد ، ويقويها كراهية للإسلام وحضارته فى عمق نفوسهم .

٤ — وأن المماثلين للاستشراق من الكاتبين :

— أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام (١) .

— أبو رية فى كتابه أضواء على السنة الإسلامية (٢) .

— الدكتور على حسن عبد القادر فى ترجمته لكتاب (دراسات إسلامية لجولد تسهير) متجاهلين الفرق بين كتاب الثقافة العامة وكتاب علمى دقيق ، ومتجاهلين الأسس النفسية والعلمية للبحث العلمى عند الاستشراق وتلاميذه . ومتجاهلين الفروق بين الحضارة الإسلامية التى شع نورها فى أواسط القرن السابع الميلادى ، ففتح عيون الغربيين بعد التقائهم بالإسلام فى الحروب الصليبية التى خسروا فيها جيوشهم وسمعتهم وتاريخهم ونهبوا فى ظلالها علوم الإسلام وحضارته .

وجهلا بالواجب الدينى الذى يحتمه وجودهم كمسلمين أن يدافعوا عن الحق الذى يشاء الباطل أن يرمد أعينهم هم عنه حتى لا يرثوا به الأرض ومن عليها كما ورثها أجدادهم المسلمون فى الأندلس وقبرص وصقلية قديماً ، ومن هنا يبدو لكم وضوح :

— القيم العلمية فى البحث الإسلامى .

---

(١) لفضيلة المرحوم الدكتور سيد أحمد المسير رئيس قسم الدعوة الأسبق : مذكرة خاصة بالرد على المرحوم الأستاذ أحمد أمين فيما يتعلق بالسنة .

(٢) لفضيلة الدكتور محمد أبو شهبه له كتاب اسمه : دفاع عن السنة ، رد فيه على ترهات (أبو رية) .

— واجب المسلمين .

— عظمة الإمام الزهرى : كرائد طلعة حدد كل قيم العلماء وواجباتهم تجاه الله ورسوله ، والسنة : والشعب والحكام .

(د) مكانته فى السنة :

١ — درسه : على قدر المشقة التى عاناها الإمام الزهرى فى طلب العلم ، على قدر ما هيأ الله له من المنزلة الكريمة فى توصيل علمه الأمين إلى الجمع الغفير من التلاميذ ، فقد انتشرت سمعة الزهرى علماً ووقاراً وخلقاً وكرماً ، وأمانة ، وعبقرية ، وشخصية ، انتشار الندى الشذى فى لفائف الورود صباح اليوم النادى فأقبل عليه الشيوخ قبل الشباب . يقول الإمام مالك رضى الله عنه: كان الزهرى إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحد من العلماء حتى يخرج منها،وأدركت بالمدينة مشائخ أبناء سبعين وثمانين لا يؤخذ عنهم ويقدم ابن شهاب وهو دونهم فى السن ، فيزدحم الناس عليه .

ومن هنا فقد رأت الدولة — احتراماً لمنزلة الزهرى — أن توجه الوعى إلى حلقات العلم التى يعطرها أريج الزهرى ، فيروى أن عمر بن عبد العزيز قال لجلسائه : هل تأتون ابن شهاب؟ قالوا : إنا لنفعل ، قال: فأتوه فإنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية منه .

٢ — أقوال العلماء فيه :

يقول الليث بن سعد : ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهرى ، يحدث فى الترغيب فتقول لا يحسن إلا هذا،وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثاً جامعاً .

ويقول عمرو بن دينار بعــد أن اجتمع بالزهرى طويلا : والله ما رأيت قط مثل القرشى .

ويروى عن مالك رضى الله عنه أن ابن شهاب قدم المدينة فأخذ بيد ربيعة ودخلا إلى بيت الديوان ، فلما قرب وقت العصر خرج ابن شهاب

وهو يقول : ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة ، وخرج ربيعة يقول ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب .

وعن مالك أيضاً يروى أنه قال : بقى ابن شهاب وماله فى الدنيا نظير .

وعن الإمام أحمد بن حنبل : الزهرى أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً .

وسئل أبو زرعة : أى الإسناد أصح ؟ قال أربعة : أولها الزهرى عن سالم عن أبيه .

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أنص وأبصر بالحديث من الزهرى.

وقال سفيان : لم يكن فى الناس أحد أعلم بالسنة من الزهرى .

وهكذا يجمع علماء العصر على جودة علم الزهرى ودقة حديثه ، وعلو نفسه وكرم أخلاقه بما جعله أمة وحده لا يرقى إليه شك ولا يسعد بتاريخه إلا كل رجل مسلم أمين .

(هـ) آثاره فى السنة :

١ – عندما اتجهت الدولة إلى تدوين السنة تدويناً رسمياً كان ابن شهاب الزهرى هو من أول الرجال الذين اعتمدت عليهم الدولة فى حفظ السنة الإسلامية .

يقول الحافظ بن حجر فى الفتح : أول من دون العلم ابن شهاب بأمر عمر بن عبد العزيز .

ويروى أبو نعيم ، من طريق محمد بن الحسين عن مالك قال : أول من دون العلم ابن شهاب .

٢ – أن الزهرى رضى الله عنه وضع قواعد الأسانيد ، ومن قبله ما حفل عالم بإسناد الحديث . يقول مالك : أول من أسند الحديث ابن

شهاب ، يروي ابن عساكر عن الوليد بن مسلم أن الزهري قال : يا أهل الشام مالي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة أو خطم .

وبهذا تتحطم على هذه الصخرة افتراءات الكاذبين من المستشرقين وأحفادهم ، فلم يكن الزهري جامعاً للسنة فقط أو مجدداً بها فقط بل كان ذا منهج في الأسانيد التي تنقل السنة ، فكيف يمكن على سبيل الفرض اتهامه بقلة الأمانة ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

٣ — حفظه كثيراً من الأحاديث الصحيحة التي لولاه لضاعت واندثرت ، يقول مسلم : للزهري نحو (٩٠) حرفاً — حديثاً — يرويه ولا يشاركه فيه أحد بأسانيد جياد .

ولكن لسوء الطالع لم تشرف المكتبة الإسلامية بكتاب خاص للإمام الزهري ، وإن كانت مدينة له بالعلم والرواية والتلاميذ والتحديث .

الراوون عنه : يقول فضيلة الدكتور السباعي : لا يخلو باب من أبواب الحديث إلا وللزهري فيه حديث أو أثر أو رأي . ويقول السيوطي في طبقات المحدثين : روى عنه خلق كثير ومن أشهرهم : مالك ، وأبو حنيفة وعطاء بن أبي رباح ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن عيينة ، والليث ابن سعد ، والأوزاعي ، وابن جريج .

وروى الشيخان (البخاري ومسلم) وكتب السنن الأربعة ومالك في الموطأ ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل عن الزهري كثيراً من الأحاديث .

وهكذا يجمل الإمام الزهري في أول مرحلة رسمية لتدوين السنة الأمانة الدقيقة :

١ — ليجمع السنة ويحميها من الضياع .

٢ — وليهذب الرجال ، والطرق والأسانيد ، وينقيها من الحشو

لتنقل السنة من بعده كتراث مجموع قوى يأخذ طريقه الأصيل فى بناء حضارة الإنسان .

وفى أدامى سنة ١٢٤ هـ بالشام توفى الإمام الطلعة تحفه روائح السنة ، وتشيعه جلائل الأخلاق ، وفى مفترق الطريق دائماً يقرأ له المارون الفاتحة ، ويدعون له بالغفران . رحم الله ابن شهاب رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

الإمام مالك وموطـــؤه

(أ) حياتـــه :

هو أبو عبد الله بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي من خلفاء بني تميم بن مرة .

رحل أجداده من اليمن إلى المدينة ، وكان جده أبو عامر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد معه المغازي كلها عدا بدر .

ولد مالك بالمدينة، ولكن السنة التي ولد فيها محل خلاف بين المعنيين بالتاريخ ، فيذكر الشيباني في مقدمة تيسير الأصول : أن ولادته كانت سنة ٩٥ هـ بينما يذكر غيره أنها كانت سنة ٩٣ هـ ، وعلى كل حال فإن عام وفاته محل اتفاق ١٩٨ هـ ولكن مولده محل اختلاف لعدم وجود التسجيل الميلادي آنذاك .

وقد عاش مالك حياته في المدينة بلد النبي صلى الله عليه وسلم فورث الهدوء والعلم والعفاف ، حفظ القرآن الكريم ثم شرع في حفظ السنة فانقطع إلى عبد الرحمن بن هرمز سبع سنين ، كما أخذ عن نافع مولى عبدالله بن عمر ، وإن العلماء ليجمعون على أن أصح سلسلة ذهبيـــة في الإسناد هي : مالك عن نافع عن ابن عمر .

كذلك سمع كثيراً من الزهري : يروى أن من عادة مالك عند سماع الحديث أن يعقد عقداً في خيط بعدد ما يسمعه من الأحاديث التي يأخذها عن الزهري، وفي مرة وعاها كلها وكانت ثلاثين حديثاً فلما عاودها نسي واحداً منها فسارع إلى الزهري يسأله عن ذلكم الواحد الذي نسيه ، فقال له الزهري : ألم تكن في المجلس فأجاب مالك : بلى ، قال الزهري : فمالك لا تحفظ ؟ فأجابه مالك : إنها ثلاثون ، وإنما ذهب عني واحد ، فقال الزهري : لقد ذهب حفظ الناس .

ومن شيوخه الذين تعلم على أيديهم : يحيى بن سعيد الأنصارى ، وعبد الرحمن بن ذكوان ، وأبو حازم بن دينار ، ومحمد بن المنكدر .

(ب) مكانته فى السنة :

١ — درسه : بقدر تلمذة الطالب على الشيوخ وجودتهم وجلال قدرهم يكون علمه وإتقانه والثقة فيه،فقد كان مالك رضى الله عنه تلميذاً لثلة من كبار التابعين الثقات العلماء ، لا سيما الطلعة الورع الإمام ابن شهاب الزهرى ، فإذا تصدر مالك بعد ذلك للتدريس فقد تصدى فارس الحلبة وابن البجدة وأمير الثقة حتى لقبه العلماء إمام الحجاز ، واشتهر فى العرف العلمى أنه (لا يفتى ومالك فى المدينة) كما أطلق عليه العلماء:عالم المدينة وإمام دار الهجرة .

وقد تميز مجلس سيدنا مالك رضى الله عنه بميزتين :

الأولى : أنه كان فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وكان رضى الله عنه يتخير المكان الذى يجلس فيه عمر بن الخطاب ، وهو نفس المكان الذى كان يجلس فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

الثانية : أن شيوخه الذين نهل منهم قد صاروا فى حلقة درسه يستمعون إليه ، ومنهم : يحيى الأنصارى ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى . وكان رضى الله عنه لا يخرج لدرس الحديث إلا إذا توضأ ولبس أحسن ثيابه ، وتعطر ، وخرج خاشعاً متواضعاً ، وكان كثيرا ما يشير إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك إلا صاحب هذه الروضة .

وقد بلغ من احترامه وأدبه للرسول صلى الله عليه وسلم ومدينته :

— أنه ما ركب دابة فى المدينة ، وكان يقول : إنى لأستحى أن أركب دابة تطأ بحافرها أرضاً يضم ترابها جسد النبى صلى الله عليه وسلم .

— وأنه ما خرج لدرس الحديث أو الفقة فى مسجد المدينة إلا متوضئاً ،

فلما مرض من سلس البول نقل درسه إلى بيته وأخفى علته ، حتى دنا أجله فقال : كرهت أن آتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير وضوء ، وكرهت أن أذكر علتى فأشكو ربى .

٢ — أقوال العلماء فيه :

• يقول أبو حاتم الرازى : مالك ثقة إمام أهل الحجاز ،وهو أثبت أصحاب الزهرى وإذا اختلفوا فالحكم لمالك .

• ويقول الشافعى رحمه الله : إذا جاء الأثر فمالك النجم .

• ويقول محمد بن عبد الحكم:إذا انفرد مالك بقول لم يقله غيره فقوله حجـــة .

ويقول أيوب بن سويد : ما رأيت أحدا قط أجود حديثاً من مالك ابن أنس .

ويقول النووى : أجمعت طوائف العلماء على أمانته وجلالته وعظمة سيادته ، وتبجيله ، وتوقيره ،والإذعان له فى الحفظ والتثبت ، وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(جـ) آثاره فى السنة :

١ — التدوين : احترمت الدولة وقار مالك فى نفسه ، وعلمه ، وحديثه ، فكلفته بتدوين السنة . يروى أن أبا جعفر المنصور كتب إليه يقول : ضع للناس كتاباً أحملهم عليه ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ورخص ابن عباس وشواذ عبد الله بن مسعود ، وأقصد إلى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضوان الله عليهم ، لنحمل الناس — إن شاء الله — على علمك وكتبك ونبثها فى الأمصار ونعهد إليهم ألا يخالفوها ولا يقضوا بسواها .

فجمع مالك الموطأ فى (٤٠) عاما حتى مات المنصور قبل أن يتم مالك مراجعة الكتاب .

وقد اختار مالك الأحاديث المجمع عليها ، ونقد الرجال نقداً دقيقاً فاحصاً ، وإن المنهج العلمى لضبط السنة ليرث عنه مقالته : لا يؤخذ العلم من أربعة عن سواهم :

١ ــ لا يؤخذ من سفيه .

٢ ــ ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة .

٣ ــ ولا يؤخذ من الكذاب يكذب فى أحاديث الناس .

٤ ــ ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به .

ولذا نجده يقبل فى الموطأ :

ــ الحديث النبوى الشريف .

ــ وأقوال أهل المدينة .

ــ وقد يتبع الحديث بفقه رأيه ، أو بتفسير كلمة ، أو توضيح جملة .

ولم تكن تلك سنته وحده فقط ، بل كان ذلك منهجاً للصحابة من قبل ، فقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يكتب فى مصحفه مع القرآن التفسير الذى كان يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان فقهاء التابعين يجمعون بين الحديث والفقه الذى يستنبطونه منه .

فلم يكن مالك بدعاً فى طريقته ، بل كانت منهجاً وأسلوباً موروثاً .

٢ ــ نقده الإسناد :

يروى أن مالك رضى الله عنه قال : أدركت فى هذه البلدة أقواماً لو استقى بهم المطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيراً، ما حدثت عن أحد منهم شيئاً ، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله وهذا الشأن ــ تدوين السنة ــ يحتاج إلى رجل معه : تقى ، وورع ، وصيانة وإتقان ، وعلم وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه،فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ، ولا هو حجة ، ولا يؤخذ عنه .

فيمهد مالك بهذا إلى علم جليل يضبط السنة ، ويهذب مقالات الحمق ويقطع ألسنة السوء ، ذلكم هو علم أحوال الرجال أو علم الجرح والتعديل أو موازين ضبط السنة .

٣ ــ الراوون عنه :

لم يغادر مالك بن أنس المدينة المنورة فقد عشق المقام فيها لمجاورته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحكى أن بعض الخلفاء دعاه لكى يرحل إلى بغداد يحيا فى ظل الخلافة ، وفى خمائل النعيم ، فأبى مالك وردد مقالة النبي صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » فاكتسب مالك بتلك الاستيراتيجية المنزلية شهرة فائقة وسعت درسه لكل مقيم فى جوار المنورة وروضتها ، أو كل زائر حاج ، أو معتمر متشوف لاستشراقات القبة الخضراء تزكى روحه ، وتنقى وجدانه .

فكان درس مالك للراحين ، والغادين ، والمقيمين ، والظاعنين ، والناس يقبلون ويهرعون ، فانتشر الدرس عرضاً بكثرة الشغوفين ، وانتشر طولا بما مد الله لمالك فى أجله تسعين عاماً (٩٠) .

وقد روى عنه من شيوخه التابعين : الإمام الزهرى ، ويحيى الأنصارى، وكذا روى عنه أيوب السجستانى وأبو أسود ، وربيعة ، ويحيى بن سعيد ، وموسى بن عقبة ، وهشام بن عروة وهؤلاء من التابعين .

كما روى عنه : نافع بن أبى نعيم ، ومحمد بن عجلان ، وسالم بن أبى أمية ، وأبو النصر مولى عمر بن عبد الله ، وأولئك من غير التابعين .

كذلك روى عنه من أقرانه وأترابه : سفيان الثورى ، والليث بن سعد . وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينه ، وأبو يوسف القاضى ، وشريك ، وأبو لهيعة ، وإسماعيل بن أبى كثير .

ومن تلاميذه ، الذين رووا عنه : عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن

ابن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأسد بن الفرات ، وعبد الملك ابن المجشون ، وعبد الله بن عبد الحكم .

يروى أن محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ الإمام أبى حنيفة قال :

أقمت بباب مالك ثلاث سنين ، وسمعت نيفاً وسبعمائة حديث لفظاً .

. . . وهكذا ترون الجيش الثقافى الأمين المخلص يتحمل مسئولية الحفاظ على السنة وتنقيتها ، وصيانتها ، حسبة لله ، لا من أجل الدنيا أو جاه ينـــال .

(ه) شخصية مالك :

١ — بالعادة بين العلماء والحكم علاقة : يحددها صلابة العالم فى الحق ، وتقبل الحاكم لدين الله : فهى طيبة إذا كان الحاكم متديناً . وهى سيئة إذا كان العالم صلباً والحاكم جائراً .

وهى دنيئة إذا كان العالم تاجراً ، والحاكم مشترياً للذمم أو سفاكاً للدماء .

وقد تعلم الإمام مالك على شيخه الطلعة الإمام الزهرى وهو ذلكم الذى جابه انحراف الحكام فى رغباتهم ، وقنن للعلماء أسلوب جودة الشخصية ، حفاظاً على دين الله ، فكان مالك بهذا المنهج باراً فرفض دعوة الحاكم أن يعيش فى بغداد تحت ظلال الحكم والعيش الرغيد .

بل إن مالكاً جعل من نفسه داعية مهذباً للملوك والحكام ، فيروى أنه دخل على هارون الرشيد ووعظه وذكره بأن عمر بن الخطاب كان ينفخ على النار فى عام المجاعة — عام الرمادة — وقد أوصى الخليفة المهدى فقال له : أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : المدينة مهاجرى ، وبها قبرى ، وبها مبعثى وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى ، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة .

ووعظ أحد الولاة فقال له : افتقد أمور الرعية فإنك مسئول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال : والذى نفسى بيده لو هلك جمل بشاطئ الفرات

ضياعاً لظننت أن الله يسألنى عنه يوم القيامة .

وقد حضر مجلس أحد الحكام فسمع من الحاشية من يثنى عليه فقال له: إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك فاتق الله من التزكية منك لنفسك ولا ترض بها من أحد يقولها لك فى وجهك فإنك أنت أعرف بنفسك منهم ، فإنه بلغنى أن رجلا مدح عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره ، أو عنقه، لو سمعها ما أفلح، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : احثوا التراب فى وجوه المادحين (١) .

يروى أن الرشيد أرسل إلى مالك يطلب إليه أن يزوره حتى يسمع أولاده منه العلم ، فرد عليه مالك : العلم يؤتى ولا يأتى ، فقال له الرشيد : صدقت .

هكذا نتحمل نحن الأجيال الشابة هذه المواريث من الشرف والرجولة والتدين ، لنضعها أدلة حديدية فى مواجهه إفك الجاهلين الذى يتمنون هدم رجال السنة طمعاً فى شهوة الانتقام من الدين الحنيف الذى علم الدنيا سبل الحضارة فى عمر قصير .

٢ — ومع تلك الشخصية السياسية الفذة التى وضحها لنا سيدنا مالك رضى الله عنه كانت له شخصية علمية رائدة ذات منهج أمين نقدمه للدنيا لتعرف أن الإسلام من قبل أن تستيقظ المعمورة فى حقها الغربى قد أقام لها منهجاً علمياً فى الشرق يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

روى أن رجلا جاء مالكاً يسأله فقال: انصرف حتى أنظر ، فأبدى بعض الناس اعتراضاً على هذا المسلك لما يعرفونه عن مالك من سعة العلم ،

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة ، كما رواه أبو نعيم فى الحلية ، وابن عدى فى الكامل عن ابن عمر .

وشدة القريحة وحدة الذكاء ، وإخلاص النية ، فرد عليهم : بسريرته الطيبة المطيعة لله رب العالمين « إننى أخاف أن يكون لى من هذه المسائل يوم وأى يـــوم » .

ومن هنا يتأكـــد لدى البحث أن مالكاً رضى الله عنـــه لم يغتر بعلمه كما يغتر الباحثون المعاصرون فى الجامعات والمعاهد العليا بمكانتهم العلمية وكتبهم ، وأبحاثهم ، لا سيما ومالك يضم له مجلس الدرس شيوخه الذين يجلهم العلم والتاريخ والمجتمع ، ولكنه وضع سمة البحث العلمى : هى دقة الفحص والتمحيص ومعها الأمانة وتجنب الشبهات .

ومع استمرار دراسات حياة الإمام العظيم يطالع الناس استمرار هذا المنهج ، فيرون أن أحد الناس سأل مالكاً فاستمهله الإمام ليفكر فى الإجابة على طريقته ، فقال له السائل : هذه مسألة خفيفة لا تحتاج إلى تأجيل أو تفكير ؟ فغضب مالك وقال له : ليس فى العلم شىء خفيف ، أما سمعت قول الله تعالى : إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا .

وتجدون كذلك تصريحاً له يقول فيه : ما من شىء أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام لأن هذا هو القطع فى حكم الله .

يروى أن سائلا جاء مالكاً من سفرة طويلة تقارب مسيرة ستة أشهر فسأله ، فقال مالك : لا أحسن ، فدهش الرجل لأنه يعتقد أن مالكاً لا يجهل شيئاً ، وقال لمالك : وأى شىء أقـــوله لأهل بلدى إذا رجعت ؟ فأجابه مالك : قل لهم : قال لى ابن أنس : لا أحسن .

ولهذا يقول مالك فى وصيته : ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى .

بمثل هذه الشخصية التى اعتلت فوق سلطان الحكم وحددت منهج البحث وعرفت حدود العلم وموقف العلماء . بمثل هذه الشخصية التى يرث

المسلمون عنها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى مالك بن أنس كتابه الموطأ، فكان أول كتاب رسمي للسنة الإسلامية استقى مالك مصادره وهو تلميذ من فطاحل العلماء الثقات الورعين وشيده بحلمه الغزير وأمانته الخالصة وشخصيته القوية وشفع الحديث بفقه ، وتفسيرات لبعض العبارات ليقدمه للمسلمين مصدرا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم عسى الله أن يهدى به من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم .

الموطأ

أولا – الموطأ :

هو أول كتاب رسمي قدمته الدولة الإسلامية ليحمل للناس سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أشار به على مالك بن أنس الخليفة أبو جعفر المنصور حينما طاف به عند الحج وطلب إليه أن يدون له كتاباً جامعاً فى العلم يتجنب فيه شدائد بن عمر ، ورخص ابن عباس وأن يوطئه للناس .

ثانياً – يقول السيوطي : لهذه التسمية – الموطأ – سبب آخر فيما يرويه مالك قال : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته الموطأ .

ثالثاً : لما حج الخليفة المهدى مر على مالك فسمع منه الموطأ فكافأه تقديراً على جهده الأمين .

يروى أبو نعيم فى الحلية: لما حج الرشيد وأولاده . وسمع الموطأ رغب أن يعلقه فى الكعبة وأن يحمل الناس عليه، فأجابه مالك رضى الله عنه: لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب ، فانصاع الرشيد وعدل .

وهكذا تعلو نفوس العلماء فوق العنجهية التى يتلذذ بها قصار النظر

عند ما يلزمون الناس برأى واحد ، ويفاخرون أن الدولة أخذت برأيهم وحده دون غيره .

وفى هذا وحى للعالم ألا يستبد ، وألا يغلق باب العلم من بعده أو يدعى أنه قد أغلق به .

وفى هذا فسحة ليسر الدين وسماحته ، ورخصة عند الحاجة الملحة وتخفيف من الله ورحمة ، فالعلماء الذين يستبدون ، والعلماء الذين يحملون الناس على مذهب واحد والعلماء الذين يتجردون من مواريث العلم الإسلامى ، هؤلاء جميعاً ينفون عنهم صفة العلم . ويتجافون عما رسمه لنا أجدادنا من المنهج القويم الذى يوحد ولا يفرق ، وييسر ولا يصعب ، ويسود ولا يستعبد ، ويقوى ولا يضعف ، ويلم شتات المسلمين تنفيذاً للميثاق العظيم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) — ١٠٤ آل عمران .

رابعاً — منهج مالك فى تدوين الموطـأ :

على المنهج العادى سلك سيدنا مالك رضى الله عنه طريقة التدوين :

١ — بوبه على أبواب العلم المختلفة : الصلاة ، الزكاة ، الزواج .. إلخ .

٢ — يذكر فى كل باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — ثم آثار الصحابة .

٤ — ثم أقوال التابعين الثقات .

٥ — ثم عمل أهل المدينة الذين أجمعوا عليه ، وكان ينص عليه فى الأبواب التى يختلف فيها عمل أهل المدينة مع أحاديث الآحـاد .

٦ — وكان يشفع الحديث برأيه الفقهى ، جرياً على العادة القديمة أو يفسر جملة أو يشرح لفظاً أو يبين المراد من بعض العبارات والجمل .

خامساً — درجة الموطأ من كتب السنة :

١ — جمهور المالكية وابن العربى يقدمونه على الجامع الصحيح للبخارى ومسلم ، للآتى :

(ا) لمكانة مالك العلمية .

(ب) لمنهجه الذى عرف بالدقة فى تقبل الحديث .

(ج) لتمحيصه الموطأ فى أربعين عاماً .

٢ — وفى كلام الدهلوى فى كتاب حجة الله البالغة استواء منزلة الموطأ مع الجامعين الصحيحين للبخارى ومسلم .

٣ — وعند جمهور المحدثين ، وعند ابن حجر : البخارى أولا ، ومسلم ثانياً ، والموطأ ثالثاً ، يقول : ابن حجر : « إن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع ، وغيرهما » اهـ .

وعلة جعل جمهور المحدثين الموطأ فى منزلة متأخرة من الصحيحين أن الموطأ يجمع الأحاديث المرسلة والمنقطعة ، وهى غير معتد بها فى نظر الجمهور .

ويجيب أصحاب القولين عن وجود المرسل وغيره فى الموطأ بأنها متصلة السند من طرق أخرى فهى من هذه الوجهة صحيحة ، ومن جانبنا إذا كنا نعرف فى تاريخ سيدنا مالك رضى الله عنه أنه رجل دقيق النظر متفحص فى حال الرجال ، وأنه كما يرفض العالم المتعبد الذى لا يعى فهم ما يخرج من فمه ، أو يدخل فى رأسه من الأحاديث ، تأكد لنا أن المراسيل فى نظر المحدثين الذين يتكلمون عنها فى موطأ مالك لم تكن عنده إلا صحيحة قوية ، وإلا لما أثبتها فى موطئه ، وقد شهد الشافعى رضى الله عنه لمالك بقوله : إذا جاء الأثر فمالك النجم .

ويقول أيوب بن سويد : ما رأيت أحدا قط أجود حديثاً من مالك ابن أنس .

ويقول مالك نفسه : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه منه .

ومن المشتغلين بوصل ما فى الموطأ من مرسل : الحافظ بن عبد البر ، قال : جميع ما فيه من قوله : بلغني ، ومن قوله : « عن الثقة » واحد وستون حديثاً-٦١-كلها مسندة من غير طريق مالك إلا ٤ (أربعة) ولكن الشيخ الشنقيطى فى كتابه : « إضاءة الحالك » ينقل عن ابن الصلاح أنه وصل هذه الأربعة ، وعلى أى حال فليس فى الموطأ حديث موضوع ملسوس على السنة أو متقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى الموطأ ضعيف يفسد عقيدة أو يبدل معناه حكماً ، لا سيما ومالك قد اعتز بأهل المدينة وعملهم ولم يبرح المدينة ولم يفارق جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تتهيأ له فرصة اللقاء بمن يشك فيهم لا سيما وشيوخه ثقات عفاف ، وأهل المدينة أهل ود للجوار النبوى الكريم .

سادساً - نسخ الموطأ وتعداد أحاديثه :

يقول فضيلة الدكتور السباعى : وقد بلغت روايات الموطأ المتداولة - نسخه - نحواً من ثلاثين نسخة (٣٠) من أشهرها : موطأ ابن بكير ، وموطأ أبى مصعب ، وموطأ ابن وهب ، وموطأ الإمام محمد بن الحسن .

وهذه النسخ تختلف فيما بينها تقديماً وتأخيراً ، وزيادة ونقصاً ، وعلة ذلك :

١ - إدامة النظر من سيدنا مالك رضى الله عنه فى أحاديث الموطأ وإضافة أحاديث أو حذفها حسبما تراءى له .

٢ - اختلاف الزمن الذى رويت فيه الأحاديث عن مالك .

ولهذا إختلفت الاحصائيات فى عدد أحاديث الموطأ .

يقول أبو بكر الأبهرى : جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبى

صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ١٧٢٠ حديثاً : المسند منها ٦٠٠ حديث، والمرسل ٢٢٠ حديثاً ، والموقوف ٦١٣ حديثاً ومن قول التابعين ٢٨٥ قولا .

أما فى موطأ الشيخ محمد بن الحسن — وهو من أشهر النسخ — وخاصة فى الحرمين وبلاد الهند ، فقد بلغ جملة ما فيه من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم مسندة ومرسلة ومنقطعة ١١٨٠ حديثاً ، منها عن مالك ١٠٠٥ ، وعن أبى حنيفة ١٣ حديثاً ، وعن أبى يوسف ٤ أحاديث والباقى عن غيرهم .

سابعاً — عناية العلماء بالموطأ :

تلقى العلماء الثقات موطأ مالك كما يتلقى الوالد العجوز أول ولد له وحيد ، فأكبوا عليه بالعمر والشباب ، شرحاً ، وتخريجاً ، ومن أشهر شراح الموطأ :

١ — الحافظ ابن عبد البر م ٤٦٣ هـ فقد ألف فيه شرحين :

(ا) تمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد : رتب فيه أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم وقد قال فيه ابن حزم « لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثاله فكيف أحسن منه » .

(ب) الاستذكار فى شرح مذاهب علماء الأمصار .

٢ — الحافظ أبو بكر بن محمد بن العربى م ٥٤٦ هـ

٣ — جلال الدين السيوطى م ٩١١ هـ

٤ — الزرقانى المصرى م ١٠١٤ هـ

٥ — الدهلوى م ١١٧٦ هـ

٦ — الشيخ على القارئ المكى م ١١٢٢ هـ

٧ — الكنونى فى كتابه (التعليق على موطأ الإمام محمد)وقد اختصره كثير من العلماء منهم :

٨ ــ أبو سليمان الخطابى م ٢٢٨ هـ
٩ ــ وابن عبد البر م ٤٦٣ هـ
١٠ــ ابن رشيق القيروانى م ٤٥٦ هـ

كذلك ألف فيه كثير من المشايخ كثيراً من الكتب : تشرح غريبه ، وشواهده ، ورجاله ، واختلافاته فى النسخ بما يظهر كرم عناية الأمة والعلماء بهذا الكتاب الجليل .

شبهة حــول الموطأ :

الاعتداء على السنة فى نظر المستشرقين وتلاميذهم طلاب الشهرة والمال أساسه الطعن فى الأسس التى قامت عليها عملية تدوين السنة،لذلك يتوجه الأعداء إلى الأئمة الأول للطعن فيهم :

فهم يتكلمون فى الإمام الزهرى ، بما يجرحه لأنه أول من دون السنة رسميا ، وكذلك يطعنون فى الإمام مالك لأنه الرجل الأمين الثانى الذى دون السنة رسمياً بأمر الدولة . ومن سوء الحظ أن الأرمد يتهم قوى البصر بالعمى ، ويصدقه جهلاء العقيــدة ، بل يستعذب كلامهم فريق من المتشدقين بالتزين اللفظى المتفاخرين بنسبة كلامهم إلى الاستشراق. ومثل ذلك الموطأ : فقد اعتدى عليه المستشرقون وأصدقاؤهم فاتهموه بأنه كتاب فقه لا كتاب حديث .

ولئن كان حديثنا السالف عن الإمام مالك ومنهجه ، وعن الموطأ وقيمته ، ودرجته ، وعناية العلماء به يكفى فى التعرف على رد تلك الشبهة بيد أننا نريد أن نوقف الفكر الإسلامى فى أندونيسيا على أمثلة من افتراء الاستشراق، وأمثلة من التبعية العمياء لتلاميذه من المسلمين الذين اتبعوه بسوء ، أو من الشيوخ المسلمين الذين تكلموا بمثل كلامهم دون دراية بعظم ما يقولون ؟

١ ــ فى كتاب الدكتور على حسن عبد القادر (نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى) يذكر فى ص ٢٤٤ ــ ٢٥٢ : أنه لا يمكن أن

يعتبره – أى الموطأ – أول كتاب كبير فى الحديث رغم ما له ولمؤلفه الإمام مالك من مكانة فى الإسلام ، لأنه لم يعتبر فى الأصل كتاباً فى الحديث ، إذ ليس غرضه الإتيان بالأحاديث الصحيحة فحسب بل غرضه النظر فى الفقه والقانون ، والعادة ، والعمل حسب الإجماع المدنى المعترف به ، ومن هنا نرى : أن مالكاً لم يكن جامعاً للحديث بل كان شارحاً للأحاديث من وجهة النظر العلمية أ . ه .

وملخص كلام السيد – الدكتور – أمران :

الأول : الموطأ كتاب فقه لا كتاب حديث .

الثانى : مالك فقيه وليس محدثاً .

ومن وجهة النظر العامة – مع الاحترام للسيد الدكتور – نقول :

إن هذا الكلام يتجاهل طبيعة المنهج والتدوين للسنة فى ذلك العصر فقد دأب الصحابة والتابعون على إرداف السنة والقرآن بالتفسير أو الرأى الفقهى الخاص .

كما أنه تغاضى عن إجماع الشيوخ الذين عرض عليهم مالك كتابه الموطأ فواطئوه على أنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كما أنه إجحاف بقيمة حرص الدولة على الحفاظ على السنة عندما كاف أبو جعفر المنصور – بكتاب رسمى –الإمام مالك أن يجمع له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بعد هذا فإن الموطأ يرد على هذه الشبهة :

١ – إذ فيه الإسناد لأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وكلهم أئمة فقهاء مجتهدون ؟

٢ – والأوزاعى يروى عن مالك:وهو إمام معروف فى الفقه ، والإمام لا يروى عن الإمام مذهباً وإنما يروى حديثاً ؟

٣ — والشافعي يأخذ عن مالك ويقول : ما أعلم فى الأرض كتاباً فى العلم أكثر صواباً من كتاب مالك .

وأجاب ابن الصلاح بأن مقالة الشافعى قبل أن يظهر البخارى ، ففى المقالة دليل على أن الموطأ كتاب سنة لا كتاب فقه .

٤ — وعناية الأمة به تداولا ونسخاً متعددة تصل إلى الثلاثين (٣٠) وشرحاً وتوضيحاً : مطولا ، ومختصراً على نحو ما فات ، يدل بأثره وجهوده على أن الموطأ كتاب حديث خالص لا كتاب فقه ومذهب ، وما يتصوره السيد الدكتور أنه جاء مبوباً على أصول الفقه فهو منهج فى التدوين كما فعل البخارى من بعده ، وذلك لا يعد فى أسلوب العلم والبحث دليلا على أن الموطأ كتاب فقه . ومثل هذا الصنيع فعل الترمذى وكذلك أبو داود .

إنها لمقالة غير واعية تريد أن تطيح بأصل السنة ليبقى التشريع فى الإسلام مشطور الأساسين فيعود الشرق الإسلامى فقيراً كما عاش الغرب المسيحى حياته كلها مسكيناً حتى علمناه نحن الحياة !

وأما النقطة الثانية : أن مالكاً كان فقيهاً ولم يكن محدثاً : فهذا هو إدراك النعامة تدس رأسها فى الرمال حتى لا يراها الناس ، فمن ذا الذى يستطيع أن يطمس حقائق التاريخ ، وينكر أن مالكاً كان علماً فى التحديث بالمنهج والتقرى ؟ .

لم يكن مالك محدثاً فى العراق ، أو مصر ، أو الكوفة ، أو الشام . . . ولكن كان مجلسه عند ملتقى قلوب المسلمين والحجيج فى الروضة النبوية يسمع منه كل حاج ، وكل غاد ورائح ، ولم يكن كذلك فحسب بل كان لمجلس حديثه نظام خاص فى لباس الإمام وتعطره . . . ولقد ضم مجلسه : الرفاق فى العير ، قبل التلاميذ ، بل كان معهم الشيوخ ، جلسوا يستمعون منه الحديث .

وأما أنه أردف الحديث بالفقه فذلك عمل قام به من قبل عبد الله ابن مسعود ومثله خلق كثير من العلماء السابقين ؟

وأما أنه اعتمد على المراسيل فذلك لأن مذهبه صحة الاحتجاج بها مع الشهادة له بأنه كان شيخاً متيناً فى نقد الرجال والإسناد ، وقد سمعتم آنفاً مقالته : ربما جلس إلينا الشيخ فيحدث جل نهاره ما نأخذ عنه حديثاً واحداً ، لا يؤخذ العلم عن أربعة . . . إلخ .

يقول سفيان بن عيينة : «وكان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ، ولا يحدث إلا عن ثقات الناس» .

وقال يحي بن سعيد القطان : « كان مالك إماماً فى الحديث » .

فإذا قبلنا طعناً فى مالك فقد قبلنا الطعن فى السنة الإسلامية والشاهدين لها من كبار العلماء ، وكنا قد ساهمنا فى تقبل كلام التجاهل على أنه علم ، فنذنب فى حق الدين ، بل وفى حق العلم ، بل فى حق العقل ، بل فى حق وجودنا نحن كمسلمين ، ومن هنا تدركون أمثلة ذلك اللون من تلاميذ المستشرقين الذين يودون بجدع الأنف تشويش الثقافة الإسلامية ، وهدم كيان مصدريها الأساسيين : القرآن ، والسنة .

فخذوا حذركم ، وجهزوا أسلحتكم ، أعد الله بكم للمعتدين على الإسلام : ثقافة ووطناً ، ومجتمعاً حراً عظيما ، ونصركم نصراً مبيناً .

ومن الشيوخ الذين اتبعوا نهج تلك المقالة مع حسن القصد :

فضيلة الشيخ أحمد الشرباصى فى كتابه (الأئمة الأربعة) ص ١١٧ يقول الشيخ « . . . وينبغى أن يلاحظ أن كتاب الموطأ ليس كتاب حديث بالمعنى المألوف لكتب الحديث ، بل هو كتاب فقه فقد كان هم مالك فيه أن يبين إجماع أهل المدينة » ا هـ .

ففى هذه الفقرة مسألتان :

الأولى : أن الموطأ ليس كتاب حديث .

الثانية : أن هم مالك تبيين إجماع أهل المدينة .

أما النقطة الأولى : فهى خطأ تاريخى ، وعلمى ، وقد ناقشناها سالفاً فى حديثنا مع رأى السيد الدكتور .

وأما النقطة الثانية : فإن الشيخ الشرباصى نفسه لا يوافق عليها فى ص ١٠١ إذ يقول : وقد يظن ظان أن مالكاً بسبب تقييده بالحديث ، وعدم خروجه عليه فى الإفتاء كان يحجر واسعاً فى مصادر الفقة الإسلامى ، وهذا الظن يقع فى غير موضعه ، لأن مالكاً يأخذ فى اعتباره مصادر كثيرة لفقه :

١ — القرآن فى الطليعة .

٢ — ثم هو يعتبر السنة النبوية المصدر الثانى فى التشريع .

٣ — ثم يأخذ مالك بفتوى الصحابة لأنهم السابقون .

٤ — وكان يأخذ بالإجماع ،ويقصد به ما أجمع عليه أهل الفقه والعلم .

٥ — وكان يأخذ بعمل أهل المدينة لأن الناس تبع لأهل المدينة الأوائل ص ١٠٢ ا هـ .

فيشهد على نفسه أن مالكاً قدم على عمل أهل المدينة : القرآن والسنة ، وفتوى الصحابة وإجماع العلماء .

فما هو معنى «هم مالك إظهار إجماع أهل المدينة فى الموطأ ؟» على أن الشيخ يقول ص ١١٦ وهى المقابلة للصفحة التى يذكر فيها أن هم مالك إظهار إجماع أهل المدينة يقول : « وكان مالك يختار المجمع عليه ، وينقد الرجال نقداً دقيقاً عميقاً فهو مثلا يقول : لا يؤخذ العلم من أربعة . . . »

بل إن الشيخ ليقول فى نفس الصفحة أسفل الدعوى :« ويعد مالك فى موطئه شارحاً للأحاديث من وجهة النظر العلمية . ولم يخل الموطأ من استخدام مالك للرأى عندما لا يجد الحديث » .

فهو يعترف بأن الموطأ كتاب حديث وأن مالكاً لم يخله من رأى فقهى ، ومعنى لم يخله : أنه فى بعض الأحايين كان يذكر رأيه الفقهى إثر الحديث ، وهو صنيع قديم متوارث عن الصحابة والتابعين .

وبعد : فإنى أعتقد أن مقالة الشيخ الشرباصى مقالة غير سيئة ولكنها اشتركت فى اللفظ والمفهوم مع مقالة السوء من الاستشراقيين ، فأردت أن أضع لكم مثالين :

١ — مثال مقالات المستشرقين ، وأحفادهم .

٢ — مثال الشيوخ الأبرياء الذين يتوسعون فى العبارة فتضر الدين ، بله اصطدامها مع ما يذكرونه أولا وأخيراً .

وإلى هنا فقد تسلمتم أول حركة رسمية : للسنة : تدويناً ، وتحديثاً ، ووقفتم على جهود العلماء المختلفة لتحملوا من بعدهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال عليه السلام: « نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وفى المدينة المنورة إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم مالك روحه إلى بارئها فى الرابع عشر من ربيع الأول عام تسع وسبعين ومائة ١٧٩ هـ ، ودفن بالبقيع بعد أن أدى الأمانة ، وصان السنة ، ونصح للناس أجمعين .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين رفيع الدرجات ؟

الإمام أحمد بن حنبل

ومسنده

(أ) حياتــه :

هو : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلى الشيبانى المروزى ثم البغدادى وطنا،ولد فى بغداد عام ١٦٤ هـ ، ومات والده وهو صغير حتى أن الإمام لا يذكر أنه رآه ، وكانت شهرته باسم جده لأن جده كان والياً على سرخس ، وكان والده مجاهداً فى جيوش الفتح الإسلامى أيام الأمويين ، وللناس صلة بالحكام أكثر من الجند،وللحكام شهرة بين الناس أكثر من غيرهم .

وقد نشأ ابن حنبل فى ظل حياة خشنة فقيرة : ولكنه مع هذا امتاز بثلاثة أمور :

الأول : أنه كان عفيف النفس ، عالى الهمة ، لا يقبل الهدايا مع حاجته ، ويرفض العطايا مع فقره ، وكان يتأبى بنفسه على كل متعة فيها شبهة ، وهذا الفقر لم يدفعه إلى الكسل ، بل تطلب الرزق من إبزازه الحلال ، فعمل فى (الحياكة) ، (والتدوين للناس) ، وطرق كل باب شريف فى العمل،ورضى بما قسم الله له فى حياته، دون ما نظر لما فى أيدى الناس ، فكان سليم القلب ، نقى السريرة ، حامداً لله شاكراً لنعمه .

الثانى : أن فقره لم يمنعه من طلب العلم بل جاهد فى تحصيله على قسوة الحياة وقلة الزاد ، وسوء الراحلة ، فيروى أنه حج خمس مرات أدى ثلاثاً منها ماشياً على قدميه ، ويروى أنه لما رحل إلى الكوفة يطلب العلم فيها كان ينام فى بيت وتحت رأسه حجر ، وفى سفره إلى اليمن لطلب العلم اشتغل مع الحمالين ليرتزق حلالا من عمله وعرقه ، ورفض أن يستلم معونة من الناس .

الثالث : أنه ارتفع على القيم المادية وجابه الدولة العباسية التى أرادت أن تفرض عليه مسألة خلق القرآن ، وصبر على محنة العصبية التى أثارها

الفارسيون ، بالجهل المتصعب أربعة عشر عاما ، وهو موقف فذ فريد لابن حنبل ، إذا درس، بالإضافة إلى حياته الخشنة ، تقرر عند الباحثين أن أول ميزة فى العالم الإسلامى احترامه لشخصيته واحتفاظه بها بعيداً عن القيم المادية وتمسكه بالحق مهما كان فقره ، ومهما كان الأذى الذى يناله ، وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا .

(ب) مكانته فى السنة :

١ ــ الدرس :

لم يكن حظ الإمام المحتسب الجليل الورع الراضى أحمد بن حنبل مع الشيرخ قليلا ، فرغم قلة ما فى اليد وبعد الشقة ، فقد رحل الشيخ إلى : مكة ، والمدينة والشام ، واليمن ، والكوفة ، والبصرة والحجاز . . يروى أن أحداً من أصدقائه العارفين أحواله تعجب من كثرة أسفاره مع قلة المال ، فقال له : مرة إلى الكوفة ، ومرة إلى البصرة . . إلى متى ؟

فى هــذه الأسفار التقى الإمام الجليل بشيوخ العلم الأمناء المحافظين على الدين سلوكاً ، فى حياتهم الشخصية ، ونقلا إلى الأمراء ، والحكام والرعية فأخذ عن :

هشيم بن بشير بن أبى حازم الواسطى طوال أربعة أعوام أو تزيد وكتب عنه أكثر من ثلاثة آلاف حديث (٣٠٠٠) وقد كان هشيم تقياً ورعاً ، وإماماً محدثاً ، أميناً . روى عنه الإمام مالك كما سمع هو من كثير من الأئمة .

كذلك أخذ ابن حنبل عن عمير بن عبد الله بن خالد ، وعبد الرحمن ابن المهدى ، وأبى بكر بن عياش .

ومن الأساتذة الأوائل الذين تلقى عنهم أحمد بن حنبل الشيخ الصاحب أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضى أحد أئمة الفقه الحنفى والتلميذ الأول للإمام المعظم أبى حنيفة النعمان ، تلقى عنه الفقه والحديث .

كذلك أخذ ابن حنبل عن : إبراهيم بن سعد ، ويحيي القطان ، ووكيع وسفيان بن عيينة صديق كريم للإمام مالك بن أنس ، وتلميذ من تلاميذه .

وإن كان ابن حنبل لم يدرك الإمام مالك فقد عوض بسفيان بن عيينة ، يروى أنه قال : فاتنى مالك بن أنس ، فأخلف الله على سفيان ابن عيينة .

كذلك أخلف الله عليه بالعارف الفقيه المحدث الورع الإمام الشافعى الذى يعتبره العلماء المتخصصون الأستاذ الثانى له بعد هشيم ، وقد التقى به الإمام أحمد بن حنبل مرتين :

– مرة فى الحجاز عند الحج ، شهد مجلسه فى المسجد الحرام .
– ومرة فى بغداد .

فأخذ الفقه من تلك الكثرة الكثيرة من العلماء المخلصين ، وكذلك الحديث حتى صار لقبه : إمام الدنيا ، عالم السنة ، فقيه العراق ، وقد سن الإمام أحمد بن حنبل طريقة جديدة فى الجلوس إلى التدريس فلم يشأ أن يعقد له مجلس وهو دون الأربعين : سن الاستواء ، والاتزان والهيبة ، وهو لكأنما يتأسى فى ذلك بسن النبوة عند البعث .

وكان له درس خاص ودرس عام :

أما الدرس العام : فكان فى المسجد الجامع ببغداد ، وقد ذكر المعنيون بالأحداث لأصحاب التراجم أن درس ابن حنبل كان واسع الأبعاد ، يحضره ما ينيف على خمسة آلاف ٥٠٠٠ ، منهم طالبو العلم ومنهم طالبو الموعظة ، ومنهم طالبو الخلق والتأدب . ومنهم طالبو الفقه والأحكام .

وكان يسود مجلسه مع اتساعه الوقار والهدوء والسكينة ، والجد والاحترام .

وأما درسه الخاص فكان فى منزله للخاصة الذين لهم مطالب معينة تجاه السنة والحديث .

٢ – أقوال العلماء فيه :

يقول أبو داود السجستانى : لقد لقيت مئتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذكر العلم تكلم .

ويقول النووى : هو الإمام البارع المجمع على جلالته وإمامته وورعه وزهادته وحفظه ووفور علمه وسيادته .

ويقول أبو عبيد : انتهى العلم إلى أربعة : أحمد بن حنبل وهو أفقههم فيه ، وعلى بن المدينى ، وهو أعلمهم به ، ويحيى بن معين وهو أكتبهم له ، وأبى بكر بن أبى شيبة وهو أحفظهم له .

ويقول إبراهيم الحربى : أحمد بن حنبل كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين من كل صنف .

ويقول أبو زرعة : ما رأيت من المشايخ أحفظ من أحمد بن حنبل .

(د) آثاره فى السنة :

١ – كان زمن الإمام ابن حنبل يحتاج إلى إرادة قوية تتمسك بالحق ، وتدافع عنه ، وقد كان الإمام بمنحة الله له هو الأمين على تراث السنة الإسلامية ، يقول الإمام معبراً عن ثقته ومنافحاً عن السنة . . .

وجعل الله رسوله الدال على ما أراد من ظاهره –أى القرآن – وباطنه ، وخاصه وعامه ، وناسخه ومنسوخه . . . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه ، وشاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له ، ونقلوا ذلك عنه فكانوا أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم ، وما قصد له الكتاب ، فكانوا هم المعبرون عن ذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . إلخ .

ومن هذا النص ندرك :

١ – ثقة ابن حنبل فى السنة ، وإيمانه بوظيفتها .

٢ – ثقته فى حاملى السنة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك شد ابن حنبل على يديه بالسنة وعض عليها بالنواجذ حتى أنه ليقبل الحديث الضعيف – غير الموضوع – إذا لم يتعارض مع قواعد العقيدة ، وأصول التشريع .

وهنا تجدون نص المنهج فى عبارة الشيخ نفسه يقول :

إذا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد ، وإذا روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضائل الأعمال ، وفيما لا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا فى الأسانيد .

ومفهوم هذا النص :

١ ـ أن الإمام فى مجال التشريع لا يقبل الضعيف من الأحاديث ويتشدد فى نقد الرجال وتمحيص الإسناد .

٢ ـ وأنه فى مجال الأخلاق ، والوعظ والتهذيب يتساهل فيقبل الضعيف إذا كان لا يتعارض مع حقائق الدين .

وكان ابن حنبل يتجشم كثيراً من المتاعب والمشاق فى تحصيل الحديث، فقد اهتم بالحديث ثلاثى الإسناد فسمع عن حديث « من قطع رجاء من ارتجاه إليه قطع الله رجاءه يوم القيامة » ، وكان المحدث بالشام ، فسار إليه حتى وصله ، فأقرأه السلام فرد عليه المحدث ، ولكنه مضى فى إطعام كلب أمامه ، وبعد أن انتهى قال : لعلك وجدت على فى نفسك ؟ فأجابه أحمد : نعم ، فقال المحدث : إن أرضنا ليس بها كلاب وقد قصدنى هذا الكلب من بعيد ورجانى أن أطعمه وأسقيه فأجبت له رجاءه لأنى سمعت من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة .

فابتسم ابن حنبل وقال : يكفينى هذا الحديث ، وعاد إلى بغداد .

وتمثل هذه الروح والعزيمة والإخلاص تحمل الإمام ابن حنبل المشاق ليجمع السنة ، وإنكم لتجدونه يصرح بأوصاف العالم الذى يحق أن يتحدث فى شئون الحديث ، فيقول : من لم يجمع علم الأحاديث وكثرة طرقها ، واختلافها لا يحل له الحكم على الحديث ، ولا الفتيا به .

ومن هنا تدركون أن الأدعياء من حديثى التخرج الذين يتلهون بمتع الحياة التافهة ويفرحون بطعونهم فى السنة كآراء جديدة جرياً وراء عمى

المستشرقين ، أولئك القوم حقراء فى نظر الحقيقة العلمية ، وجهلاء فى نظر البحث العلمى المقنن ، وأغبياء فى نظر التاريخ الذى حفظ لسنة الإسلام وحدها :

١ — جودة مصادرها .

٢ — منهج التدوين العلمى لها .

٣ — انفرادها وحدها بأصول النقد العلمى الصحيح .

٤ — أمانة حامليها وعلمائها ، علماً وعملا ، دون ما مال يراد أو جاه يرتجى .

ولعلكم بهذا ترفعون صوت الحق لتختفى همسات الباطل التى تشوش على الحق الأمـــين .

٥ — وأضاف ابن حنبل خطوة جديدة فى منهاج التحديث وهى قيد العلم بالكتابة ، وعدم الاعتماد على الحفظ فقط ضماناً لصيانة السنة كما رويت ، وسمعت ، وحفظت .

يروى أن الإمام قال لتلميذه على بن المدينى : « لا تحدث إلا من كتاب » ، وهو أمر للتدريب على الأمانة والدقة فى حفظ العلم والحديث ، كذلك يحدث عنه جلساؤه : أنه كان إذا أملى حديثاً لا يمليه إلا من كتاب وإن كان حافظاً ، وكان يقول : « الكتاب أحفظ شىء » .

وبهذه المتانة والتثبت وصل إلينا كتابه « المسند » بعد حرص أمين دقيق من عالم مهذب ورع مؤدب عفيف مجاهد محتسب .

(هـ) الراوون عنه :

من الحلقة الواسعة التى كان يعقدها الإمام ابن حنبل فى المسجد الجامع ببغداد ، ومن حلقاته الخاصة فى منزله تخرج علماء لهم دين متين وخلق قويم ، وعفاف طاهر ، ولسان صدق ، ويد نظيفة ، وجرأة مؤدبة من أجل الحق لله ، ومن تلك الطلائع جمهرة الأفذاذ الذين مكنوا من بعد أستاذهم الرائد للسنة المكان الرفيع ، وأولئكم هم :

١ — الإمام الشاب محمد بن إسماعيل البخارى :
٢ — الإمام مسلم .
٣ — أبو بكر أحمد بن محمد بن هانى .
٤ — أحمد بن محمد الحجاج المروزى .
٥ — إسحق بن إبراهيم (ابن راهويه) .
٦ — حنبل بن إسحاق .
٧ — عثمان بن سعيد الدارمى .
٨ — أبو حاتم الرازى .
٩ — أبو زرعة .
١٠— موسى بن هارون .

وغيرهم كثير : لهم خلق وفضل ودين ، وباع طويل طويل . . . إلخ.

(و) شخصيته :

مجابهة الباطل ، ومقاومة الإفك ، انتقلت من النقد الكلامى إلى التحدى والجلد ضد حقارة الجهلاء من الحاكمين الذين يرغمون العلماء بالسوط على تقبل أهوائهم فى الدين والعقيدة والشرع بما لم ينزل الله به من سلطان ، ولئن كانت وقفتنا على مقالة الزهرى التى وجهها فى عنف إلى الخليفة هشام بن عبد الملك — لا أبالك — . . . إلخ ، فإن مقالة السوء التى ابتدعها وزير المأمون أحمد بن أبى داود المعتزلى (خلق القرآن) ، وأراد أن يحمل عليها العلماء حملا يلغى عقولهم ، ويوهى عقيدتهم ، قد تصدى لهم الإمام أحمد بن حنبل الجلد القوى المتين فى الحق والدين من أول لحظة ولدت فيها تلك المقالة الآثمة عام ٢١٨حتى عام ٢٢٣ هـ . حين تولى المتوكل وأزال عار المأمون والمعتصم والواثق الذين أرغموا العلماء بالسوط والسجن فى مسألة لا حيلة للعقل أن يفهمها أو يضع فيها حكماً ما دامت لا تتصل بقضية فى الشريعة أو فى العقيدة ، وليس لها فى الإسلام : قرآناً ، وسنة دليل على ذاتها بالقدم ، أو الحدوث ، ولم يسمع للصحابة كلام فى هذا الاختلاق ؛

وإنكم لتجدون صلابة الإمام لم تكن من قبيل التعصب للرأى أو مجابهة رأى شخصى برأى مثله ، بل كانت مجابهة الباطل بحقيقة الدين فيما تقرءونه من مساجلة بينه وبين المعتصم حين سأله : ما تقول فى القرآن ؟ فأجاب الإمام : هو كلام الله ، فسأله أخرى : أمخلوق هو أو قديم ؟ فيرد الإمام : هو كلام الله ، ويصر على أنه كلام الله ، فيأمر المعتصم به فيضرب حتى يخر مغشياً عليه ، ثم يرمى فى السجن .

كلمة الإمام ابن حنبل « هو كلام الله » كلمة عالم منهجى دقيق فاحص نير العقيدة قوى الإيمان شديد التمسك بالأثر النبوى ، لأن المسألة جديدة وليس فى القرآن نفسه حكم بأنه قديم أو حادث مخلوق .

ولم يتعرض واحد من الصحابة ليسأل مثل هذا السؤال ، أو ليجيب على مثل هذا السؤال . ؟

والإجابة على القرآن بالقدم أو الحدوث تحتاج إلى دليل ، ولا دليل فيه ولا فى السنة على أحد الحكمين . وبهذا قدم ابن حنبل رداً علمياً شافياً لمن له عقل وبصيرة ، ولكن المعتصم ، ومن لف لفه من الخبثاء قابلوا المنهج العلمى بالسياط وزحمة الحديد ، وهى مسألة تعطينا فكرة عن قيمة شخصية الإمام الذى استمسك بالحق الذى آمن به فى لحظة عجزت الدولة عن فهم إجابة العلماء ، فتهورت وثارت أعصابها ، واستعانت بالحديد والنار ليغيروا من مسلك العلماء ، فتحداهم إيمان ابن حنبل ، وكان قلبه أقوى من الحديد ، وكان جلده أمنع من الفولاذ . وإذا قيس هذا الموقف مع فقر الشيخ وحاجته أدركنا أن أحمد بن حنبل كان إماماً للعلماء يعطى الدليل على قيمة العالم :

أنه رائد ينبغى أن يقدم للحق أكثر مما يأخذ ، وأن يتحمل فى سبيله أذى الجلد ولذة الإيمان . لقد كان الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه قائداً للشخصية العلمية :

— فى المنهج .　　　　— وحمل الرسالة .
— وطهارة اليد والضمير .　　　　— والجلد والصبر على الأذى .

حتى كان عامل تركيز للشخصية العامية الإسلامية ، فقويت به قلوب الجماهير على بغض نظام الفسوق والاعتداء على الحق ، وزادته قيمة يعتز بها الإسلام على طول التاريخ ، ويزكيها الشافعي بقوله :

« خرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل » .

فجزاه الله عن الإسلام والحق والقرآن والسنة والعلم والعقل الخير الكثير .

المسند

١ — من الآثار الجليلة التى ورثها الإمام ابن حنبل للأمة الإسلامية كتابه (المسند) . فقد أجزل الفائدة والبركة على السنة الإسلامية من ناحية تطهيرها من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهو أول كتاب ، وثمرة للنشاط الأهلى الشعبي تجاه خدمة السنة ، دفعت إليه البواعث الدينية المخلصة وحرصت عليه الذمة الأمينة الواعية ، ودونته الأخلاق العفيفة المتوثبة الزاهدة الورعة المتشددة فى الحق التى لا تلين قناتها لجحافل الغى والسطو والظلمات .

ولكأنما الإمام ابن حنبل بهذا العمل الجليل قد دعا لكل نشاط أهلى يقدمه الأفذاذ فى الأمة الإسلامية إلى دينهم بالبركة والفلاح والنفع العميم .

فما زالت الحياة حتى وقتنا هذا تشهد جلائل الخدمات للدين من الجماعات التى قوى فى دمها وضميرها وقلبها حقيقة الإسلام فقدمت أموالها تبنى لأبناء الإسلام : المدارس والمعاهد والمصانع والمستشفيات ومدارس تحفيظ القرآن ، ولسوف يبارك الله فى هذه الجهود كما بارك بالمسند فى السنة المطهرة .

٢ — وعلة تسميته بالمسند : أن الإمام ابن حنبل اتخذ له أسلوباً جديدا فى جمع السنة وتدوينها :

١ — تخليتها من آراء الصحابة ومأثورات التابعين .

٢ – تجريدها من الأحكام الفقهية والتفسيرات اللفظية .

٣ – إسناد كل أحاديث الراوى إليه جملة واحدة :

فهو مثلا : يقسم المسند إلى : مسند أبى بكر ويذكر فيه كل ما ورد عن أبى بكر رضى الله عنه غير مراع أبواب الفقه أو العلم ، فيذكر له على ما قاله العلماء ٨١ حديثاً .

ثم يذكر الأحاديث التى رواها عمر بن الخطاب فيسند إليه ٣١٠ (ثلاثمائة وعشرة أحاديث) .

ثم يذكر أحاديث عثمان بن عفان ويسند إليه ١٦٣ حديثاً . . . وهكذا يذكر الراوى ثم يسند إليه كل ما رواه من أحاديث ، فسمى ذلك (المسند) أى : الكتاب الذى أسندت فيه مرويات كل محدث إليه جملة واحـــدة .

٣ – درجته : يروى أبو موسى المدينى تلميذ الإمام المحتسب ابن حنبل أن المسند كله حجة وما فيه إلا صحيح مستدلا بقول شيخه : «ما اختلفتم فيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا إليه ، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة »

وقال قوم : فيه الصحيح ، والضعيف ، والموضوع ، ومن أولئك القوم الذين ذهبوا إلى هذا الرأى ابن الجوزى فقد ذكر فى موضوعاته ٢٩ حديثاً .

ولكن الحق الذى يجب أن يتثبت منه العلماء هو :

هل لمثل شخصية أحمد بن حنبل الورعة الأمينة الفاحصة أن يدخل عليها حديث موضـــوع ؟

١ – لقد كان الرجل زاهداً غاية الزهد حتى أنه ليرد المنح مع حاجته ليعمل ويكتسب لا من أجل أن يعيش بل من أجل أن يرتحل إلى طلب العلم .

٢ – وزاوج بين الحفظ والكتابة فيما رويناه أنه يقول : « لا تحدث إلا من كتاب » و« الكتاب أحفظ شىء » .

٣ ــ أنه ما كان يقبل الحديث إلا بعد التثبت وتمحيص الإسناد وقد سمعتموه يقول فيما رويناه: « من لم يجمع علم الأحاديث وكثرة طرقها واختلافها لا يحل له الحكم على الحديث ولا الفتيا به » .

٤ ــ إن الرجل لم يجلس للدرس وتبليغ الرسالة إلا بعد أن استأنس عمره برفاقة الأربعين ، عندما صح العزم ، واستحصد العمر ، وقويت الهمة ، واكتملت المعارف وضوحاً ودقة .

٥ ــ وأنه رد حديث « لأن يؤدب الرجل ولده أو أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع » ، لأن فى سنده ناصحاً ، وهو ضعيف فى الحديث .

فكيف يتصور العقل العامى وجود حديث موضوع فى مسند المحتسب ابن حنبل ؟

إذا لابد من البحث عن حقيقة الأمر فيما يتفق مع الحق وجهود الشيخ ومنزلته .

وإنكم لترون الحقيقة : أن الحديث الذى وجد موضوعاً فى المسند لم يكن من عمل الشيخ نفسه ، وإنما كان ذلك من عمل رجل آخر .

فيروى أن الإمام أحمد بن حنبل قد توفى والمسند بعد لم يرتب فقد تركه أوراقا منفردة . وأن ولده عبد الله ، وتلميذ الإمام أحمد بن حنبل أبا بكر القطيعى قد أضافا إلى المسند أحاديث لم يكن لها جودة التمحيص الذى جمع به الإمام المسند ، فلما فحصها العلماء وهاها قانون ضبط السنة بقواعده المتينة،ونحن لا نستطيع أن نحمل الإمام تبعة هذه الفعلة ، كما أننا لا نعفى ولد الشيخ عبد الله وتلميذه أبا بكر القطيعى من فحش مافعلوه ، خاصة : وقد قدم الإمام نصيحته إلى أولاده الثلاثة : صالح وعبد الله وحنبل فيما يرويه حنبل عن أبيه الإمام : قال جمعنا أحمد بن حنبل ، أنا وصالح وعبد الله وقرأ علينا المسند وقال لنا : هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر

من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفاً (٧٥٠٠٠٠) فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا إليه فإن وجدتموه . . . وإلا فليس بحجة .

فالشيخ ألزم أولاده بما فى المسند ، ولم يسمح لهم بالزيادة عليه ، وأخبرهم أنه انتقاه من ٧٥٠٠٠٠ فما كان ينبغى لعبد الله أن يضيف حديثاً واحداً ، وإنما كان ينبغى أن يرجع إلى المسند إذا اختلف المسلمون فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا كان فى المسند فهو صحيح ، وإلا فليس بحديث .

ومن هنا ندرك أن المسند صحيح كما قال الشيخ ، وإنما زيادات ولده التى لم تنل قسط التمحيص هى التى سببت ذلك الشك وهى ليست من المسند فى شيء .

وكذلك أمر أبى بكر القطيعى ، فقد أدخل على المسند بغير إذن الشيخ أو منهجه ، مخالفاً أمره لطلابه : (لا تحدث إلا من كتاب) ، فالشيخ أجاز له التحديث بشرط أن يكون من كتاب لا من حفظ واستظهار ، وقد أمر بذلك وفعل ذلك تدريباً لهم ، ولكن القطيعى تجاوز الإجازة ، واستباح لنفسه الزيادة فعاد بإثم ما فعل ،

يقول ابن تيمية فى منهاج السنة « لا يروى من المعروفين بالكذب عنده ، وإن كان فى ذلك ما هو ضعيف ، ثم زاد عبد الله بن أحمد زيادات منكرة على المسند ضمت إليه ، كذلك زاد أبو بكر القطيعى ، وفى تلك الزيادات كثير من الأحاديث الموضوعة فظن من لا علم عنده أن ذلك من رواية أحمد فى مسنده » .

ومن هنا تستوضحون أن الحكم على حديث فى المسند بأنه موضوع رجماً بالغيب ، وخبط عشواء ، وبعداً عن المنهج العلمى الواعى الدقيق . ولذا فنحن لا نوافق على تفسيرات الحافظ العراقى لكلمة الإمام أحمد ابن حنبل . . « وإلا فليس بحجة » يعنى أن ما ليس فيه ليس بحجة لا أن كل

كل ما فيه حجة ، لأن الإمام مع كونه محدثاً فهو فقيه محتاط مدقق وقد علمتموه يقـــول :

إذا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد ، وإذا روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضائل الأعمال وفيما لا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا .

ومن هذا النص ترون :

١ – أن ليس فى المسند حديث واحد موضوع .

٢ – وأن الأحاديث المتعلقة بالتشريع قوية مبحوثة كل أسانيدها بدقـــة .

٣ – وأن أحاديث الوعظ والإرشاد وترقيق القلوب متساهل فى بحثها لأنها لا تضر التشريع ولا تتعلق به ألبتة .

وهذا إن أفاد وجود حديث ضعيف فإنه لا يقوى أن يكون دليلا على وجود حديث موضوع .

ولذلك فنحن نميل إلى الذى قاله ابن تيمية ، والسيوطى والذهبى ، وابن حجر ، من أن المسند فيه الصحيح والضعيف والذى يقرب من الحسن .

ومقصودنا من هذا المسند : الكتاب الذى انتقاه الإمام مجرداً من إضافات ولده عبد الله وتلميذه أبى بكر القطيعى .

وأن الصحيح فى المسند خاص بإحكام التشريع .

وأن الضعيف خاص بالأخلاق والآداب والمواعظ كما نص الإمام على ذلك فى أقوالـــه .

يقول الشافعى رضى الله عنه : خرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل. فكيف بواحد من بعد الشافعى يجرؤ وهو سليم العقيدة مؤدب المشاعر فيتهم ابن حنبل بتقبل الحديث الموضـــوع ؟

وإنما هى قواعد البحث التى تجنب الإنسان الخطأ أو توقعه فى الشبهات وما ينجو منها إلا المخلصون ، وقليل ما هم .

عناية الأمة بالمسند وعدد أحاديثه :

(ا) عدد الأحاديث :

١ — فيما ينقله لنا الشيخ الجليل محمد الطيب النجار عدد أحاديث المسند ثلاثون ألفاً منها ثلاثمائه حديث ثلاثية الإسناد بين راويها وبين النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة محدثين :

٢ — وفى رواية الدكتور السباعى أربعون ألف حديث منها عشرة مكررة تخيرها الإمام أحمد بن حنبل من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفاً ، كان يحفظها .

رواية الدكتور السباعى لا تختلف مع رواية الشيخ النجار لأن الزيادة كانت من تكرار الأحاديث التى اتفق رواتها فى المسانيد .

(ب) اهتمام العلماء به :

وقد نال المسند حظاً وافراً جليلا من اهتمام العلماء به :

١ — فقد تحدث عن خصائصه : الشيخ أبو موسى المدينى تلميذ الشيخ ابن حنبل فى كتابه خصائص المسند. ومما قاله : وهذا الكتاب أصل كبير ، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير وموسوعات وافرة فجعله صاحبه إماماً ومعتمداً ، وعند التنازع ملجأ ومستنداً .

ويقول أيضاً : ولم يخرج إلا عمن ثبت عنده صدقه وأمانته دون من طعن فى أمانته .

٢ — وقد جمع غريب المسند الشيخ أبو عمر محمد بن عبد الواحد وشهرته (غلام ثعلب) المتوفى عام ٣٤٥ ﻫ .

٣ — واختصره الشيخ سراج الدين المعروف بابن الملقن الشافعى المتوفى عام ٨٠٥ ﻫ .

٤ — وشرحه أبو الحسن بن عبد الهادى السندى المتوفى عام ١١٣٩ ﻫ . ويعتبره الشيوخ شرحاً وافياً كبيراً .

٥ – ورتب أبوابه على الموضوعات الحافظ ناصر الدين بن رزيق .

٦ – ورتبه على الحروف المعجم الحافظ أبو بكر المقدسي .

٧ – ورتبه على سبعة أقسام تتعلق بالعقيدة والتشريع والوعظ الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا وشهرته الساعاتي فقد قسمه إلى سبعة أقسام :

– قسم التوحيد وأصول الدين – قسم الفقه .
– قسم التفسير . – قسم الترغيب .
– قسم الترهيب . – قسم التاريخ .
– قسم القيامة وأحوال الآخرة .

وسماه (الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) .

٨ – وقد قام المرحوم الشيخ أحمد شاكر بتحقيق وتخريج عدة أجزاء من المسند، بين درجة الحديث ، وعلق على أحوال الرواة ، وقد حاول الدكتور الحسيني هاشم الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية تكملة عمل المرحوم الشيخ شاكر لكنه توجه إلى خدمة السنة بعمل آخر نسأل الله له التوفيق .

الإمام البخارى
وجامعه الصحيح

(ا) حياتـــه :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزيه الجعفى ، إمام المحدثين ، وشيخ الحافظين ، ولد فى يوم الجمعة ١٣ من شوال ١٩٩ هـ ببخارى إحدى الجمهوريات الإسلامية فى داخل الاتحاد السوفيتى حالياً وتسمى بخارستان .

توجه إلى حفظ الحديث وهو طرى البنان غض الوجدان ، بعد أن حفلت روحه شغفاً بالحديث فدأب عليه ورحل إليه حتى طاف بأشهر الأمصار الإسلامية التى عرفت بإيوائها أفذاذ العلماء فى الحديث .

يروى لنا البخارى عن نفسه فيقول : دخلت الشام ، ومصر ، والجزيرة مرتين ، وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ، ولا أحصى كم دخلت الكوفة ، وبغداد مع المحدثين . . .

١ ــ متانة علمه :

كان الزمن قد استدار فانحرف الناس عن الجادة وانفلتت الشهوة من عقالها تطغى على القيم ودخل المرتزقة باسم الدين فى أحضان الحياة يشترونها بالدين والخلق ، ومن كانت تلك خلته قلت همته عن البحث والعلم والمعرفة ، فلم يملك أولئك الأدعياء فى نفوسهم تجاه العلماء المخلصين إلا أن يبثوا فى صدورهم حقداً وحسداً وكراهية وعداوة ، لأن العلماء يتبعون الحق والدين والخلق والشرف ، وهو أمر من شأنه أن يحقر الجهل والدناءة والانحراف والارتزاق ، وهو إلى جوار ذلك يفضح الجهل ويقصم التكبر ويفحم الكبرياء العيي ، وكان محمد بن إسماعيل البخارى عالم عصره ، وشيخ حفاظ زمانه وإمام البصرة فى ضبط السنة ، واختبار الرجال والأسانيد ،

ومع ذلك فهو متين الحفظ جيد العارضة ، سريع الإدراك قوى البديهة واسع الحجة ، أمين السنة وسادن الحديث .

وكان الأدعياء المرتزقة باسم الحديث فى بغداد وسمرقند قديما قد أزعجهم أمر البخارى الذى طبق ذكره الآفاق ، واستهوى الألباب ، واستحوذ على العقول والقلوب ، فاجتمعوا له فى شكل مؤتمر عام للاختبار والامتحان ورووا له الأحاديث مضطربة الأسانيد ، فجعل رضى الله عنه يرد كل إسناد إلى حديثه ، ويصحح كل إسناد خلخله الحقد ، بسؤال الاختبار ، فى رصانة العالم الواثق ، وهدوء المجرب المتمكن وثبات الحبير المدقق ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ، فسلموا له بالفضل والشرف والرياسة والسبق والإجادة والأمانة .

يقول محمود بن الناظر بن سهل الشافعى : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ، ورأيت علماءها ، كلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل البخارى فضلوه على أنفسهم .

(ب) شخصيته :

كان البخارى رضى الله عنه شيخاً رحالة يجوب البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها طلباً للحديث الذى دقق فى قواعد تقبله ، فاتصل بالعلماء المخلصين وهم قليل، وارتبطت صلته بحكم العمل ، بالأدعياء من المنتسبين للعلم ، كذلك اتصل بالولاة والحاكمين . وهذه العلاقات تقدم لنا مدلول شخصية الإمام البخارى ، إنها شخصية جديدة فى عالم الحديث فى عصر امتلأ بالنفاق والمرتزقة والحكام الجاهلين ، أما العلماء القلة فقد وقروا البخارى ، واحتفظوا له بالسبق عليهم وشرف الأمانة ودقة التمحيص ، وعلو القدر .

وأما الأدعياء فقد أوغروا عليه صدور الحكام ليخرجوه من بلادهم حتى لا يقطع عليهم شهوة الجهل التى تتلصص على حياة الناس فتسرق حاضر أعمارهم وتفسد مستقبل حياتهم ، وتوهي آمال ذريتهم .

١ — فعندما قهر علماء سمرقند أراد أن يتجه إلى بخارى مسقط الرأس ومنية الفؤاد ، فاستقبله شعبها المسلم بالحفاوة الجليلة وجليل التقدير والاحترام ولما رأى الأدعياء المرتزقة إتساع درسه ، وانتشار علمه الذى يبدد الظلمات ويحيي الآمال ، ويصحح الأخطاء ، ويوقظ النيام ، ويستحث السكارى ، كرهوه وأبغضوه كما يبغض الظلم العدل والباطل الحق والفساد الإصلاح ، فوشوا به زوراً وبهتاناً عند خالد بن أحمد الزهلى فصدقهم ووقعت الوحشة بين الوالى والإمام ، فتعكر الماء لصائدى الدود العاجزين على خوض النهر للرزق الحلال فضاق صدر الإمام فقال مستعيناً بالله : وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد (١) .

شخصية قوية تتحمل من أجل انفرادها بالتمسك بالحق كل أذى وتصبر لأنها تعتقد أن فساد الجيل يحتم وجود قيادة إسلامية أمينة تنفيذاً للميثاق الإلهى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (٢)

٢ — وبينما هو فى همه جاءه رسول من أهل سمرقند يدعوه ليرحل إليهم ، فاستجاب له ، وفى الطريق نزل على خالد بن جبريل فى قرة خرتنك على بعد فرسخين من سمرقند ، ولكنه يسمع أن اختلافاً شديداً قد وقع بين العلماء والأدعياء يكاد يأكل الباطل فيه الحق وتضطرم به الفتنة ، فضجر وتوجه إلى الله يدعوه : اللهم قد ضاقت على الأرض بما رحبت فاقبضنى إليك ، ثم اضطجع ففاضت روحه الطاهرة إلى الله الذى استجاب دعاءه ، وكان ذلك فى ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ ، ودفن بخرتنك يوم العيد ، وعمره ٦٢ عاماً إلا أياماً قلائل ، فذهب إلى ربه يعطيه حتى يرضى ، وترك الحياة جيفة تتلذذ بها أفواه الطالبين الأدعياء ، فليأكلوا كثيراً وليضحكوا فسوف يبكون أكثر ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ، وكل امرىء بما كسب رهين .

(١) غافر أو المؤمن : ٤٤ .
(٢) آل عمران : ١٠٤ .

(ج) الجامع الصحيح : (١)

١ – من أجل ما قدمه المجاهدون فى سبيل الله بالقلم والعلم كتاب الجامع الصحيح (للإمام البخارى) الذى شدد فى شروط منهجه ، وأطال فى سنى عمله فأتمه بعد ستة عشر عاماً ، أتم فيها الرحلة إلى كل مصر علمى مرة أو مرتين أو ثلاثاً من أجل البحث عن إسناد متن أو حديث صحيح .

رحلة طوافه غايتها الله ورسوله صلّى الله عليه وسلم ، ومهمتها الحفاظ على أصول الثقافة الإسلامية دون ما طلب لشهرة أو بحث عن رزق أو أمل فى مركز أو وراء منصب ، وإنما حب للحق ، وصاحب الحق من أجل أمة الحق، وجهاد فى سبيل الله ،فليس فى بصيرة المسلم غاية أسمى من رضوان الله ، والحديث يقول : من حفظ على أمتى أربعين حديثاً فى شئون دينها ودنياها بعث يوم القيامة أمة وحده (٢) .

٢ – وقد شعر العلماء أن معركة الحق من المزورين والمشوهين والمشوشين ، والمشككين ، ما زالت قائمة وأن السنة لم تزل فى حاجة إلى إلى تصفية المعركة من الخصوم لتقدم فى ثوبها الأصيل بريئة من تحريف الغالين نقية من انتحال المبطلين ، مهذبة من تأويل الجاهلين .

فسمع البخارى من شيخه هذه الرغبة وهو يقول ، فيما يرويه لنا الدكتور السباعى عن سبب اشتغال البخارى بجامعه الصحيح ، وكان قد سمع مرة من شيخه إسحق بن راهويه يقول لتلاميذه : لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال البخارى : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح .

---

(١) للإمام البخارى كتب كثيرة منها : الأدب المفرد ، والتاريخ الكبير ، والصغير والأوسط ، والضعفاء ، وأسماء الصحابة ، والعلل ، والكنى ، والفوائد ، والمبسوط ، وأفعال العباد ، والقراءة خلف الإمام ... إلخ .

(٢) وفى رواية ابن النجار من حديث أبى سعيد صحيحاً « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من سنتى أدخلته يوم القيامة فى شفاعتى » . وللحديث ألفاظ وروايات أخرى من طريق ابن عبـــاس .

٢ – منهج البخارى فى التدوين :

(ا) طالع الإمام البخارى مناهج التدوين بفكرة جديدة ومسلك ورع وشروط دقيقة قاسية :

١ – فقسم كتابه إلى عدة أبواب : كتاب الصلاة ، الزكاة ، الصيام . . . . إلـــخ .

٢ – ووضع فى كل باب الأحاديث التى وردت فيه ، وكان قبل كتابة الحديث يغتسل ويصلى ركعتين ويستخير الله تعالى فى تدوينه .

٣ – لم يقبل البخارى إلا الحديث الذى ثبت أنه صحيح واكتملت فيه شروطه .

(ب) وجعل شروطه غاية فى الدقة :

١ – شروط فى الراوى :

(ا) **العدالة** : وهى ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة ، بمعنى اجتناب الأعمال السيئة من فسق وفجور ، والصيانة من الدنس ، والترفع عما يشين ، ويذهب الكرامة والهيبة فى نظر الناس .

(ب) **الضبط** : وهو ضبط الفؤاد فيحفظ ما يسمع صحيحاً من الخطأ مع القدرة على استحضاره متى شاء ، وكذلك ضبط الكتابة مع السلامة من التحريف والخطأ .

(ج) **المعاصرة مع اللقاء** : فلا بد للراوى أن يكون معاصراً للراوى عنه وقد ثبت لقاؤه معه .

(د) **والسماع منه** : لا يكفى اللقاء بل لابد من السماع منه ، سماعاً طويلا فى السفر أو الحضر بقدر يحقق مسئولية التحديث .

٢ – شرط فى الحديث :

أن يكون الحديث صحيحاً غير ضعيف ، وحده فى عرف العلماء : ما رواه عدل تام الضبط متصل السند غير معل ولا شاذ ، وتطبيقه عند البخارى ، ما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر ، أو مثل هذا الطريق .

(جـ) درجة الجامع الصحيح :

تكاد الثقة العلمية تعم الفكر الإسلامى فى تقبل آراء الشيوخ القدامى الذين يجعلون الجامع الصحيح للبخارى فى المرتبة الأولى على جميع كتب السنة :

١ — لما بذله الشيخ من كل الطاقات فى عملية الجمع .

٢ — ولدقة الشروط وقسوتها .

٣ — وللقلة القليلة التى أخذت على أحاديثه رغم أنها فى نظر العلماء غير مشينة لأنها من شيوخ البخارى وتعتبر له قولا خاصاً .

يروى أن البخارى لما أتم جامعه الصحيح عرضه على : أحمد ، وابن معين ، وابن المدينى وجلة من العلماء الثقاة فشهدوا له بالصحة إلا فى أربعة أحاديث ، وقال فيها العقيلى: القول فيها قول البخارى فلا مأخذ عليه ، وابن الصلاح يجزم بصحة ما فى البخارى من الحديث ، والجمهور على أن الجامع الصحيح هو أصح كتاب فى السنة ويعتبرونه بعد القرآن عند البحث والاجتهاد .

(د) عدد أحاديثه :

ذكر ابن حجر فى مقدمة فتح البارى أن عدد أحاديث صحيح البخارى ٧٣٩٧ حديثاً بالمكرر سوى المعلقات والموقوفات والمتابعات ، وبدون المكرر الأحاديث الموصولة فقط ٢٦٠٢ حديثاً .

وعلة التكرار : أن البخارى رحمه الله كان يذكر الحديث فى كل باب يتصل بجزء منه : مثل حديث بنى الإسلام على خمس يذكره فى باب التوحيد ، وفى باب الصلاة وفى باب الزكاة . . . إلخ لمطابقة كل جزء منه للترجمة التى عنون بها لأقسام الجامع الصحيح .

(هـ) عناية العلماء به :

احتل صحيح البخارى مكانة مرموقة بين العلماء فاعتنوا به عناية فائقة أخذت المكانة الثانية بعد اعتنائهم بالقرآن الكريم : فشرحوه بكل قدر

حتى وصلت شروحه إلى اثنين وثمانين ما بين المطول والمختصر والمجمل والمفصل .

– فمن الشرح المجمل : شرح الإمام الخطابي في مجلد واحد مات عام ٣٠٨ هـ .

– ومن الشرح المفصل : شرح محي الدين بن محمد بن يعقوب الشيرازى مات ٧١٧ هـ ، وقد شرح قسم العبادات فقط فى عشرين مجلداً .

– ومن الشرح المختصر : إرشاد السارى والقارى لبدر الدين الحلبى ٧٨٩ هـ .

– وكذلك شرح : الحسين بن المبارك الزبيدى م ٧٩٣ هـ المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح .

– ومن الشرح المتوسط : فتح البارى لشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن على بن حجر العسقلانى م ٨٥٢ هـ .

أشهر الشروح :

– ذكر صاحب كشف الظنون أن أشهر هذه الشروح التى زادت على الثمانين ، أربعة :

١ – التنقيح للإمام بدر الدين الزركشى م ٩٧٤ هـ .

٢ – عمدة القارى : للعلامة العينى الحنفى م ٨٨٥ هـ .

٣ – الترشيح : للجلال السيوطى م ٩١١ هـ .

٤ – فتح البارى : لشيخ الإسلام ابن حجر م ٨٥٢ هـ وهو أجل الشروح وأوفاها وأشهرها وأكثرها فائدة .

– ويذكر صاحب صفوة صحيح البخارى فى مقدمة الجزء الأول أن أشهر المختصرات فى شروح صحيح البخارى :

مختصر أحمد بن عمر الأنصارى القرطبى م ٦٥٦ هـ .

وبعد حياة حافلة بالعلم والترحال والمناظرة والجلد والصبر على كيد المصدورين بالحقد وكراهية الخير سعى البخارى إلى رحمات الله بعد أن

أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، وقطع ألسنة المتشدقين وضمن للسنة ثباتاً بجامعه ووقاراً بصحيحه ، وبعد أن دعا فاستجاب له الله فأكرمه ونعمه فأخذه إلى جواره فى جنات الخلد مع الصديقين والشهداء .

رحم الله البخارى وجزاه عن الإسلام وسنته خير الجزاء ، وهدى الله الناس للسلوك القويم على المحجة البيضاء وبالله التوفيق والسداد .

الإمام مسلم

وجامعه الصحيح

(ا) حياته :

١ – هو الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، أحد الأعلام المحدثين الثقات المشاهير ولد فى نيسابور سنة ٢٠٤ ﻫ .

٢ – طلب العلم منذ الصغر ، ومن كثرة الشغف خف إلى الأمصار يتامس الشيوخ ، فالتقى بشيوخه : البخارى ، المدينى ، وأحمد ، وجمع غفير من المجاهدين الأتقياء ، كذلك أخذ عن البخارى وتتلمذ عليه ، وقد كان مسلم النيسابورى شديد الحب للبخارى ، يحمل له عظيم التقدير والاحترام ، وقد تأسى به فى تدوين صحيحه .

٣ – سافر إلى العراق ، والشام ، ومصر ، وتلقى العلم فى كل مدينة ، على أفذاذ شيوخها ، وعاش مجاهداً مخلصاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياة هادئة مستقرة بعد أن استقر بالبخارى مستقبل السنة ، وثبتت أصولها . وقواعدها . فلم يجد أصدقاؤه ، وتلاميذه من بعده عناداً ولا جهداً ، واستمر مسلم فى أداء الرسالة حتى قبضه الله إليه فى عام ٢٦١ ﻫ ، بعد أن قدم مع المجاهدين كتابه الجامع الصحيح فأضاف به فناً يدرك به الحاذقون أصول التأليف ، والتدوين ، كأساس للبحث ، والتقسيم ، والترجمات .

(ب) شخصيته :

لم تكن انفعالات الأحداث فى حياة مسلم على شاكلة ما كابده الشيوخ الأوائل فقد تغيرت ظروف الحياة وخف ضغط الجهلاء والأدعياء ، والسوقة ، وبات العلماء فى بحبوحة من السعى والعمل ، لذلك : كانت شخصية الإمام الجليل مسلم هادئة وقورا ليس فيها ما يثير حميتها وغيرتها ، فانطلقت فى عباداتها لله تعالى وجهادها لله ولرسوله ، تردد الدليل والطريق : قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى .

(جـ) الجامع الصحيح الثانى : (١)

١ — على جانب من الطريق الذى رسمه البخارى يتأسى صديقه الشيخ الإمام مسلم فدون كتابه « صحيح مسلم » .

٢ — وحدد منهجه على الأخف مما اشترطه الإمام البخارى :

— فهو يشترط : العدالة ، والضبط فى الراوى .
— وأن يكون الحديث صحيحاً غير معل ولا شاذ .
— ويكفى المعاصرة وإمكان اللقيا بين المحدثين .

ولكنه أضاف إلى المنهج جديداً فى تدوين السنة :

١ — فهو لم يقطع الحديث ولم يكرر الإسناد بل جمع كل ما ورد فى الحديث فى باب واحد من طرقه التى ارتضاها هو وأسانيده المتعددة ، وألفاظه المختلفة .

٢ — أنه فى تدوين الأسانيد ابتكر طريقة التحويل عند وصول أحد الطريقين إلى المحدث الذى أخذ منه الطريق الآخر ، بمعنى : أنه إن كان للحديث الواحد طريقان كلاهما أخذ من راو واحد : يذكر مسلم الطريق الأول حتى الراوى الأساسى ، ثم يذكر عبارة التحويل ، ويذكر الطريق الثانى ، ويستمر فى التسلسل حتى النبى صلى الله عليه وسلم وهى طريقة مبتكرة فنية لم يسبقه إليها واحد من قبل .

(د) درجته :

يتفق العلماء على أن صحيح مسلم له المنزلة الثانية بعد صحيح البخارى لأسباب ذكرها الشيوخ منها :

١ — دقة شروط البخارى وتساهل شروط مسلم .
فالبخارى يشترط المعاصرة واللقيا والسماع الذى يحقق معنى التحديث .

ومسلم يشترط المعاصرة مع إمكان اللقيا ، وإن لم يتلاقيا .

---

(١) وللإمام مسلم كتب كثيرة منها : الأسماء والكنى ، المسند الكبير ، أوهام المحدثين ، التاريخ ، التمييز ، أولاد الصحابة ، الوحدان ، المخضرمين ... إلخ .

٢ — دقة منهج البخارى فى استنباطات فقهية لا توجد فى صحيح مسلم .

٣ — دقة تحرى البخارى فى أحوال الرجال ، وقلة المتكلم فيهم عنده من الرجال الذين تكلم فيهم علماء الجرح والتعديل عند مسلم .

٤ — قلة الأحاديث الشاذة عند البخارى عن مسلم .

٥ — اعتراف مسلم للبخارى بالدقة والجودة والأخذ عنه .

لهذا يكاد يكون الإجماع متفقاً عليه عند العلماء على ترجيح البخارى على مسلم .

وعلى أية حال : فالأحاديث التى اتفق عليها البخارى ومسلم يراها العلماء أولى من التى فى البخارى وحده .

والأحاديث التى فى البخارى فقط يقدمها العلماء على الأحاديث التى فى مسلم فقط . ومعناه :

أن مسلم يستوى مع البخارى فى كل الأحاديث المروية فى صحيحهما . ويقدم على كل كتاب ولكن الكلام فى الأحاديث التى رواها البخارى وحده ، أو رواها مسلم وحده : هنا يكون كلام العلماء ويكون ترجيح أحاديث البخارى على مسلم لما ذكروه آنفاً من الدقائق والاشتراطات .

ومن هنا تستوضحون أن الكلام فى تفضيل البخارى على مسلم على عمومه ليس من الدقة العلمية لاشتراكهما فى مجموعة من المرويات ، وجودها فى مسلم ووجودها فى البخارى يوجد المنزلة بينهما وإن اختلفت شروط الشيخين لكن المرويات غير المشتركة هى أصل الكلام فى التفاضل ؟

فرويات البخارى تقدم لدقة شروطه ، وتعقبها مرويات مسلم لأنها الرديفة فى الدقة والشروط .

(ه) عدد أحاديثه ، وعناية العلماء به :

١ — عدد العلماء أحاديث صحيح مسلم فبلغت بالمكرر ٧٢٧٥ حديثاً ، وبغير المكرر ٤٠٠٠ حديث .

٢ ـ وقد احتفل به كثير من العلماء فأولوه عناية فائقة . يقول صاحب كشف الظنون : وقد شرحه كثير من الأئمة الحفاظ ثم ذكر منها خمسة عشر شرحاً من أشهرها :

١ ـ شرح الإمام الحافظ أبو زكريا يحيى بن شرف النووى الشافعى م ٦٧٦ هـ .

٢ ـ ومختصر أحمد بن عمر القرطبي م ٦٥٦ هـ .

٣ ـ ومختصر : الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى م ٦٥٦ هـ .

٤ ـ وقد شرح جملة من أحاديث مسلم الأستاذ الشيخ الدكتور موسى لاشين فى كتاب سماه : فتح المنعم فى خمسة مجلدات .

وبعد هذه الحياة الفاضلة الهادئة المليئة بالعلم والصلاح لحق الشيخ إلى جوار ربه مع أصحابه مع المجاهدين فى جنات عدن ، وكانت وفاته فى عام ٢٦١ هـ ، رحمه الله رحمة واسعة . وأجزل له المثوبة وحسن العطاء .

أصحاب السنن

تقديـــم :

المراد بالسنن : الكتب التى جمعت الأحاديث النبوية المتعلقة بالأحكام والأعمال دون الآداب والفضائل والأخلاق .

وهى لا تفرق بين الحديث : الصحيح والحسن ، والضعيف ، ولكنها لا تقبل ألبتة الحديث الموضوع لورع أصحابها وتقواهم وعلو همتهم .

وكتب السنن فى نظر العلماء فى المرتبة الثالثة بعد البخارى ومسلم ، وهى فى هذه المرتبة الثالثة على درجات : أولها النسائى ، لما رواه الحافظ ابن حجر : « كم من رجل أخرج له أبو داود والترمذى تجنب النسائى إخراج حديثه »

ولسوف نتوجه فى دراستها — ولو بقدر — على نحو ما رتبها العلماء :

المجتبى : للنسائى .
السنن : لأبى داود
الجامع : لأبى عيسى الترمذى .
السنن : لابن ماجه .

أولا — الإمام النسائى وسننه :

١ — حياتـــه : هو أبو عبد الرحمن بن شعيب الخراسانى النسائى ، إمام عصره ، وقدوة علماء الجرح والتعديل . ولد سنة ٢١٥ هـ فى قرية تسمى « نساء » بخراســـان .

٢ — تناول العلم من كبار الشيوخ فى عصره ، فرحل من أجله إلى الحجاز ، والعراق ، ومصر ، والشام ، والجزيرة بعد أن أخذ عن علماء وطنه فى خراسان .

٣ — كان رحمه الله ورعاً دقيقاً شديد الحفظ ، ذكياً حافظاً ، متقناً ، قال فيه الذهبى « كان أحفظ من الإمام مسلم » .

كتابه المجتبى :

١ – للنسائى كتابان :

(ا) **سننه الكبرى** : جمعها أولا مشتملة على الصحيح والمعلول ، لأن الاتجاه فى هذا الدور كان يدور حول الحديث ذى الصيغة الحكمية الذى يحمل حكماً واجباً أو سنة .

(ب) **المجتبى** : ثم اختصر النسائى كتابه الأول وأسماه المجتبى ومعناه « المنتقى » .

٢ – درجته :

يلى الصحيحين ، ويقدم على كل سنن أتت من بعده ، ذلك لما عرف عن الشيخ من تحريه للرجال حتى قال فيه ابن حجر « كم من رجل أخرج له أبو داود والترمذى تجنب النسائى إخراج حديثه » .

عناية العلماء به :

اعتنى العلماء بالمجتبى من السنن وتناوله كثير منهم بالشرح ومن أشهرهم :

١ – زهر الربى على المجتبى : جلال الدين السيوطى م ٩١١ هـ .

٢ – شرح المجتبى : للشيخ محمد عبد الهادى السندي م ١١٣٨ هـ .

ولكنه اقتصر فيه على :

١ – ضبط اللفظ .

٢ – وإيضاح الغريب .

وبعد أن أدى الرسالة وخدم السنة ناداه ربه فاستجاب له ، وكانت وفاته بالرملة سنة ٣١٣ هـ أفسح الله له فى جنته وألحقه بأصدقائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

---

(١) وليت مؤيداً المذهب الحديث الذى يدعى رد هذا الكتاب ورفض نسبته إلى النسائى ، فمن سبقنا كانوا أعلم منا وأتقى وأطهر . . فلهذا العالم كتب جمة منها : الكنى والأسماء ، الجرح والتعديل ، التمييز ، مناسك الحج ، خصائص على ، الضعفاء ... إلخ . فليس الرجل نكرة فى باب الحديث ، بل علم من أعلامه الموقرين .

ثانيا : الإمام أبو داود وسننه :

١ — حياته : هو سليمان بن الأشعث بن إسحق الأسدى السجستانى ولد عام ٢٠١ هـ .

٢ — رحل إلى طلب العلم ، فسافر إلى خراسان ، ومصر والشام ، والعراق وسجل عن علمائها علمهم ومعارفهم ، كذلك أخذ عن مشايخ البخارى ومسلم مثل : أحمد ، وابن شيبة ، وقتيبة بن سعيد . . . وغيرهم .

٣ — رضى عنه الشيوخ وأثنوا عليه بالحفظ وجودة الفهم ، وحسن الدين والورع ، قال فيه الحاكم أبو عبد الله : « وكان أبو داود إمام أهل الحديث فى عصره بلا مدافعة » .

سننه :(١)

١ — توجه الشيخ أبو داود إلى جمع أحاديث الأحكام فقط ، فكل حديث يحمل حكماً فقهياً اعتنى به واحتفى . وقد جمع كتابه السنن من بين خمسمائة ألف حديث فبلغت منتقاها أربعة آلاف كلها التى استدل بها فقهاء الأمصار وبنوا عليها فقههم وأحكامهم ، قال فيه سليمان الخطابى : فى معالم السنن « اعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبى داود كتاب شريف لم يصنف فى علم الدين كتاب مثله ، وقد رزق القبول من كافة الناس فصار حكماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم »

٢ — درجته : يجعله العلماء بعد المجتبى للنسائى لما صرح هو بنفسه قال : ذكرت فيه الصحيح وما أشبه وقاربه ، وما كان فى كتابى من حديث فيه وهم شديد فقد بينته ، وما لم أذكر فيه شيئاً فهو صالح وبعضها أصح من بعض ، وذلك اعتماداً على مسألتين :

الأولى : أنه يترك حال الرجال إلى الجرح والتعديل .

الثانية : أنه توجه إلى عمل جديد وهو أحاديث الأحكام فإذا صادفه حكم ليس فيه إلا حديث ضعيف أخذ به لأنه أقوى عنده من رأى الرجال .

---

(١) ولأبى داود كتب كثيرة منها : المراسيل ، مسائل الإمام أحمد ، الناسخ والمنسوخ ، فضائل الأعمال ، الزهد ، البعث والنشر ، القدر ... إلخ .

٣ ـ عناية العلماء به :

وقد اهتم العلماء بسنن أبى داود اهتماماً كبيراً فشرحه كثير من الفضلاء الأجـــلاء ومنهم :

١ ـ الإمام أبو سليمان الخطابى م ٣٢٨ هـ فى كتابه معالم السنن . ويقع فى مجلدين كبيرين .

٢ ـ قطب الدين اليمنى الشافعى م ٦٥٢ هـ ، شرحه فى أربعة مجلدات .

٣ ـ شهاب الدين الرملى م ٨٤٨ هـ .

٤ ـ الحافظ المنذرى م ٦٥٦ اختصر بعض شروحه .

٥ ـ ابن القيم (هذب هذا المختصر)

٦ ـ الشيخ محمود خطاب السبكى أخرجه فى عصرنا الحديث بشرح واف مستفيض فى كتابه « المنهل العذب المورود » .

وعلى الطريقة عندما قربت المنية ، وانتهت الوظيفة ، بعد بلوغ الأمانى فى ورع وإيمان وجهاد ، عاد الشيخ إلى دار الحق والبقاء فى عام ٢٧٥ هـ ، ودفن بالبصرة ، أسكنه الله فسيح جناته ، وأسبغ عليه فيض رحماته إنه لا يضيع أجر المحسنين .

ثالثاً ـ الترمذى وجامعه : (١)

١ ـ حياته : هو أبو عيسى بن السلمى الترمذى ، ولد عام ٢٠٩ هـ ، بترمذ .

٢ ـ أخذ الحديث عن جمع غفير منهم قتيبة بن سعيد ، وإسحاق ابن موسى ، وسفيان بن وكيع ، ومحمد بن إسماعيل البخارى ، وغيرهم ، ورحل إلى خراسان ، والعراق ، والحجاز ، يطلب الحديث والعلم حتى غدا إماماً حافظاً ثقة .

---

(١) وللترمذى كتب كثيرة منها : العلل ، الشمائل النبوية ، أسماء الصحابة ، الأسماء والكنى ، الآثار الموقوفة ... إلخ .

٣ — يقول فيه أبو ليلى الخليلى : ثقة متفق عليه ، ويكفى فى توثيقه أن أمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخارى كان يعتمده ويأخذ عنه .

كتابه جامعه :

١ — ألف الترمذى جامعه على أبواب الفقه وغيره ، وجمع فيه الحديث الصحيح ، والحسن والضعيف .

وبين درجة كل حديث فى موضعه ووجه الضعف فيه كذلك بين مذاهب الصحابة ، وعلماء الأمصار فى كل المسائل التى أودعها جامعه ، وجعل لها أبواباً .

ومن مميزات جامعه :

أنه أفرد فى مؤخرته فصلا ذكر فيه قواعد هامة للعمل وفوائد للفقه والحديث .

كما كان يختصر طرق الحديث إذا تعددت ، يذكر منها واحداً ثم يشير إلى غيره .

٢ — درجته : يعتبره العلماء فى المنزلة التى تلى سنن أبى داود .

عناية العلماء به :

وقد اختصه العلماء بمزيد من العناية فتناوله جمع غفير بالشرح هم :

١ — أبو بكر بن العربى م ٥٤٦ هـ .
٢ — سراج الدين البلقينى م ٧١٥ هـ .
٣ — زين الدين الحنبلى م ٧٩٥ هـ .
٤ — جلال الدين السيوطى م ٩١١ هـ .

أما بعد : فيقول صاحب تهذيب الأسماء واللغات : توفى رحمه الله بترمذ سنة ٢٧٩ هـ ، فأسكنه الله جناته وجمعه مع أصحابه الذين أنعم الله عليهم ورفعهم إلى الدرجات العلى .

رابعاً – الإمام ابن ماجه : وسننه :

١ – حياته : هو أبو عبد الله بن يزيد بن ماجة الحافظ ، ولد عام ٢٠٧ هـ ، ورحل فى طلب العلم وارتحل إلى : الرى ، والبصرة والكوفة والشام ، والحجاز ، ومصر ، وبغداد .

٢ – أخذ الحديث من علماء عصره : أبو بكر بن شيبة ، وأصحاب مالك بن أنس ، والليث بن سعد .

٣ – قال عنه أبو ليل الخليلى : وكان عالماً بهذا الشأن صاحب تصانيف منها التاريخ ، والسنن ، وارتحل إلى العراقين ، ومصر والشام .

وقال ابن كثير : صاحب السنن المشهورة وهى دالة على علمه ، وعمله وتبحره واطلاعه ، واتباعه للسنة فى الأصول والفروع .

سننه :

١ – جمع الشيخ أبو عبد الله كتابه السنن ، وهو كتاب جليل أشمله أربعة آلاف حديث ، قال فيها ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية . . . أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة .

٢ – درجته : كانت التقاليد العلمية عند المتقدمين والمتأخرين تجعل كتب الحديث خمسة : البخارى ومسلم والنسائى ، وأبو داود ، والترمذى فلما كان الشيخ الحافظ أبو الفضل طاهر المقدسى أضاف سنن ابن ماجه إلى كتب الحديث لما وجده فيه من عظيم الفائدة خاصة فى الفقه :

والعلة التى تمسك بها القدامى من الشيوخ أن قواعد نقد الحديث وضبطه قد وضحت أن ابن ماجه أخرج الأحاديث لرجال متهمين بالكذب وسرقة الحديث .

قال السيوطى : فى شرح المجتبى : تفرد فيه – أى ابن ماجه فى سننه – بإخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الحديث .

ولهذا يرى بعض العلماء أن الكتاب السادس هو كتاب الدارمي وبعضهم يجعله الموطأ لصحته وجلالته .

عناية العلماء به :

وقد نال كتاب ابن ماجه قسطاً كبيراً من العلماء فشرحه جماعة هم :

١ – السيوطي م ٩١١ ﻫ في كتابه مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه .

٢ – محمد بن موسى الدميري م ٨٠٨ . ﻫ

٣ – إبراهيم بن موسى الحلبي م ٨٥١ ﻫ .

وبعد نهاية العمل يقرب الأجل ، ويفوز السعداء بما قدموا فهنيئاً لمن قدم دنياه لآخرته قرباناً ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وعلى الطريق الموصل إلى الله سار الشيخ ابن ماجه إلى ربه فكانت وفاته عام ٣٧٣ ﻫ ، أجزل الله له العطاء ، وأسكنه واسع الجنات وجمعه مع الأبرار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

وإلى هنا : فقد قدمنا لكم السنة الإسلامية كما يفهمها العلماء الواعون ويرفضها المكابرون الجاهلون ، وإذا تبين الحق وسطع النور منه فليس لأرمد العين معذرة ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وأمرهم إلى الله فلا تبخع النفس عليهم حسرات ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

٥
منهج العلماء
في
ضبط الرواية

أولا :

- طرق التحمل .
- وصيغ الأداء .

ثانياً :

- ضبط الإسناد

ثالثاً :

- ضبط الرواة

رواية الحديث تعتمد على أصلين متلازمين هما :

التحمل والأداء .

وقد أجهد العلماء أنفسهم فى ضبط كل من هذين الأصلين فيما يتعلق بتحديد مفهومهما وطرق التحمل ، وصيغ الأداء . والشروط التى ينبغى توافرها فى التحمل وفى الأداء .

وسوف نعرض لهذه الجهود المشكورة لنوضح للجيل المعاصر من أبناء المسلمين كيف أن السنة النبوية الشريفة قد وصلتنا وهى محفوفة بأدق الضمانات ، وأصح وأسلم الطرق .

أولا ــ التحمـــل :

مفهوم التحمل :

هو أخذ الحديث عن الشيخ مباشرة أو بواسطة .

(ا) فتحمل الحديث مباشرة مثل تحمل الصحابة رضوان الله عليهم الحديث المرفوع عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومثل ذلك : تحمل التابعين الحديث الموقوف من الصحابة رضى الله عنهم .

ومثل ذلك أيضاً تحمل أتباع التابعين الحديث المقطوع من التابعين .

(ب) وتحمل الحديث بواسطة مثل تحمل الطالب عن شيخه ما تحمله عن شيخه وهلم جرا إلى أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المرفوع أو يصل إلى الصحابة عليهم رضوان الله فى الحديث الموقوف أو يصل إلى التابعين فى الحديث المقطوع .

ثانياً ــ شروط التحمـــل :

للعلماء فى شروط التحمل مذاهب شتى ، وركيزة التحمل التى لا خلاف فيها غالباً هى : أن يعقل الحديث سواء كان بالغاً أو صبياً مميزاً لكنهم اختلفوا فى تحمل الكافر ، وفى سن الصبي المميز .

أولا – رأى الجمهـــور :

أن الصبى المميز يصير أهلا للتحمل إذا فرق بين البقرة والدابة .

وقال الإمام أحمد : إذا عقل وضبط .

وقال القاضى عياض : أقل سن للصبى المميز هو سن محمود بن الربيع وكان سنه بين خمس أو أربع .

والذى استقر عليه الرأى – كما قال ابن الصلاح – التحديد بخمس سنين كما فعل أهل الحديث المتأخرين ، واستدلوا على ذلك بقبول رواية الحسن والحسين ، وابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، والنعمان بن بشير ..

وأما الكافر فيجوز تحمله للحديث إذا رواه بعد أن يدخل فى الإسلام ، والجمهور يستند فى هذا إلى الأحداث التى وقعت فى حياة المسلمين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قبل الصحابة والمسلمون رواية جبير بن مطعم للأحاديث التى تحملها قبل إسلامه فقد جاء فى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطـــور .

ثانياً : رأى غير الجمهور :

يرى أن تحمل الصغير ولو كان مميزاً ما لم يكن بالغاً غير جائز هو رأى محجوج بقبول الصحابة روايات الحديث عن السائب بن يزيد ، والمسور بن مخرمة وغيرهم .

ثالثاً – طرق التحمل :

حصر العلماء المعنيون بضبط الرواية طرق تحمل الحديث فى ثمانية طرق :

الطريق الأول : السماع .

الطريق الثانى : القـــراءة .

الطريق الثالث : المنـــاولة .

الطريق الرابع : الإجـــازة .

الطريق الخامس : المكاتبة ، أو الكتابـــة .

الطريق السادس : الإعــلام .
الطريق السابع : الوصـــية .
الطريق الثامن : الوجـــادة .
وسوف نعرض لبيان هذه الطرق إن شاء الله .

رابعاً ــ الأداء :

مفهـــومه :

رواية الحديث بعد تحمله بإحدى الطرق المذكورة آنفاً . إن أداء الحديث غير تحمله ، وتحمل الحديث هو تعلمه ، وطالب العلم فيه ذوحق سواء كان صغيراً أم كبيراً ، وسواء كان صالحاً أم طالحاً . . . فتلقى العلم حق إنسانى لا يحرم منه صغير ولا يختص به صالح .

أما أداء الحديث وروايته فذلك مقام الشهادة على نسبة المتن إلى صاحب السنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا مقام عزيز يحتاج إلى شروط وملكات ومواصفات .

شروط الرواية :

وشروط صحة الأداء عند العلماء هى :

التكليف ــ والإسلام ــ والعدالة ــ والضبط .

أما التكليف : فهو محل الإلزام والالتزام ومدار ذلك على البلوغ والعقل ، وضابط العقل البلوغ من غير آفة ، فالمعتوه وهو من اختلط كلامه وفعله ودار أمره بين حال المجانين وحال العقلاء لا تقبل روايته .

والصبي فيه خلاف :

ــ قيل تقبل روايته ، إن كان مميزاً ، ولم يجرب عليه كذب .
ــ وقيل ترد روايته لعدم البلوغ ، وإن صح له التحمل (١) .

(١) تدريب الراوى ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

وأما الإسلام : فلأن الانقياد لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم علامة صدق التحمل ، فلا تقبل رواية الكافر سواء كافراً أصلا أو لعارض مثل المرتد .

ومن الكفرة ارتداداً : المبتدعة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ومن هؤلاء القاديانية ، والبهائية ، والنصيرية ، ويقاس عليهم كل من ذهب إلى رأى يخالف أو يعارض أو يؤول للهوى أمراً ضرورياً عرف من الدين بالضرورة .

وأما العدالة : فلأنها ملكة تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة ، وضبطوها لأنها خفية تعرف بأثر سلوكي وهو : ألا يرتكب كبيرة ، وألا يصر على صغيرة ، ولا يرتكب ما يخل بالمروءة ، وهو ما عبر عنه العلماء بقولهم ... سليما من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، وذلك استجابة للحديث النبوى الشريف : « لا تأخذوا العلم إلا ممن تقبلون شهادته (١) » .

وفى مسلم : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

وروى البيهقى عن النخعى ، قال : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى حاله ، ثم يأخذون عنه .

قال الشافعى ، وقال سعد بن إبراهيم : لا يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا الثقات .

كيف تثبت ؟

وتثبت عدالة الراوى بطريق مما يلى :

— الاستفاضة : وهى اشتهاره بالخير والثناء عليه كما قال ابن الصلاح ومن أمثلة هذا النوع : مالك والسفيانين والأوزاعى ، والشافعى وأحمد ابن حنبل (٢) ، ويحيى بن معين ، وابن المدينى (٣)

— أو بتعديل الأئمة : اثنين على الأقل فى رأى واحد على الصحيح عند ابن الصلاح .

---

(١) رواه البيهقى فى المدخل مرفوعاً مرة وموقوفاً مرة .

(٢) تدريب الراوى ، جـ ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) الباعث الحثيث ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر ، ص ١٠٢ .

أما ابن عبد البر فقد توسع فقال : كل حامل علم معروف العناية به فهو عدل محمول أمره على العدالة حتى يتبين جرمه لقوله عليه الصلاة والسلام : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » واعترض ابن الصلاح باعتراضات ضعف رأيه وإلى ذلك جنح النووى وقال : قوله هذا غير مرضى (١) .

وأما الضبط فهو قسمان :

(ا) ضبط حفظ .   (ب) وضبط كتابـــة .

واشتراط الضبط هو مدار الأمانة فى النقل وهو علامة العدالة فى النفس، فإذا راقب بكليته ما سيرويه سواء كان من حفظه أو من كتابته كان قد تثبت مما سيؤديه فكان ثقة عند الأداء لأنه متقن لما يرويه متيقظاً لما يروى ، غير مغفل ولا ساه، فهو حافظ إن روى من حفظه ضابط لكتابته إن روى من كتابه .

كيف يثبت الضبط ؟

ويعرف ضبط الراوى إذا وافقت روايته ما رواه الثقات المتقون الضابطون ولا تضر المخالفة اليسيرة النادرة .

أما إذا ندرت الموافقة ، وكثرت المخالفة ، اختلت قيمة ضبطه .

ولم يحتج بحديثه .

وقد أوجز العلماء هذه الشروط المتفق عليها فى قولهم : العدالة والضبط ، ثم فسروا العدالة بأن يكون مسلماً بالغاً عاقلا سليما من أسباب الفسق وخوارم المروءة .

وفسروا الضبط بأن يكون متيقظا غير مغفل ، حافظا إن حدث من حفظه ، ضابطاً لكتابته من التبديل والتغيير إن حدث منه ، وأن يكون عالماً بما يحيل المعنى إن روى به (١) .

---

(١) راجع تدريب الراوى ، جـ ١ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ . والباعث الحثيث ص ١٠٣ .

(٢) تدريب الراوى ، جـ ١ ، ص ٣٠١ . الباعث الحثيث ، ص ١٠١ .

ملاحظة هامة :

الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً عدول فلا يصح أن يدعى أحد أن هذه القواعد تنسحب عليهم .

آداب الشيخ والطالب

إن تحمل الحديث وأداءه هما ركيزة الرواية التي هي أشرف ما يتحمله علماء الأمة الإسلامية ، وقد شرح العلماء طرق التحمل وصيغ الأداء وشروطه ، وبقى علينا أن نتدارك ما يلحق بهذه الأصول من فضائل الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها كل من الشيخ المتصدى لتحميل الحديث إلى تلاميذه ، والتلميذ الذى شرف قلبه وعقله بتحمل الحديث النبوى ليكون فيما بعد ممن يحملون هذا العلم الندى إلى الخلائق من بعدهم ففى الحديث الشريف : « نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره » « ونضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها ثم بلغها عنى » . و « نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها وحفظها ثم أداها إلى من يسمعها » و«اللهم ارحم خلفائى» ، قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى وسنتى .

ولهذه المنزلة وضع العلماء آداباً تجب مراعاتها من كل من الشيخ والمريد .

١ ـ آداب الشيخ

ـ تصحيح النية وإخلاصها وتطهير قلبه من أغراض الدنيا وأدناسها وليكن أكبر همه نشر الحديث والتبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « فانما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » وقد أثر عن العلماء ألا يحدثوا حتى تصدق النية : فقد قال سفيان الثورى : قلت لحبيب ابن أبى ثابت حدثنا : قال : حتى تجىء النية .

وقيل لأبى الأحوص سلام بن سليم حدثنا فقال ليس : لى نية . فقالوا له : أنت تؤجر فقال :

يمنوننى الخير الكثير وليتنى نجوت كفافاً لا على ولاليا (١)

---

(١) الجامع لآداب الشيخ والسامع للخطيب البغدادى ، تدريب الراوى ، ج ٢ ، الباعث الحثيث ، ص ١٧٠ .

وقال حماد بن زيد : أستغفر الله إن لذكر الإسناد فى القلب خيلاء .

– أن يكون ذا سن راشدة ، ثم اختلفوا فى كم تكون سنه ؟

قيل : أربعون عاماً ، فهى سن الاستواء وعندها ينتهى عزم الإنسان ويتوفر عقله ويجود رأيه ، غير أن واقع التحديث والرواية لا يساند هذا الرأى لأن مالك بن أنس جلس للناس يحدث وهو ابن نيف وعشرين عاماً وقيل كانت سنه سبع عشرة سنة وكان شيوخه أحياء وهم : ربيعة ، والزهرى ونافع ، وابن هرمز .

وقيل خمسون سنة ، فهى سن انتهاء الكهولة وفيها يجتمع الأشد وهو رأى محجوب بما سبق يضاف إلى هذا أن بندارا حدث وهو ابن ثمانى عشرة ، والبخارى حدث وما فى وجهه شعرة .

– وأن يمسك عن التحديث إذا خشى التخليط ، وقد ضبط العلماء خشية التخليط بسن الثمانين غالباً اللهم إلا إذا كان ثابت العقل مجمع الرأى ذلك أنه قد حدث قوم بعد هذه السن مثل أنس ، وسهل بن سعد ، وعبد الله بن أبى أوفى كما حدث كذلك فى سن متأخرة مالك ، والليث وابن عيينة ، وأثر عن مالك قوله : إنما يخرف الكذابون .

– بل حدث بعد بلوغ المائة جمع من الصحابة منهم :

الصحابى الجليلى حكيم بن حزام .

– كذلك حدث من التابعين بعد سن المائة شريك النمرى .

– ومن بعدهم : الحسن بن عرفة ، وأبو القاسم البغوى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى . . والأدق أن ضابط خشية التخليط : هو الهرم ، والتخريف ، والعمى . . وذلك يختلف حسب اختلاف الناس سواء بلغ الثمانين أو فوقها أو أسفل منها .

– ألا يحدث بحضرة من هو أولى منه سواء كان أولى منه لعلمه أو لسنه .

والأولوية هنا ملاحظة فيها : كبر السن ، علو الإسناد ، السماع المتصل مع الإجازة .

ولقد كان الشيوخ الأوائل يحترمون هذه الآداب فقد كان إبراهيم النخعي لا يتكلم بحضرة الشعبي .

وأكثر من هذا ذهب إليه العلماء فقالوا : يكره أن يحدث في بلد فيه من هو أولى منه ، ولقد سفه ابن معين من فعل ذلك فقد أثر عنه مقالته : إن من فعل ذلك فهو أحمق ، لكن الإمام السيوطي يرى : أن التحديث بحضرة الأولى ليس بمكروه ، وليس كذلك خلاف الأولى مستنداً لما أثر عن الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أنهم كانوا يفتون في عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي بلده : المدينة المنورة (١)؛

وقد عقد محمد بن سعد في كتاب الطبقات باباً لذلك فقال (٢) :

« ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك وإلى من انتهى علمهم » .

ثم ذكر أثراً نصه : « أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر . . . وروى البيهقي في المدخل بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال لسعيد بن جبير : حدث . . ، قال : أحدث وأنت شاهد ؟ قال : أو ليس من نعم الله عليك أن تحدث وأنا شاهد ، فإن أخطأت علمتك .

ومن آداب حضور مجلس التحديث أن يتطهر : بغسل ووضوء ، ويتطيب ، ويستاك ، ويسرح لحيته ، ويجلس في صدر المجلس متمكناً في جلوسه مع الوقار والهيبة .

ولقد كان السلف الكريم من الشيوخ الموقرين يفعل ذلك فقد أثر عن مالك أنه كان لا يخرج إلى مجلس الحديث إلا متطهراً متوضئاً متطيباً ،

---

(١) تدريب الراوي ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٢) الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ، ص ٣٣٤ وما بعدها .

وكان يمشي خاشعاً فلما سئل قال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحدث إلا على طهارة . . وكان رضى الله عنه يكره أن يحدث فى الطريق أو وهو قائم ، ويروى أنه قال : مجالس العلم تحتضر بالخشوع والسكينة والوقار ، ويكره أن يقوم لأحد .

وأسند البيهقى عن قتادة قال : لقد كان يستحب أن لا يقرأ الأحاديث إلا على طهارة .

وعن ابن المسيب أنه سئل عن حديث وهو مضطجع فى مرضه فجلس وحدث به : فقيل له وددت لو أنك لم تتعن ، فقال : كرهت أن أحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع .

وعن بشر بن الحارث أن ابن المبارك سئل عن حديث وهو يمشى ، فقال : ليس هذا من توقير العلم .

ومن واجبات الشيخ التى ينبغى أن يرقبها فى مجلسه أن يزجر من رفع صوته فى المجلس ، ولقد كان مالك رضى الله عنه يفعل ذلك ويقول : قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفع صوته فوق صوته .

ومن الآداب التى ينبغى أن يلحظها الشيخ فى المجلس أن يقبل على الحاضرين كلهم وأن يفتح مجلسه ويختمه بتحميد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاء ينطبق على الحال .

وأن يتقدم ذلك كله تلاوة للقرآن الكريم من قارىء حسن الصوت فقد روى الحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرءوا سورة .

ومن آداب مجلس الحديث أن يتروى فى تلاوته على نحو ما جاء فى حديث البخارى : عن عروة قال : جلس أبو هريرة إلى جنب حجرة عائشة وهى تصلى فجعل يحدث فلما قضت صلاتها قالت : ألا تعجب إلى هذا وحديثه . . ؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يحدث حديثاً لو عده العاد أحصاه .

وفى مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم .

وعند البيهقى : إنما كان حديثه فصلا تفهمه القلوب .

مجلس الإملاء :

من واجبات الشيوخ أن يعقدوا مجلس إملاء للحديث ، فإن الإملاء أعلى مراتب الرواية والسماع ، وفيه أحسن وجوه التحمل وأقواها .

ويندب أن يتخذ الشيخ مستملياً ومن شروط اختياره :

- أن يكون محصـــلا .
- متيقظاً يبلغ عنه إذا كثر الجمع على عادة الحفاظ فى ذلك .
- وألا يكون بليداً .

ولذلك أصبح من السنة، فقد روى أبو داود والنسائى من حديث رافع أن ابن عمرو قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء وعلى يعبر عنه .

وفى الصحيح عن أبى حمزة قال : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس، وإذا كثر التلاميذ حق له أن ينتدب كثيرا من المستملين (سكرتارية) فقد أملى أبو مسلم الكجى فى رحبة غسان وكان فى مجلسه سبعة مستملون يبلغ كل واحد صاحبه الذى يليه فقد كان فى مجلسه نيف وأربعون ألف محبرة سوى النظارة .

ما يجب على المستملى أن يفعله :

ويجب على المستملى أن يبلغ اللفظ الذى يقرؤه الشيخ على الوجه الذى سمعه من غير تغيير لأن وظيفة المستملى تفهيم السامع لفظ الشيخ .

ويجب على المستملى أن يستنصت الناس فى المجلس ففى الصحيحين من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : استنصت الناس . وعلى المستملى أن يرفع صوته باللفظ الذى يملى .

وعليه إذا ذكر صحابيا ترضى عليه فإن كان ابن صحابى ترضى عنهما : عنه وعن أبيه ، كذلك يترحم عن الأئمة فقد روى الخطيب : أن الربيع بن سليمان قال له القارىء يوماً : حدثكم الشافعى — ولم يقل رضى الله عنه — فقال الربيع : ولا حرف حتى يقال : رضى الله عنه .

ويجمل به أن يثنى على شيخه حال الرواية عنه بالذى هو له أهل فذاك صنيع جماعات أهل الحديث من السلف الطيب ، فقد كان أبو مسلم الخولانى يقول : حدثنى الحبيب الأمين عوف بن مسلم .

وكان مسروق يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرأة .

وكان عطاء يقول : حدثنى سيد الفقهاء أيوب .

وكان وكيع يقول : حدثنا سفيان أمير المؤمنين فى الحديث .

وينبغى للشيخ أن لا يملى فى الأسبوع إلا يوماً واحداً والأصل فى ذلك حديث الشيخين عن أبى وائل قال : كان ابن مسعود يذكر الناس فى كل يوم خميس ، فقال له رجل : لوددنا أنك ذكرتنا كل يوم فقال : أما إنه ما يمنعنى من ذلك إلا أنى أكره أن أملكم ، وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا (١) .

هذا ولعل قائلا يقول : وما فائدة هذا فى العلم الحديث وقد ذاع مكبر الصوت وأشرطة التسجيل ؟ والجواب أن اتخاذ الشيخ للمستملى فى دور العلم ما زالت الحاجة إليه باقية لانقطاع الكهرباء أو عدم التمكن من استعمال الآلات المكبرة للصوت ، أو إذا كان ذلك موجوداً ، وكان صوت الشيخ ضعيفاً لا يقويه استخدام مكبر الصوت .

---

(١) تدريب الراوى ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

(ب) آداب الطالب :

سن الطالب :

اختلف العلماء فى سن الطالب لمن يريد أن يشتغل بدراسة الحديث النبوى الشريف .

فقال جماعة من العلماء : يستحب أن يبتدىء بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة وهذا رأى علماء الشام القدامى .

وقال آخرون : بعد عشرين ، وهو رأى أهل الكوفة ، فقد أثر عن موسى ابن إسحق قوله : كان أهل الكوفة لا يخرجون أولادهم فى طلب الحديث صغاراً حتى يستكملوا عشرين سنة .

وقال سفيان الثورى : كان الرجل إذا أراد أن يطلب الحديث تعبد قبل ذلك عشرين سنة .

وقال أبو عبد الله الزبيرى من علماء الشافعية : يستحب كسب الحديث فى العشرين لأنها مجمع العقل ، وقال : أحب أن يشتغل دونها بحفظ القرآن الكريم والفرائض .

وأدنى سن يصح فيها السماع خمس سنوات قال ابن الصلاح : وعلى هذا استقر العمل بين أهل الحديث فكانوا يكتبون لابن خمس فصاعداً غير أنه وضع ضابطاً لصحة تعلم الصغير الحديث فقال : والصواب اعتبار التمييز فإن فهم الخطاب ورد الجواب كان مميزاً صحيح السماع وإن لم يبلغ خمساً .

والأليق علمياً أن تترك كتابة الحديث وضبطه للقدرة والاستعداد والتأهل (١)

ويجب على طالب الحديث تصحيح النية والإخلاص لله تعالى فى طلبه والحذر من التوصل به إلى أغراض الدنيا ، والأصل فى ذلك ما رواه أبو داود ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى

---

(١) الباعث الحثيث ، ص ١٢١ . تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر .

الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » (١) .

ومن أقرب الوجوه فى إصلاح النية فيه ما روينا عن أبى عمرو بن نجيد أنه : سأل أبى ، جعفر بن حمدان — وكانا عبدين صالحين — فقال له : بأى نية أكتب الحديث ؟ فقال : ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ؟ قال : نعم ، قال : فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الصالحين .

— وعليه أن يسأل الله تعالى التوفيق والسداد والتيسير والمعونة .

— وعليه أن يستعمل الأخلاق الجميلة والآداب الحميدة .

— وعليه أن يفرغ جهده فى تحصيل الحديث ، ففى مسلم : احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجــز .

وقال يحيى بن أبى كثير : لا ينال العلم براحة الجسم .

وقال الشافعى : لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملل وغنى النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلة النفس ، وضيق العيش وخدمة العلم أفلح .

— وعلى طالب الحديث أن يبدأ بالسماع من أرجح شيوخ بلده إسناداً وعلماً وديناً وشهرة ، حتى إذا ما فرغ منهم رحل إلى سائر البلدان ، لأن القصد من الرحلة أمران :

١ — تحصيل علو الإسناد وقدم السماع .

٢ — لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة منهم .

والأصل فى الرحلة فى طلب الحديث ما رواه البيهقى فى المدخل ، والخطيب فى الجامع عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعه فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلى ، وسرت شهراً حتى قدمت الشام فأتيت عبد الله ابن أنيس ، فقلت للبواب : قل له : جابر على الباب ، فأتاه فقال له : جابر ابن عبد الله ؟ فأتانى فقال لى : فقلت : نعم : فرجع فأخبره فقام يطأطىء

---

(١) تدريب الراوى ج ٢ ص ١٤١ .

ثوبه حتى لقيني فاعتنقني واعتنقته ، فقلت :حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص لم أسمعه فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد – أو قال الناس – عراة غرلا بهما ، قلنا : ما بهما ؟ قال ليس معهم شىء ، ثم يناديهم ربهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولأحد من أهل النار عنده مظلمة حتى أقصه منه ، حتى اللطمة ، قلنا كيف وإنما نأتى الله عراة غرلا بهما ؟ قال: بالحسنات والسيئات (١) .

قال إبراهيم بن أدهم : إن الله ليدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث .

وينبغى لطالب الحديث أن يستعمل ما يسمعه من الحديث الشريف وبخاصة أحاديث العبادات وفضائل الأعمال ، فزكاة الحديث فى تطبيقه وطريق حفظه تنفيذه ، فعن بشر الحافى : يا أصحاب الحديث أدوا زكاة هذا الحديث : اعملوا من كل مائتى حديث بخمسة أحاديث .

وقال وكيع : إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به .

وقال أحمد بن حنبل : ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به حتى مر بى أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً .

وعلى الطالب أن يعظم شيخه فقد قال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم كما نهاب الأمير .

وقال البخارى : ما رأيت أحداً أوقر المحدثين من يحيى بن معين . وفى الحديث النبوى الشريف : تواضعوا لمن تعلمون منه (١) .

---

(١) راجع تدريب الراوى ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) رواه البيهقى مرفوعاً من حديث أبى هريرة .

وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً : ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا (١) .

وينبغي أن يفيد غيره من إخوانه ، قال النووى : وينبغي للطالب إذا ظفر بسماع أن يرشد غيره إليه ، فإن كتمان العلم عنهم لؤم يقع فيه جهلة الطلبة ، لأن من بركة الحديث إفادة الناس به ونشره .

وقال ابن معين : من بخل بالحديث وكتم على الناس سماعه لم يفلح . وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلى بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينسى ، أو يتبع السلطان .

وعلى طالب العلم أن يحذر من الكبر أو الحياء فيكونا أو أحدهما علة فى عدم تحصيل الحديث ، فعن البخارى : لا ينال العلم مستحى ولا مستكبر . وقال عمر بن الخطاب : من رق وجهه دق علمه .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

وقال الأصمعى : من لم يحتمل ذل التعليم ساعة بقى فى ذل الجهل أبداً .

وعن عمر بن الخطاب : لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تتركه لثلاث :

لا تتعلمه لتمارى به ، ولا ترائى به ، ولا تباهى به .

ولا تتركه ، حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بجهالة ؛

---

(١) رواه أحمد .

بيان طرق التحمل

الطريق الأول : السماع من الشيخ

مفهومه :

أن يروى الشيخ الحديث لمريديه وتلاميذه .

وقد يكون التحديث من الشيخ من غير إملاء أو مع إمـــلاء .

وقد يكون فى كليهما من حفظه ، أو من كتابته .

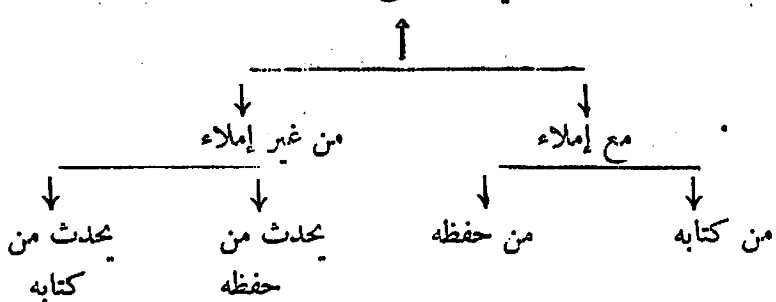
فهى صور أربـــع :

١ — يحدث ويملى من حفظ .

٢ — يحدث ويملى من كتاب .

٣ — يحدث ولا يملى لأنه حافظ .

٤ — يحدث من كتاب ولا يملى لأنه ليس حافظاً .



وهذا القسم هو أرفع الطرق فى التحمل وأرفع درجات الرواية عند الأكثرية من العلماء ، وذلك لما فى هذا الطريق من شدة التحرى من كل من : الشيخ والطالب لا سيما إذا كان التحديث مع الإملاء .

ومن آداب هذا الطريق : أن يترك الأستاذ أو الشيخ والطالب أو المريد كل ما يشغل عن السماع ، وقد صح عند العلماء أن كل سماع يصاحب عما يشغل عنه مما يمتنع معه الفهم لا يعد طريقاً للتحمل بالسماع .

ولاحتمال الانشغال ببعض الكلمات أو التقييد السريع من الطالب استحسن العلماء استحباب أن يجيز الشيخ جميع السامعين روايته لجميع الجزء أو الكتاب الذى سمعوه ولذا فقد قالوا : لا غنى فى السماع عن الإجازة وذلك تلافياً لما قد يقع من غفلة أو غلط أو انشغال بشيء يسير من الكلام أو التقييد .

صيغ الأداء لهذا الطريق :

والصيغ المناسبة للراوى الذى أخذ من شيخه عن طريق (السماع) هى – كما يرويها الخطيب البغدادى على الترتيب :

سمعت ثم

حدثنا ثم

حدثنى ثم

أخبرنا ، وهو كثير الاستعمال لمن أخذ الحديث بالسماع ويقال : أن عبد الله بن المبارك ، وحماد بن سلمة كانوا لا يكادون يعبرون عما سمعوه من لفظ ممن حدثهم به سماعاً إلا بقولهم : أخبرنا ، وهذا كله قبل أن يخصص لفظ (أخبرنا) بما قرىء على الشيخ .

أنبأنا أو نبأنا غير أنهما قليلا الاستعمال .

والإمام الزركشى والقسطلانى يجنحان إلى أن (حدثنا) أرفع من (سمعت) وذلك إذا كان حدثه على العموم .

كما يذهبان إلى أن (سمعت) أرفع من (حدثنى) إن كان حدثه على الخصوص .

الطريق الثانى: القراءة على الشيخ

وصور هـــذا الطريق :

أن يقرأ الطالب على الشيخ من حفظه .

أن يقرأ الطالب على الشيخ من كتابه .

أو أن يقرأ غير الطالب على الشيخ من حفظه أو من كتابه والآخر يسمع .

فإن كان الشيخ فى هذه الصور حافظاً لما يعرض أو يقرأ فلابأس، أما إذا كان الشيخ غير حافظ لما يقرأ عليه فيشترط أن يكون مع الشيخ الأصل الذى يقرأ منه الطالب وأن يمسك به ، وتكون الرواية على هذا صحيحة والتلقى مقبول (وتسمى هذه الطريقة بعرض القراءة) .

واختلف العلماء فى أفضلية الصورتين فقال قوم بأفضلية قراءة الطالب وقال آخرون بأفضلية قراءة آخر وهو يسمع . . .

وصيغ الأداء لهذا الطريق هى :

أخبرنا . . قال صاحب كتاب الإنصاف : إنهم جعلوا (أخبرنا) علماً يقوم مقام قول قائله : (أنا قرأته عليه) .

موازنة
بين طريق السماع وطريق القراءة

أى الطريقين أرجح من الآخر فى تقدمه درجة على مقابله فى قبول رواية الحديث أطريق السماع أرجح أم طريق القراءة ؟

(أ) جمهور العلماء من : علماء الحجاز ، والكوفة ، وأصحاب مالك ابن أنس وشيوخه من علماء المدينة ، والإمام البخارى يذهب إلى التسوية بين الطريقين .

ولكن الإمام السيوطى يعلل هذه التسوية بأنها ليست تسوية فى الدرجة بل تسوية فى صحة الطريقين فى مواجهة من أنكر طريق القراءة .

(ب) وجمهور علماء المشرق ترجيح السماع من لفظ الشيخ ، وهو مذهب ابن الصلاح وصححه النووى والطيبى (١) وقال : لعل الوجه فيه أن الشيخ حينئذ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسفيره إلى أمته ، والأخذ منه كالأخذ منه صلوات الله وسلامه عليه (٢) .

(جـ) ومذهب الإمام أبى حنيفة النعمان وابن أبى ذؤيب ترجيح القراءة على الشيخ .

(د) وفصل ابن حجر المسألة :

فاختار ترجيح السماع فى حالة استواء الشيخ والطالب فى العلم أو إذا كان الطالب أعلم من الشيخ لأنه فى هذه الحالة يكون أوعى لما يسمع .

أما إذا كان الطالب مفضولا فقراءته على الشيخ أولى لأن القراءة فى هذه الحالة تكون أضبط له .

أما إذا كان السماع إملاء من الشيخ فهو أعلى درجات التحمل لما يلزمه من التحرى الدقيق من الشيخ والطالب معا إذ الشيخ يتثبت فى إملائه ، والطالب يتثبت فى كتابته .

---

(١) راجع علوم الحديث ، ص ١٤١ .
(٢) راجع الكفاية ، ص ١٠٣ .

الطريق الثالث: المناولة

مفهومها :

أن يدفع الشيخ سماعه أو فرعاً منه مقابلا به للطالب .

بمعنى أن يعطى الشيخ للطالب من مروياته بيده وأن يخبره أن هذا من مروياته .

أقسامها :

وتنقسم المناولة إلى قسمين :

القسم الأول : المناولة المقرونة بالإجازة :

وهذه أعلى أنواع الإجازة على الإطلاق كما روى عن مالك .

وصورها أربع :

– أن يعطى الشيخ للطالب أصل سماعه أو فرعاً مقابلا به ويقول : هذا سماعى ، أو هذه روايتى عن فلان فاروه عنى ، أو أجزت لك روايته عنى ، ثم يمسكه . . بمعنى : يبقيه فى يده تمليكاً ، أو إلى أن ينسخه .

– أن يأتى الطالب بكتاب أو جزء من حديثه فيعرضه على شيخه ، فيتأمله الشيخ وهو فى كمال يقظته ووضوح معرفته ، ثم يعيده إليه ويقول له : وقفت على ما فيه : وهو حديثى عن فلان ، أو هو روايتى عن شيوخى فيه ، فاروه عنى ، أو أجزت لك روايته عنى .

وتسمى هذه الصورة : عرض المناولة .

– أن يناول الشيخ الطالب كتابه ويجيز له روايته عنه ثم يمسكه الشيخ عنده ، ولا يمكن الطالب منه (١) .

---

(١) هذه تساوى فى الإجازة : الإجازة للشىء المعين .

ـ أن يقدم الطالب للشيخ كتاباً أو جزءاً قائلا للشيخ :

هذا روايتك فناولنيه وأجز لى روايته ، فيجيبه إلى ذلك من غير أن ينظر فيه أو أن يتحقق من روايته وهذه الصورة لا تقبل إلا بشرط أن يكون الطالب موثوقاً بخبره ومعرفته .

القسم الثانى :

المناولة بلا إجازة :

بمعنى أن الشيخ يناول تلميذه كتاباً أو فرعاً مقابلا على سماعه ويقتصر على قوله له : هذا حديثى ، أو هذا سماعى ، ولا يقول له : اروه عنى ، أو أجزت لك روايته عنى . .

وقد اختلف فى صحة هذه المناولة :

فعابها الأصوليون والفقهاء كما نقل ذلك عن ابن الصلاح .

وقال العراقى : قال جماعة من أهل الأصول منهم الرازى : إنه لا يشترط الإذن بل ولا المناولة ، بل إذا أشار إلى الكتاب وقال : هذا سماعى من فلان جاز لمن سمعه أن يرويه عنه .

صيغ الأداء لهذا الطريق .

ناولنى إجـــازة .

أنبـــأنا إجـــازة .

أخـــبرنا مناولة .

حدثنـــا منـــاولة .

أخبرنا إذنـــا .

الطريق الرابع : الإجازة

مفهومها :

تسويغ الشيخ للطالب أن يروى عنه لفظاً أو خطاً :

كأنما الطالب يستجيز شيخه رواية علمة فيجيزه ، أو هى طلب الإذن فى رواية مسموعات الشيخ فيجيز له ذلك .

أقسامها :

والإجـــازة على ضروب كثيرة منها :

– إجازة معينة لمعين كأن يجيز الشيخ الطالب كتاب البخارى وهذا أعلى أنواع الإجازة المجردة عن المناولة .

– إجازة معين فى غير معين كأن يجيز الشيخ لطالب معين أحاديث غير معينة وعبارتها : أجزتك جميع مسموعاتى أو مروياتى . . .

وهذه الإجازة محل خـــلاف بين العلماء . والجمهور من المحدثين والفقهاء على إجازتها ووجوب العمل بها .

الإجازة لغير معين بوصف العموم كقوله : أجزت المسلمين أو أجزت من أدرك زمانى أن يروى حديثى .

قال ابن الصلاح : ولم نر ولم نسمع عن أحد ممن يقتدى بهم أنه استعمل هذه الإجازة .

– الإجازة للمعدوم كقوله : أجزت لمن يولد لفلان ، وهى محل خلاف :

أما الخطيب فقد أجازها ومعه أبو يعلى بن الفراء الحنبلى .

وأما القاضى أبو الطيب الطبرى فقد أبطلها وردها ومعه فى هذا ابن الصباغ ، وقاسوها على الإخبار عن المعدوم ، فكما لا يجوز الإخبار للمعدوم فكذلك لا تجوز ولا تصح الإجازة إليه،وإلى هذا مال ابن الصلاح وقال : لو قدرنا أن الإجازة إذن فإن ذلك لا يصح للمعدوم كما لا يصح الإذن للمعدوم فى باب الوكالة لوقوع الإذن فى حالة لا يصح فيها المأذون فيه من المأذون له .

وفضيلة الشيخ محمد محمد السماحى أضاف إلى المسألة افتراضاً آخر هو : أن يجيز للمعدوم تبعاً لموجود ، ثم قال : وهذا أقرب إلى الجواز (١) لكن ما هى صورة المعدوم التابع للموجود ؟ أليست هى الوصية لولد فلان وهى محط كلام العلماء ؟

الإجـــازة على التعليق :

وللتعليق صور منها :

- أن يعلق على مشيئة فـــلان .
- أن يعلق على مشيئة من شاء الإجازة .

ورأى العلماء أن التعليق هنا أظهر فى فساد الإجازة لأنه مفض إلى الحالة وهو من قبيل التعليق بشرط وهو مفسد للإجازة . .

- أن يعلق على مشيئة من شاء الرواية عنه .
- أن يعلق لفلان إن شاء الرواية عن الشيخ .

ورأى العلماء أن التعليق هنا صورى لا يضر الإجازة والأظهر فيه صحة جوازه لأن مقتضى الإجازة تفويض الرواية إلى مشيئة المجاز له فالإجازة واضحة ، والتعليق صورى .

---

(١) غيث المستغيث ، ص ٢٠ - ١٢١ .

الإجازة لمن ليس أهلا للأداء :

مثل : الحمل ، الطفل ، والمجنون ، والكافر ، والفاسق ، والمبتدع .

أما الحمل : فهو من قبيل الإجازة للمعدوم، قال العراقى : لم أجد فيه نقلا ولكنه أولى بالإجازة من المعدوم .

وأما الطفل : فإن كان غير مميز فهى غير صحيحة عند ابن الصلاح وأجازها البعض .

وأما المجنون : فالإجازة له صحيحة عند السيوطى .

وأما الكافر : فقد يصح سماعه من الشيخ لكن الإجازة له لم يوجد فيها نقل عن العلماء كما حكاه العراقى .

وأما الفاسق والمبتدع : فهما أولى بالإجازة من الكافر لكنهما لا يؤديان إلا إذا زال المانع .

وهنا نحب أن نفرق بين موقفين :

موقف الإجازة فى تعلم العلم والوقوف عليه لمثل هؤلاء .

وموقف الرواية والتلقى عنهم .

الأول : حق إنسانى أقره علماء الإسلام ولم يمنعوهم منه ، بل أفسحوا لهم فى طلب العلم والتلقى عن الشيخ .

الثانى : حق الله ورسوله وأمانة الأداء للسنة ، ولا يؤدى هذا إلا من امتثل ما حفظ من أوامر ونواهى وآداب ، فما لم يستسلم هؤلاء لقوانين الإسلام فلا مقام لهم فى التلقى عنهم العلم والحديث .

وهذا رد على أصحاب مذهب العلمانية فى بعض الجامعات الإسلامية الذين يجعلون البحث العلمى فوق احترام القيم الإسلامية مدعين أن باب العلم أوسع فى التقدير من القيم الإسلامية، وما فرقوا بين مقام التحمل ومقام

الأداء . إن مقام التحمل وطلب العلم حق إنسانى مرتبط بكرامة الإنسان ولهذا أجازه العلماء حسبما سلف من توضيح .

أما مقام الأداء فهو مقام التنشئة الاجتماعية وتوريث القيم الإسلامية إلى الأجيال القادمة ، وهذا يحتاج إلى أمين على نقل المواريث بمستواها النقى الخالص : وذلك يتطلب أمانة فى السلوك وامتثالا بالعمل ، وتحقيقاً بالأفعال . . وغير ذى المروءة والتقوى لا يكون أهلا لذلك . ولهذا رد العلماء رواية الكافر والفاسق والمبتدع ومن كان على شاكلتهم . . .

إجازة من أجيز لغيره كلا أو بعضاً :

مثل أن يقول له : أجزتك مجازاتى أو جميع ما أجيز لى روايته أو بعضه : والرأى الذى يرتضيه العلماء أن هذه الإجازة صحيحة ، قال ابن الصلاح : الذى عليه العمل أن ذلك جائز .

وقال أبو نعيم الأصبهانى : الإجازة على الإجازة قوية جائزة .

هكذا أجهد العلماء أنفسهم فى وضع ضوابط لحماية طريق الإجازة من التلوث بأهل البدع والأهواء والضعفاء . . . فانظر يارعاك الله كيف يتهم المعاصرون السنة بالأباطيل التى يرددها هواة الاستشراق اللدود ؟

صيغ الأداء :

وصيغ الأداء لمن تحمل الحديث بطريق الإجازة أن يقـول : أجازنى فلان ، أو يقول : أخبرنا على ما ذهب إليه أبو نعيم والأدق أن يقول : أخبرنا إجازة . . .

وعند الأوزاعى : خبّرنا (بتشديد الباء) .

الطريق الخامس : المكاتبة

مفهومها :

أن يكتب الشيخ مسموعه ، أو شيئاً من حديثه لطالب حاضر عنده أو غائب عنه سواء كتب بخطه أو كتب غيره بأمره (١) .

أقسامها :

وتنقسم المكاتبة إلى قسمين على المشهور :

(ا) مكاتبة مع إجازة وذلك كأن يكتب له مسموعاته أو بعضاً منها ثم يقول له أجزت لنا روايتها .

وهذا القسم شبيه فى صحته وقوته بالمناولة المقرونة بالإجازة .

(ب) مكاتبة غير مقرونة بالإجازة كأن يكتب له الشيخ مسموعاته أو بعضاً منه دون أن يتلفظ بالإجازة له وحكمها عند الليث بن منصور وغير واحد من الشافعية الجواز والصحة .

(ج) أقول : وهناك احتمال ثالث لم يذكره العلماء وهو : المكاتبة مع المناولة ، وذلك بالنسبة للطالب ما كتبه أو ما أمر غيره بأن يكتبه له ، والمكاتبة مع المناولة أقوى من المكاتبة مع الإجازة .

صيغ الأداء :

والصيغ التى يؤدى بها الرواية من تحمل الحديث بطريق المكاتبة أن يقولَ : حدثنى فلان مكاتبة أو كتابة ، فقد جوز الليث بن منصور إطلاق (حدثنا ، وأخبرنا) فى الرواية بالمكاتبة .

غير أن ابن الصلاح رفض ذلك . . ومعه ذلك أيضاً أبو نعيم إذ يرى أن لفظ أخبرنا يكون فى الإجازة وحدثنا فى السماع والأدق أن يقول : كتب إلى فلان . . .

---

(١) الكفاية ، ص ٣٣٧ ، الإلماع ، ص ٨٣ .

الطريق السادس : إعلام الشيخ

مفهومه :

أن يعلم الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو هذا الكتاب سماعه من فلان أو روايته دون أن يأذن للطالب فى الرواية .

وقد اختلف العلماء كثيراً فى حكم الرواية عن هذا الطريق إذ أن إعلام الشيخ هنا لا يكفى فى الدلالة على تحمل الحديث ولهذا جزم الإمام الغزالى وكثير من المحدثين أن عدم جواز الرواية به هو الأليق، وعارض عدم الجواز هذا كثير من علماء الفقه والأصول وعلماء الظاهرية وغيرهم ، وبه أخذ القاضى عياض فى الإلماع وعلل لذلك بقوله : لأن اعترافه به ويصحيحه له أنه مثل تحديثه له بلفظه وقراءته إياه وإن لم يجز الشيخ له (١)

ولكن لا خلاف بين العلماء فى وجوب العمل بالحديث المعلن عنه إن صح سنده (٢) .

صيغ الأداء :

وصيغة الأداء على الرأى القائل بصحة التحمل هى أعلمنى فلان .

---

(١) الإلماع ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٢) فتح المغيث للسخاوى على ألفية العراقى ، ج ٢ ، ص ١٠٠ – ١٠٣ .

الطريق السابع : الوصية

مفهومها :

أن يوصى الشيخ عند موته أو عند سفره لشخص بكتاب كان يرويه ذلك الشيخ .

وقد اختلف العلماء فى صحة التحمل عن هذا الطريق .

فجوزه فريق من السلف .

ومنعه النووى وقال : الصواب أنه لا يجوز .

وإلى هذا ذهب ابن الصلاح وقال : القول بجوازه بعيد جداً .

لكن بقى أن يقال : لم لم تكن الوصية من قبيل الإجازة ؟

غاية ما هنالك أنها إجازة معلقة على شرط الموت أو شرط السفر إن كانت الوصية بالرواية بعد الشرط . . وهو شرط صورى أو تعليق صورى . ولذا فالرأى ما قاله السلف من صحة طريق التحمل بالوصية .

صيغ الأداء :

وصيغ الأداء لهذا الطريق لم أقف عليها .

الطريق الثامن : الوجادة

مفهومه :

أن يقف على أحاديث بخط راويها .

وللوجادة عدة صور منها :

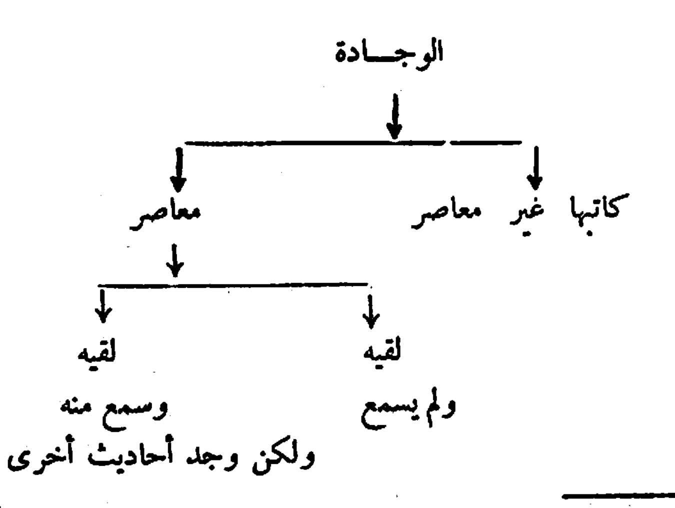
– أن يقف على أحاديث بخط راويها غير المعاصر له :

– أن يقف على أحاديث بخط راويها المعاصر له ولكنه لم يلقه .

– أن يقف على أحاديث بخط راويها المعاصر له وقد لقيه لكنه لم يسمع منه .

– أن يقف على أحاديث بخط راويها المعاصر له وقد لقيه وسمع منه ولكن لا يروى تلك الأحاديث الخاصة عنه بسماع ولا إجازة .

والوجادة ليست طريقاً صريحاً من طرق التحمل بل هى حكاية عما وجد من الكتب (١) .



(١) الباعث الحثيث ، ص ١٤٢ . توضيح الأفكار ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

وقد اختلف العلماء فى جواز الرواية عن طريق التحمل بالوجادة :

– فقال ابن كثير : الوجادة ليست من باب الرواية بل هى حكاية عما وجده فى الكتاب .

– ونقل عن معظم المحدثين والفقهاء المالكيين أنه لا يجوز .

أما عن حكم العمل بها ففيه خلاف :

– واختلف الشافعية بين من أجاز ومن أوجب العمل بالوجادة عند حصول الثقة .

– والنووى والطيبى وابن الصلاح يذهبون إلى الجواز لعلة هى أنه لو توقف العمل إلا بالرواية لانسد باب العمل بالنقول لتعذر شرط الرواية فى هذه الأزمان (١) .

– والمالكية لا يرون العمل بها .

هذا وقد وجد فى مسلم عدة أحاديث عن طريق الوجادة عدها العلماء من قبيل المنقطع (٢) وهى :

(ا) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال : وجدت فى كتابى عن أبى أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد يقول : أين أنا اليوم ، أين أنا غدا ، استبطاء ليوم عائشة قالت : فلما كان يومى قبضه الله بين سحرى ونحرى . (رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضى الله عنها) .

---

(١) توضيح الأفكار للصنعانى ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ . (يراجع تدريب الراوى ، ج ٢ ص ٨ – ٦٣ . راجع الباعث الحثيث ، ص ١٢٠ – ١٤٦ . راجع توجيه النظر فى أصول الأثر ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨) .

(٢) الحديث المنقطع هو : ماسقط من رواته راو واحد قبل الصحابى فى الموضع الواحد أى موضع كان وإن تعددت المواضع بحيث لايزيد الساقط فى كل منها على واحد فخرج المعضل والمرسل وقيل : هو مالم يتصل سنده ولو سقط منه أكثر من واحد فيدخل فيه المرسل والمعضل والمعلق .

(ب) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال : وجدت فى كتابى عن أبى أسامة حدثنا هشام ، وحدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا أبو هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأعلم إذا كنت على راضية وإذا كنت على غضبى ، قالت : فقلت ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : قلت : أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك . (رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضى الله عنها) .

(جـ) حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة ، وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال : وجدت فى كتابى عن أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : تزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم لست سنين وبنى بى وأنا بنت تسع سنين .

(رواه مسلم فى كتاب النكاح باب تزويج البكر الصغيرة) .

صيغ الأداء :

وصيغ الأداء لهذا الطريق من التحمل بالوجادة أن يقول :

وجدت بخط فلان أو

قرأت بخط فلان أو

فى كتاب فلان بخطه أو

حدثنا فلان بن فلان ويذكر شيخه ، أو يقول :

قال فلان بشرط ألا يكون فيه تدليس .

ثانيا : ضبط الاســـناد

- الإسناد العالى .
- الإسناد النازل .
- أصح الأسانيد .

وكل ماقلت رجاله عــلا   وضده ذاك الذى قد نزلا

(البيقونية)

مفهوم الإسناد

الإسناد هو : الإخبار عن طريق المتن .

وقيل هو : رفع الحديث إلى قائله .

وضابط الأمر أن جو الحديث فيه عدة أمور :

* رجال رووا اللفظ المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابة الذين بلغوا عن النبي صفة من صفاته أو فعلا من أفعاله أو تقريراً لمسألة رضى عنها .

وهؤلاء يسمون بالطريق الموصلة بالمتن .

* ثم معنا بعد ذلك نسبة الحديث عن هؤلاء الرواة إلى قائله سواء كان القائل هو النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المرفوع أو هو الصحابة كما فى الحديث الموقوف أو هو التابعى كما فى الحديث المقطوع .

ونسبة الحديث إلى قائله هى إسناد الحديث ورفعه إلى من قاله :

فالإخبار عن طريق المتن ، أو رفع الحديث ونسبته إلى قائله كلاهما يؤدى إلى غرض واحد هو نسبة الحديث إلى من قاله عن طريق الرجال الذين رووه(١) .

* ثم معنا متن الحديث وهو اللفظ المبلغ عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الأمة الإسلامية هى وحدها المتميزة بشرف الإسناد :

الإسناد المتصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من ثقة عن ثقة وهكذا هو من منح الله التى اختصت بها الأمة الإسلامية ، فقد ورد عن الحاكم

---

(١) راجع قواعد التحديث ، ص ٢٠٢ .

عن مطر الوراق فى تفسير قوله تعالى : « ايتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم » قال الأثارة من العلم هى الإسناد(١) .

فليست هناك أمة بمقتضى هذه الآية تملك سنداً من ثقة عن ثقة إلى نبيها عليه السلام الذى نؤمن به غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن أمته هى التى تملك الإسناد المتصل الرجال .

وقد حافظ المسلمون من قبل على هذه الخاصية ، فعن سفيان بن عيينة : حدث الزهرى يوماً بحديث ، فقلت : هاته بلا إسناد . فقال الزهرى : أترقى السطح بلا سلم ؟ .

وقال الثورى : الإسناد سلاح المؤمن .

وقال أبو على الجبائى : خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها :

الإسناد — والأنساب — والإعراب .

قال ابن المبارك راوياً عن مسلم :

لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء(٢) .

ونقل عن ابن حزم قوله : نقل الثقة عن الثقة يبلغ من النبى صلى الله عليه وسلم مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل(٣) .

وفى العصر الحديث شهد رجل أوربى منصف للأمة الإسلامية بأنها وحدها المختصة بالإسناد المتصل .

فيقول العالم النمساوى الدكتور ليوبلدفاس :

---

(١) تدريب الراوى ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

(٢) راجع تدريب الراوى ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

(٣) راجع الفصل ، جـ ٢ ، ص ٨١ — ٨٤ .

أنه لا يسعنا إلا أن نقول : إن الإسناد المتصل قرآناً أو سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاص بالأمة المسلمة فقط .

فإذا اعترض أحد اليوم على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فإن عليه هو وحده أن يثبت ذلك وليس ثمة من يبرر مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدر الحديث ... إلخ .

أقسام الإسناد

ينقسم الإسناد إلى قسمين :

(ا) إسناد عال .

(ب) إسناد نازل .

(أ) الإسناد العـــالى :

مفهومـــه :

الإسناد العالى : هو الذى قلت رجال إسناده .

قال صاحب البيقونية :

وكل ما قلت رجاله علا   وضده ذاك الذى قد نزلا

أقسام الإسناد العالى :

وينقسم الإسناد العالى إلى خمسة أقسام :

(أ) الإسناد العالى المطلق .

(ب) « « بالقرب من الإمام .

(ج) « « بالنسبة إلى رواية الصحيح من الكتب المعتمدة .

(د) « « بالنسبة إلى تقدم وفاة الراوى .

(هـ) « « بالنسبة لتقدم السماع .

أما الإسناد العالى المطلق : فهو ما كان أقربها طريقاً من النبى صلى الله عليه وسلم من حيث العدد وخلا من الكذابين وهم : ابن هدية ، ودينار ، وخراش ، ونعيم بن سالم ، ويعلى بن الأشدق ، وأبى الدنيا الأشج .

قال الذهبي : متى رأيت المحدث يفرح بعوالى هؤلاء فاعلم أنه عامى(١) .

ولهذا فقد أفتى العلماء بأن طلب الإسناد العالى سنة مؤكدة وقد خرج فى رحلة علمية(٢) عدد من الصحابة يطلبون الإسناد، وقد خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد ممن سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير عقبة – والحديث فى ستر المؤمن – ومن أجل هذا قال العلماء فى الإسناد العالى المطلق أنه أجل الأقسام كلها .

وأما الإسناد العالى بالقرب من إمام من أئمة الحديث ، فمثل القرب من الأعمش ، وابن جريج ، والأوزاعى ، ومالك ، وشعبة مع الصحة وإن كثر بعده العدد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الإسناد العالى بالنسبة إلى رواية الصحيح فقد سماه ابن دقيق العيد : علو التنزيل وله أربعة أحوال :

١ – **الموافقة** : وهى الوصول إلى شيخ البخارى ومسلم من طريقة مع علو درجته مثل حديث كتب الله القصاص، رواه البخارى عن محمد ابن عبد الله الأنصارى عن حميد عن أنس مرفوعاً؛ فإذا رواه الراوى عن محمد بن عبد الله الأنصارى فقد وقعت الموافقة للبخارى فى شيخه .

٢ – **البدل** : وهو الوصول إلى شيخ البخارى أو مسلم كأن يقع الإسناد عن طريق آخر إلى راو مشترك بين الطريقين .

٣ – **المساواة** : استواء عدد الإسناد من الراوى إلى آخر الإسناد مع أحد أصحاب الكتب وذلك كأن يروى النسائى مثلا حديثاً يقع بينه

---

(١) تدريب الراوى ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .
(٢) راجع فى ذلك : توجيه النظر إلى أصول الأثر ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

وبين النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحد عشر راوياً فيقع لنا ذلك الحديث بعينه بإسناد آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويكون بيننا فى هذا الإسناد وبين النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر راوياً فيتساوى النسائى من حيث العدد مع الإسناد الذى وصلنا عن طريق آخر،وهذا الحال فى غابر الزمان لا فى عصرنا الحاضر ، فقد ورثنا الكتب الصحاح مطبوعة مأمونة ويكفينا أن الله تبارك وتعالى حفظها علينا حتى وصلت إلينا .

٤ – **المصافحة** : وهى مفقودة فى هذا الزمان ومفهومها أن تقع المساواة لشيخك أنت مع مسلم ، فإذا أخذت عن شيخك المساوى لمسلم فكأنك صافحت مسلم وأخذت عن مسلم(١) .

أما الإسناد العالى بتقدم وفاة الراوى فمثاله .

ما يروى عن ثلاثة عن البيهقى عن الحاكم أعلاها ما يروى عن أبى بكر ابن خلف عن الحاكم لأن البيهقى توفى قبل ابن خلف . وقد يكون بتقدم وفاة الشيخ واختلاف فى الزمن الذى يعتبر فيه الإسناد عالياً فقيل بمضى خمسين وقيل بمضى ثلاثين سنة على وفاته ، فقد روى عن أبى على الحافظ النيسابورى قال : سمعت أحمد بن عمير الدمشقى يقول : إسناد خمسين سنة من موت الشيخ إسناد علو .

كذلك روى عن أبى عبد الله بن مندة الحافظ : إذا مر على الإسناد ثلاثون سنة فهو عال .

وأما الإسناد العالى بتقدم السماع من الشيخ فمن سمع منه قبلا كان أعلى ممن سمع منه بعداً،وكذلك يتفاضلان فى عدد سنوات السماع ، فأيهما كان

---

(١) راجع المنهج الحديث فى علوم الحديث ، قسم مصطلح الحديث ، ص ٢٩٩ . وكتاب غيث المستغيث ، ص ٢٠٦ لفضيلة الدكتور محمد محمد السماحى . راجع تدريب الراوى ، ج ٢ ، ص ١٦٥ – ١٦٨ . راجع الباعث الحثيث ، ص ١٨١ – ١٨٤ .

أكثر كان أعلى . هذا وقد جعل بعض العلماء هذا القسم الخامس من أشكال القسم الرابع فهو تقدم إما : بوفاة الراوى ، أو الشيخ ، أو بتقدم السماع ، ويفرق بينهما فى نظرى أن القسم الرابع تقدم بالمفارقة وهذا تقدم بالمصاحبة فهما غيران لا قسيان .

تنبيـــه :

اعلم أن الإسناد علم خاص بأحاديث الآحاد الصحيح منها والحسن والضعيف والمرفوع ، والموقوف والمقطوع ، والمرسل والمنقطع ، والمعضل ... إلخ ، لأن الإسناد يبحث عن صحة الحديث أو عن ضعفه من حيث صفات رواته وصيغ أدائهم .

أما المتواتر فلا يبحث عن رواته بل يجب العمل به من غير بحث لإفادته علم اليقين .

إذ المتواتر هو : ما رواه جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب وهذا يفيد أنه لا يجوز البحث فى حالهم ، وإن جاز البحث فى عـــدد الجمع هذا(١) .

(ب) الإسناد النازل :

الإسناد النازل هو ما كثر عدد الرواة فيه ، وهو مشئوم كما قال ابن المدينى : النزول شؤم .

وقال ابن معين : الإسناد النازل قرحة فى الوجه .

هذا بينما ابن المبارك يرى أن العبرة بجودة الحديث لاقرب الإسناد وقال : ليس جودة قرب الإسناد بل جودة الحديث صحة الرجال ولكن

---

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر ، ص ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ .

الإمام أحمد بن حنبل يرى أن طلب الإسناد العالى سنة عمن سلف يقول ابن سيرين : أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . وهكذا يدور الحوار بين العلماء حول أى الإسنادين أفضل ؟ .

أنه لا خلاف فى أن الإسناد العالى أفضل .

ولكن الكلام فى الإسناد النازل، ففيه خلاف المذكور، بعضهم يراه قرحة وشؤماً وبعضهم يراه لا بأس به ما دامت الضوابط سليمة فى صحة الرجال . ولابن حبان تفصيل فى هذا التفضيل قال فيه :

إن كان النظر فى السند فالشيوخ أولى ، يعنى الإسناد العالى أفضل .

وإن كان النظر فى المتن فالفقهاء أولى ، يعنى سلامة الرجال(١) .

قال السلف :

ليس حسن الحديث قرب رجال   عنـــد أرباب عامة النقـــاد

بل علو الحديث عند أولى الحفظ   والإتقـــان صحة الإســناد(٢)

ويرى صاحب توجيه النظر إلى أصول الأثر : أن العلو والنزول ليس بالكثرة ولا بالقلة ، بل العلو والنزول بالنسبة إلى القرب من الإمام مع صحة الرواية ، وضرب لذلك مثلا بحديث: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر .

فقد روى هذا الحديث بإسناد بلغ رجاله سبعة كما جاء فى رواية مسلم، وقد روى بطريق آخر بإسناد عدد رجاله أربعة ولكن إسناد السبعة أعلى من إسناد الأربعة لأن فى إسناد السبعة قربا من إمام الحديث مع التأكد من صحة الإسناد(٣) .

---

(١) راجع تدريب الراوى ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
(٢) المنهج الحديث فى علوم الحديث ، ص ٣٠٤ .
(٣) راجع توجيه النظر ، ص ١٦٣ .

(ج) أصح الأسانيد :

للعلماء فى هذه القضية وجهتا نظر :

الوجهة الأولى : أن المختار ألا يجزم فى إسناد من الأسانيد بأنه أصح الأسانيد مطلقاً وعللوا ذلك بما يلى :

(أ) لأن مراتب الصحة متفاوتة وتفاوت مراتب الصحة مرتب على تمكن الإسناد من شروط الصحة ، وتمكن الإسناد من شروط الصحة فى سلسلة رجال السند يعز وجوده فى ترجمة واحدة .

(ب) يحتاج الحكم بأن إسناداً ما أصح الأسانيد أن يكون هناك استقراء تام يتوصل به بعد تفتيش الأسانيد كلها إلى أن إسناداً من الأسانيد هو الأصح . . وهذا الاستقراء غير موجود فكل ما هو موجود تقوية طريق من الطرق لأنه معروف فى بلد من البلدان فقد اشتهر عن وكيع قوله : لا نعدل بأهل بلدنا أحداً .

وتبعاً لهذا فإنه لا يجوز أن يقال : أن حديث كذا أصح الأحاديث على الإطلاق .

الوجهة الثانية : أن التفاوت فى مراتب الصحة هو محل الحكم بالأغلب على أن إسناداً من الأسانيد أصح من غيره ، بمعنى : أن ترجمة من التراجمات كان أكثر رجالها متمتكناً من شروط الصحة فهو إسناد أقوى وأصح مما هو بخلافه .

فالحكم ليس على الإطلاق عندهم حتى يحتاج إلى استقراء تام ، بل الحكم على الأغلب الذى تمكنت فيه شروط الصحة .

والحكم بأصح الأسانيد له زاويتان :

الزاوية الأولى : الحكم بأن الإسناد فى أهل بلد يكون أصح من أهل بلد أخرى مثل ما قاله الخطيب : أصح السنة ما يرويه أهل الحرمين :

مكة ، والمدينة ، وعلة ذلك ، أن التدليس عنهم – لا فيهم – قليل ، وأن الكذب والوضع يكاد ينعدم فى إسنادهم .

وقد قال ابن المبارك : حديث أهل المدينة أصح وإسنادهم أقرب .

وقد قال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا لم يوجد للحديث من الحجاز أصل ذهب نخاعه .

وقد قال أيضاً : كل حديث جاء من العراق وليس له أصل فى الحجاز فلا تقبله وإن كان صحيحاً .

وسئل حبيب بن أبى ثابت : أيهما أعلم بالسنة أهل الحجاز أم أهل العراق ؟ . فقال : بل أهل الحجاز .

ولذا فقد قال الزهرى : إذا سمعت بالحديث العراقى فأورد به ثم أرود به .

وقال طاوس : إذا حدثك العراقى مائه حديث فاطرح تسعة وتسعين .

وقال هشام بن عروة : إذا حدثك العراقى بألف حديث فألق تسعمائة وتسعين وكن من الباقى فى شك .

وقال الزهري : إن فى حديث أهل الكوفة دغلا كثيراً .

الزاوية الثالثة : الحكم بصحة الإسناد فى الطرق والرجال وهى كالآتى :

الإسناد عن أبى بكر : أصح الإسناد عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه وأرضاه هو : إسناد إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر .

الإسناد عن على بن أبى طالب : أصح الإسناد عنه أربعة طرق :

الأول : محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى عن على .

الثانى : الزهرى عن على بن الحسين عن أبيه عن على .

الثالث : جعفر بن محمد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده عن على

الرابع : يحيى بن سعيد القطان عن سفيان الثورى عن سليمان التيمى عن الحارث بن سويد عن على .

الإسناد عن عائشة أم المؤمنين : أصح الأسانيد عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها ستة طرق :

الأول : هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة .

الثـــانى : أفلح بن حميد عن القاسم عن عائشة .

الثالث : سفيان الثورى عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة .

الرابع : عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة :

الخامس : يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة .

السادس : الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة .

الإسناد عن سعد بن أبي وقاص : أصح الإسناد عنه رضى الله عنه : على بن الحسين بن على عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص .

الإسناد عن عبد الله بن مسعود : أصح الأسانيد عن عبد الله بن مسعود طريقان :

الأول : الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن مسعود .

الثاني : سفيان الثورى عن منصور بن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود .

الإسناد عن عبد الله بن عمر : أصح الأسانيد عنه رضى الله تعالى عنه أربعة :

الأول : مالك عن نافع عن ابن عمر .

الثـانى : الزهرى عن سالم عن أبيه عن ابن عمر .

الثالث : أيوب عن نافع عن ابن عمر .

الرابع : يحيي بن سعيد القطان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر .

الإسناد عن أبي هريرة : وأصح الأسانيد عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ستة :

الأول : يحيي بن كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة .

الثـــانى : الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة .

الثالث : مالك عن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان عن الأعرج عن أبي هريرة .

الرابع : حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة.

الخامس : إسماعيل بن أبي حكيم عن عبيدة بن سفيان الحضرمى عن أبي هريرة .

السادس : معمر بن همام عن أبي هريرة .

الإسناد عن أم سلمة رضى الله عنها : وأصح الأسانيد عن أم سلمة رضى الله عنها هو :

شعبة عن قتادة عن سعيد بن عامر أخى أم سلمة .

الإسناد عن عبد الله بن عمرو بن العاص : وأصح الأسانيد عن عبد الله ابن عمرو بن العاص هو :

عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(وذلك على أصح الآراء عند الناقدين من العلماء) .

الإسناد عن أبي موسى الأشعرى : وأصح الأسانيد عن أبي موسى الأشعرى هو :

شعبة عن عمرو بن مرة عن أبيه مرة عن أبي موسى .

الإسناد عن أنس بن مالك : وأصح الأسانيد عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه سبعة :

الأول : مالك عن الزهرى عن أنس .

الثانى : سفيان بن عيينة عن الزهرى عن أنس .

الثالث : معمر عن الزهرى عن أنس .

الرابع : حماد بن زيد عن ثابت عن أنس .

الخامس : حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس .

السادس : شعبة عن قتادة عن أنس .

السابع : هشام الدستوائى عن قتادة عن أنس .

الإسناد عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : وأصح الأسانيد عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما هو :

الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس .

الإسناد عن جابر بن عامر : أصح الأسانيد عن جابر بن عامر هو : الليث بن سعد عن يزيد بن عبد الله بن حبيب عن أبى الخير عن عقبة عن جابر بن عامر .

الإسناد عن أبى ذر : وأصح الأسانيد عن أبى ذر رضى الله عنه هو : سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر .

الإسناد عن بريدة : أصح الأسانيد عن بريدة هو ا: الحسين بن واقد عن عبد الله بن أبى بريدة .

أصح الأسانيد فى أئمة التابعين : وأصح الأسانيد فى التابعين طريقان :

الأول : شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن شيوخه من الصحابة .

الثانى : الأوزاعى عن حسان بن عطية عن شيوخه من الصحابة .

هذه هى الأسانيد التى يجب علينا احترامها والتسليم بمروياتها دون أدنى تردد لأنها فى أعلى درجات الصحة والثبوت .

فهل لمسلم عاقل أن يجرؤ على الطعن فى هذا الشرف العلمى النقى الطهور ؟

أما ليوبولدفاس فقد قال :

إذا اعترض أحد اليوم على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فإن عليه هو وحده أن يثبت ذلك وليس ثمة من يبرز مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدر الحديث . أ.هـ

فإذا ما قامت حثالة من أى جنس بشرى بقصد الطعن فى السنة فإنما هى حركات هائج فاقد العقل والشعور ... فأنى يستمع لصياحاته ؟ .

ثالثا : ضبط الـــرواة

(ا) معنى الراوى .

(ب) شروط فى الرواة .

(ج) طبقات الرواة .

(أ) معنى الراوى

الراوى : هو من تحمل الحديث وأداه عمن تحمله منه بصيغة من صيغ الأداء .

فالشخص الذى يتصدى لرواية الحديث عليه :

(أ) أن يتحمل الحديث من شيخ معروف بأنه من علماء الحديث .

(ب) أن يؤدى الرواية بصيغة الأداء التى تعبر عن صفة تحمله الحديث .

ومفهوم هذا : أنه لا يشتغل برواية الحديث ، ولا التكلم فى شىء من السنة إلا من كانت له دراية بعلم الحديث وله شيخ تحمل عنه العلم وأخذ عنه الرواية ، ولقد حذر السالفون من الأئمة من التحديث بالأسلوب الجزافى فقد روى فى مقدمة مسلم عن الإمام ابن سيرين أنه قال . : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم (١ – مسلم ، جـ ١ ، ص ١٤) .

وقد حدثنا مسلم عن ابن أبى الزناد عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث . يقال : ليس من أهله .

ولقد حذرنا النبى صلى الله عليه وسلم من اتباع هواة التحديث وليسوا من أهل الحديث ولا الرواية ، فنى مسلم بسنده عن أبى عثمان مسلم بن يسار عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ... (٢ – مسلم ، جـ ١ ، ص ١٢) .

(ب) شروط لابد منها فى الراوى

والراوى الذى تقبل روايته لابد من تحقق شروط فيه وهى :

أن يكون ثقة ضابطاً لما يرويه .

ولتحقيق ذلك لابد أن يكون :

- مسلماً .
- عاقلا .
- بالغــــاً .
- سالما من أسباب الفسق وخوارم المروءة .
- وأن يكون متيقظاً غير مغفل .
- فاهماً إن حدث بالمعنى .

ويكون محل ثقة بعد هذه الشروط إذا ثبتت عدالته . وطريق إثباتها :

• الشهرة والاستفاضة والثناء عليه بالجميل :

• أو بشهادة الأئمة والشيوخ ، وهذه الشهادة تثبت بشهادة عالم واحد ، ويعرف ضبطه بموافقته للثقات فى الرواية لفظا ومعنى .

ومن أجل التحقق من انضباط هذه الشروط كان علم الجرح والتعديل على نحو ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وأحب أن أنبه من أول الأمر إلى أن هذه الشروط خاصة بغير الصحابة ، أما الصحابة فكلهم عدول ، فمن علم فقد أخطأ ، ومن جرحهم فقد سفه نفسه .

والعدالة المقصودة هنا : هى محافظة دينية تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة ولا يكون معها بدعة .

وقد عرفها الإمام الغزالى رضى الله عنه بأنها : هيئة راسخة فى النفس من الدين تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة جميعاً .

وسلامته من أسباب الفسق باجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر ، فإذا اكتملت الشروط قبلت الرواية .

(ج) طبقات الرواة

وأشهر الكتب الخاصة بهم :

مفهوم الطبقة : الطبقة فى اللغة : عبارة عن القوم المتشابهين .

وعند علماء الحديث : قوم تقاربوا فى السن والإسناد ، أو فى الإسناد فقط بأن يكون شيوخ هذا هم شيوخ الآخر .

ولما اعتبر التشابه ضابطاً للطبقة فالصحابة بصحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم طبقة واحدة والذين شاهدوا الصحابة وتحملوا عنهم وهم التابعون طبقة كذلك ، وأتباع التابعين طبقة ثالثة وهلم جرا .

وهذا لا يمنع أن تكون كل طبقة فيها مراتب ، ففى طبقة الصحابة ، رواية الكبار ، ورواية الصغار . وفى طبقة التابعين مراتب حسب كمال الشروط التى سقناها سالفاً .

وقد اختلف الكاتبون فى تقسيم الطبقات اختلافاً لا يفسد للعلم قضية لأنه اختلاف فى المناحى لا فى الغايات والمقاصد .

ودليل هذا الاتجاه الحديث الصحيح :

« خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(١) .

تقسيم الطبقات :

(ا) ابن سعد فى الطبقات :

ذكر من كان يفتى بالمدينة ويقتدى به أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم على بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ،

---

(١) رواه الشيخان من طريق عمران بن حصين .

وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعرى رضى الله عنهم جميعاً (هذه طبقة) .

ثم ذكر أهل العلم والفتوى من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم : عبد الله بن سلام ، وأبو ذر (وهذه طبقة) .

والذين جمعوا القرآن على عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم : زيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وعمران بن حصين ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم (وهذه طبقة) .

ثم ذكر من كان يفتى بالمدينة بعد أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار وغيرهم ، ومنهم : سعيد ابن المسيب ، وسليمان بن يسار وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى رباح ، وعمرة بنت عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، وابن شهاب الزهرى (وهذه طبقة) .

ثم ذكر طبقات البدريين ونوعها إلى :

البدريين من المهاجرين .

البدريين من الأنصار .

ثم ذكر النقباء ليلة العقبة الأخيرة وابتدأهم بأسيد بن حضير .

ثم ذكر الذين لم يشهدوا بدراً من المهاجرين والأنصار .

ثم ذكر الذين أسلموا قبل الفتح ، ومنهم : خالد بن الوليد ومحصن ابن أبى قيس .

ثم ذكر التابعين من أهل المدينة وجعلهم مراتب .

(أ) الذين رووا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه وبقية الصحابة من طبقته .

(ب) الذين رووا عن أسامة بن زيد رضي الله عنه وبقية الصحابة من طبقته .

وألحق بهذه الطبقة على بن الحسين وبعض الموالى إلى أن انتهى من عدة المراتب داخل هذه الطبقة وجعلها سبع مراتب أو طبقات حسب صنيعه .

ثم ذكر طبقات المكيين ، وجعلها خمس مراتب أو خمس طبقات .

ثم ذكر طبقات أهل الطائف .

ثم ذكر طبقات أهل اليمن وجعلها أربع طبقات .

ثم ذكر طبقات أهل اليمامة .

ثم ذكر طبقات أهل البحرين .

ثم ذكر طبقات الكوفيين ، وجعلها تسع طبقات .

ثم ذكر طبقات البصريين وجعلها ثمانى طبقات .

ثم ذكر طبقات أهل الشام ، وجعلها ثمانى طبقات .

ثم ذكر طبقات أهل مصر ، وجعلها ست طبقات .

ثم ذكر طبقات أيلة ، وعدها ثمانية .

ثم ذكر طبقات أفريقيا .

ثم ذكر طبقات الأندلس ...

غير أن كتاب الطبقات لابن سعد لم يذكر الطبقات على النهج الذى يشفى غلة المحدثين . نعم هو كاف شاف فى مادة الرواة لكن التقسيم الذى نهجه اتبع فيه الجانب التاريخى ، فلا ملامة عليه من حيث هذا الاتجاه، والذى أراه أن طبقاته ليست لأهل الحديث بالدرجة الأولى بقدر ما هى سجل للتاريخ الإسلامى .

(ب) شيخ الإسلام ابن حجر :

اتجه شيخ الإسلام ابن حجر فى ذكر الطبقات إلى رواية الحديث فجعلها محور التقسيم ، فجعلها اثنى عشرة طبقة .

الطبقة الأولى : الصحابة على اختلاف أعمارهم وأحوالهم فكلهم عدول.

الطبقة الثانية : كبار التابعين كابن المسيب .

الطبقة الثالثة : الوسط من التابعين كالحسن وابن سيرين .

الطبقة الرابعة : من كانت روايته عن كبار التابعين مثل الزهرى وقتادة.

الطبقة الخامسة : الأصغر من التابعين ، الذين لم يثبت لهم سماع من الصحابة وإن رأوا واحداً أو اثنين مثل الأعمش .

الطبقة السادسة : من عاصر أهل الطبقة الخامسة دون أن يثبت لهم سماع أو لقاء مع أحد الصحابة مثل ابن جريج .

الطبقة السابعة : كبار أتباع التابعين ، مثل : مالك والليث .

الطبقة الثامنة : الوسط من أتباع التابعين ، مثل : ابن عيينة وابن علية .

الطبقة التاسعة : الأصغر من أتباع التابعين ، مثل: الشافعى وعبدالرازق.

الطبقة العاشرة : من أخذ عن الطبقة التاسعة وهم كبار الآخذين عن تبع التابعين ولم يلق التابعين مثل أحمد بن حنبل .

الطبقة الحادية عشرة: الطبقة الوسطى بعد كبار الآخذين عن تبع التابعين مثل البخارى والذهلى .

الطبقة الثانية عشرة : صغار الآخذين عن تبع التابعين مثل الترمذى .

والذى أرجحه هو تقسيم ابن حجر لأنه جعل محور التقسيم رواية الحديث وهو المقصد الأجل فى هذا الباب .

أشهر كتب الطبقات

من أجل ما كتب فى الطبقات :

أولا : الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، وقد طبع فى بيروت فى ثمانية مجلدات وجعل المجلد التاسع للفهارس .

ثانياً : الاستيعاب لابن عبد البر ، جمع فيه ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة . وذيل عليه أبو بكر ابن فتحون ، ولكن الاستيعاب كما يقول ابن حجر : « وسمى كتابه الاستيعاب لظنه أنه استوعب ما فى كتب من قبله ومع ذلك فاته شىء كثير فذيل عليه ابن فتحون » .

ثالثاً : أسد الغابة لأبى الحسن على بن محمد بن الأثير ، وهو مجموعة كتب شتى ، فقد جمع فيه كتاب : ابن منده ، وأبى نعيم ، وابن عبد البر ثم زاد عليها أسماء وضبط وحقق أشياء أخرى . ثم اختصره النووى لما فيه من التكرار بسبب الاختلاف فى الكنى ، ثم اختصره الذهبى فى كتاب سماه (التجريد) .

رابعاً : الإصابة فى تمييز الصحابة ، لشيخ الإسلام ابن حجر . وهو أعظمها لأنه كتاب حافل مكث ابن حجر أربعين عاماً يكتبه بالتراخى ، ولذا يقول العلماء إن مسودات هذا الكتاب كتبت ثلاث مرات ، وبلغ مجموع ما فيه من التراجم (١٢٢٧٩) اثنى عشر ألفاً ومائتين وتسعا وسبعين نفساً . وقد رتبه ابن حجر على أربعة أقسام :

الأول : فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه .

الثانى : فيمن ذكر من الصحابة من الأطفال .

الثالث : فيمن ذكر من المخضرمين .

الرابع : فيمن ذكر على سبيل الوهم .

خامسا: التاريخ لأبي عبد الله الذهبي رحمه الله ؛ وهو من الأعمال الجليلة التي كان يحرص على نشرها العارف بالله الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود رضي الله عنه وأرضاه . ويقوم الآن بنشره السيد : حسام الدين القدسي .

هذا ... وهناك كتب أخرى كثيرة يكفي ما ذكرته منها لمن شاء أن يتعرف على رجال الحديث .

رابعا : منهج العلماء في ضبط السند وتقسيم الحديث

٦

منهج العلماء في ضبط السند وتقسيم الحديث

أو

مصطلح الحديث

تمهيد

أحب فى بادئ الأمر أن أنبه الى حقيقة قد تخفى على بعض المشتغلين بهذه الدراسة ، وهى أن تقسيم الحديث إلى عدة أقسام لايعنى انفصال الحديث بعضه عن بعض ، بحيث يتميز حديث بصفة خاصة عن حديث آخر تكون له صفة يتميز هو الآخر بها . .

بل . . إن الحديث الواحد قد يدخل فى عدة أوصاف أو تقسيمات باعتبارات مختلفة :

من حيث نهاية سنده .

ومن حيث كم الرواة .

ومن حيث حال الرواة .

فمن حيث نهاية السند : قد يكون مرفوعا ، أو موقوفا ، أو مقطوعا .

ومن حيث كم الرواة : يكون الحديث نفسه متواترا أو آحادا .

ويكون الحديث نفسه .

من حيث حال الرواة : مقبولا أو مردودا : يعنى صحيحا ، أوحسنا ، أوضعيفا . . . إلخ .

ولكن لضبط تقسيم الحديث سوف نقسمه من حيث هده الاعتبارات إلى :

(أ) من حيث عدد الرواة أو كم الرواة .

(ب) من حيث نهاية السند الذى تنتهى عنده الرواية .

(جـ) من حيث حال الرواة وتوافر واكتمال شروط الرواية فيهم أو عدم توافرها .

ونستعين بالله ونستلهمه التوفيق والسداد ونبدأ بتقسيم الحديث على هذه النواحى . وبالله التوفيق ...

* * *

أ- الحديث النبوي باعتبار كم الرواة

* الحديث المتواتر .
* الحديث غير المتواتر .

— الحديث المشهور :

* عند العلماء حسب تخصصهم
* عند عامة الناس

— الحديث غير المشهور :

* الحديث العزيز .
* الحديث الغريب .

تقسيم الحديث باعتبار كم الرواة

حمل الصحابة رضوان الله عليهم الحديث النبوى الشريف مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم ، ونقلوه الى أترابهم وإخوانهم وأبنائهم وقت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا التحمل مباركا مصحوبا بالوحى الذى يترى بآيات القرآن الكريم والعلم اللدنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف له حالة المجتمع ويضع له على الدرب نورا تتكشف للنبي صلى الله عليه وسلم به الخبايا والخفايا،فكان التحمل وسط هذه الأنوار برهان صدق على عدالة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ثم توارث التابعون وتابعوهم شرف هذا العلم وتدوينه وروايته والحفاظ عليه،فوضعوا الضوابط الدقيقة التى تحمى رواية الحديث من كل دخل أو تدليس أو تزوير ، فحفلت علوم الحديث وعلوم السنة بالقواعد والأسس التى تكفل الثقة فى وصول الحديث الشريف إلى عصرنا وكل عصر سيأتى من بعده : ثقة فى وصول الحديث الشريف متنا ، وثقة فى وصول الحديث الشريف إسنادا ، وثقة فى الحديث رواية ، وثقة فى الحديث دراية .

ومن الجهد المبذول من العلماء لضبط السند محاولات المدارس الحديثة فى تقسيم الحديث حسب وصوله إلينا .

ولا أحب أن أعرض لهذه المدارس بقدر ما أعرض للضبط الذى حاولته — ولعلى أوفق فيه إن شاء الله تعالى وهو :

أن الحديث بالنظر إلى عدد الرواة ينقسم إلى :

(أ) متواتر .

(ب) آحاد : مشهور ، عزيز ، غريب .

وبيان ذلك :

أن عدد الرواة إن كان كثيرا بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب أو وقوعه منهم اتفاقا بحكم العقل فهذا هو الحديث المتواتر .

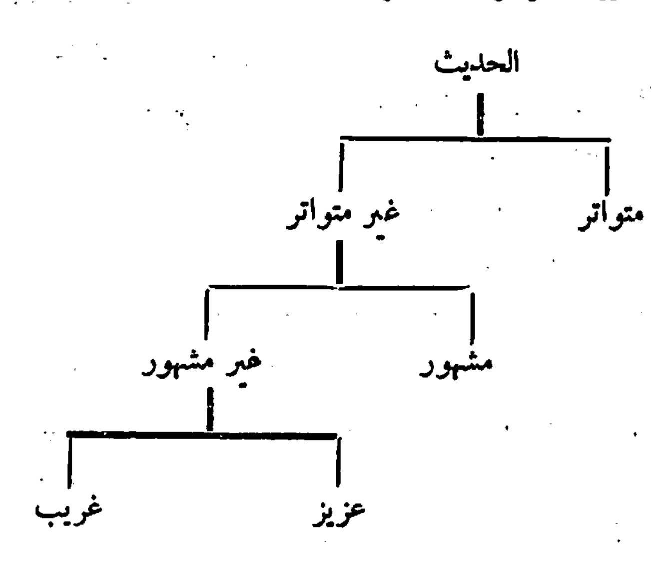
وإن لم يكن الأمر فيهم كذلك فهو حديث آحاد .

وحديث الآحاد هذا :

إما أن يكون رواته ثلاثة أو أكثر فى كل طبقة فيكون حديث آحاد مشهور .

وإما أن يكون رواته فى كل طبقة أو فى أكثرها اثنين من الرواة فيكون حديث آحاد عزيز .

وإما أن يكون تعدد الرواة فى طبقة معدوما فيكون حديث آحاد غريبا .



الحديث المتواتر

تعريفه :

هو ما رواه فى كل طبقة من طبقاته جماعة يستحيل فى العادة تواطؤهم على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

العدد المطلوب فى رواة الحديث المتواتر :

الجمهور : لايشترط عددا معينا فى الكثرة بل وضعوا ضابطا عاما هو : توافر عدد يحصل معه اليقين بصدق المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويشترط فى هـــذا العدد الاستواء فى كل طبقة . والمراد بالاستواء استواء فى الكثرة بشرطها ، أن يحكم العقل بعدم إمكان تواطئهم على الكذب . وهو المعول عليه .

واختلف المشترطون عددا فقال بعضهم أقله عشرة ، وقال آخرون: أربعون ، وقيل : سبعون . وقيل : ثلثمائة وبضعة عشر .

أقسام الحديث المتواتر :

والتواتر قد يكون فى اللفظ والمعنى معا .

وقد يكون فى المعنى فقط .

* **والتواتر فى اللفظ والمعنى جميعاً** : اذا اتفق الرواة فى كل طبقة على رواية الحديث جماعة عن جماعة تحيل العـــادة تواطؤهم على الكذب . ومثال ذلك :

ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده فى النار** » .

فقد روى هذا الحديث عن النبي صلى الله عيه وسلم أربعون نفسا من الصحابة كما ذكر ذلك البزار فى مسنده .

وقال ابن منده أن رواته من الصحابة سبعة وثمانون .

وقد اتفق البخارى ومسلم على إخراجه فى الصحيحين (راجع فتح البارى والنووى على مسلم ، وتدريب الراوى) .

* **والتواتر فى المعنى فقط** : هو أن يختلف اللفظ من جماعة إلى جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب مع وجود معنى كلى متفق عليه بين الطبقات ، مثل حديث : « **رفع اليدين عند الدعـــاء** » .

فقد روى فى هذا المعنى مائة حديث تختلف فى اللفظ وتؤدى معنى واحدا هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه عند الدعاء (راجع تدريب الراوى جـ ٢ص ١٧٧ ، راجع : توجيه النظر ص٩ ٠/٤٠).

آراء العلماء فى وجود الحديث المتواتـــر :

لعله من الخير أن نذكر أن الصلاة والحج والعمرة والزكاة والوضوء التى يتعبد بها المسلمون اليوم هى من آثار ما وصل إلينا متواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث أمر الصحابة أن يصلوا كما يرونه عليه الصلاة والسلام يصلى ، وأن يحجوا كما يرونه عليه الصلاة والسلام يحج فقال عليه الصلاة والسلام :

* « **صلوا كما رأيتمونى أصـــلى** » .

* « **خذوا عنى مناسككم** » .

فالحديث المتواتر موجود لكن للعلماء آراء حول كثرة المتواتر :

فالامام النووى يراه قليلا لايكاد يوجد . ومعه ابن الصلاح .

وقال شيخ الإسلام : إن هذا الرأى ناشىء عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق وأحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لإثبات التواتر ، ومثل لكثرة

التواتر بالكتب المشهورة المتداولة بأيدى أهل العلم شرقاً وغربا المقطوع عندهم بصحة نسبتها إلى مؤلفيها .

والإمام السيوطى : له كتاب فى المتواتر اسمه : « **الأزهار المتناثرة** » وهو كتاب مجرد من كتاب قبله اسمه : « **الفوائد المتكاثرة فى الأخبار المتواترة** » وقد استدرك على كتاب « الأزهار المتناثرة » الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتانى فى كتاب له اسمه : « **نظم المتناثر من الحديث المتواتر** » .

وزاد على هذا الأخير بعد أن لخصه الشيخ أبو الفضل عبد الله الصديق فى كتابه : إتحاف ذوى الفضائل المشتهرة بما وقع من الزيادات فى نظم المتناثر على الأزهار المتناثرة .

ولكن الإمام السيوطى يقوم بدوره بتلخيص كتابه : « الأزهار المتناثرة » فى كتاب آخر اسمه : « **قطف الأزهار** » أورد فيه من المتواتر أحاديث كثيرة منها :

حديث الحوض ، وحديث المسح على الخفين ، وحديث رفع اليدين فى الصلاة ، وحديث : « **نضر الله امرأ سمع مقالتى** » ، وحديث : « **نزل القرآن على سبعة أحرف** » ، وحديث : « **من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة** » ، وحديث ، « **كل مسكر حرام** » ، وحديث : « **بدأ الإسلام غريباً** » ، وحديث : منكر ونكير ، وحديث : « **كل ميسر لما خلق له** » ، وحديث : « **المرء مع من أحب** » ، وحديث : « **إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة** » ، وحديث : « **بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة** » .

هل يفيد الحديث المتواتر العلم ضرورة ؟

عرفنا أن الحديث المتواتر هو الذى اجتمعت فيه هذه الخصائص :

(أ) أن يكون عدد رواته فى كل طبقة كثرة مستوية .

(ب) أن يحيل العقل تواطؤ هذه الكثرة على الكذب .

(جـ) أن تترى الرواية من طبقة إلى مثلها .

(د) أن يكون المخبر عنه أمرا حسيا شاهدته الجماعة أو أدركته بإحدى الحواس الظاهرة : اللمس ، الشم ، الذوق ، السماع ، البصر .

فإذا تحقق هذا فى الحديث المتواتر فهو يفيد العلم ضرورة .

رأى الجمهـــور :

يرى جمهور العلماء أن الحديث المتواتر بهذه الصفة يفيد العلم ضرورة بمعنى أن من ينكره يكون كافراً ، وأن الحكم الشرعى الذى يحمله الحديث يكون قطعى الثبوت ولا يحتاج إلى بحث فى حال الرجال والسند والإسناد .

آراء أخـــرى :

(أ) لكن إمام الحرمين من علماء الشافعية ، وأبا الحسين من علماء الكلام الاعتزاليين يريان أن المتواتر يفيد العلم نظرا . . بمعنى أنه يحتاج إلى بحث .

(ب) والآمدى من الشافعية ، والمرتضى من الرافضة « الشيعة » يتوقفان فى إفادة المتواتر للعلم .

(جـ) ويرى الإمام الغزالى أن المتواتر من قبيل القضايا التى قياسها معها فليس أوليا لا يحتاج إلى برهان وليس كسبيا يحتاج إلى نظر وبحث .

والذى عليه الرأى عند العلمـــاء :

أن الحديث المتواتر يفيد العلم الضرورى .

الحديث غير المتواتر

ينقسم الحديث المقابل للحديث المتواتر إلى قسمين :

(أ) مشهور : وينقسم إلى صحيح ، وحسن ، وضعيف .

(ب) وغير المشهور : وينقسم إلى قسمين : حديث عزيز ، وحديث غريب .

* * *

الحديث المشهور :

تعريفه :

الحديث المشهور هو : ما رواه ثلاثة فأكثر عن ثلاثة فأكثر إلى منتهاه لايمكن عادة تواطؤهم على الكذب أو حصوله منهم اتفاقا .

أقسامه :

فهو من قبيل خبر الآحاد . وينقسم المشهور إلى ثلاثة أقسام :

(أ) **حديث مشهور صحيح** : مثاله ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء . . حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا** » (الحديث رواه البخارى ومسلم والترمذى) ، ومثاله : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما حرم الله** » (الحديث رواه البخارى ومسلم) .

(ب) **وحديث مشهور حسن** : مثاله ما رواه أنس ابن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » (رواه بن ماجه) .

(ج) **حديث مشهور ضعيف** : مثاله : ما يروى من حديث أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **الأذنان من الرأس** » (رواه أبو داود والترمذى وضعفه) .

أنـــواع الشهرة :

والحديث المشهور له أنواع فى الشهرة منها :

١ – المشهور على ألسنة الناس : مثل : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » .

ومثل : « **من دل على خير فله أجر فاعله** » (أخرجه مسلم) .

ومثل : « **يوم صومكم يوم نحركم** » (باطل لا أصل له) .

ومثل : « **العجلة من الشيطان** » (حسنه الترمذى) .

٢ – والمشهور عند أهل الحديث خاصة مثاله : أن رسول الله صلى عليه وسلم قنت شهرا بعد الركوع يدعو على رعل وزكوان .

٣ – والمشهور عند الفقهاء : « **أبغض الحلال إلى الله الطلاق** » (صححه الحاكم) .

٤ – والمشهور عند علماء أصول الفقه : « **رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** » (صححه ابن حبان وعند الحاكم بلفظ : إن الله وضع) .

٥ – والمشهور عند علماء النحو : « **نعم العبد صهيب . . لو لم يخف الله لم يعصه** » . قال العراقى : لا أصل لهذا الحديث ولا يوجد بهذا اللفظ شىء فى كتب الحديث .

* * *

ما يفيده الحديث المشهور :

* المشهور عند علماء الأحناف هو ما كان مشهوراً فى عصر الصحابة أو التابعين أو أتباع التابعين وإن صار بعد ذلك متواترا أو آحادا .

ويفيد عندهم علـم طمأنينة بمعنى أنه يقوى اليقين فهو فوق حديث الآحاد ودون حديث المتواتر .

* وقيل : أن الحديث المشهور يفيد اليقين بطريق الاستدلال بخلاف المتواتر الذى يفيد اليقين بطريق الضرورة .

الكتب الخاصة بالحديث المشهور :

– المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ .

– تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع الشيبانى المتوفى عام ٩٤٤ هـ .

– كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمحدث إسماعيل بن محمد العجلونى المتوفى عام ١١٦٢ هـ .

* * *

الحديث غير المشهور :

وينقسم الى قسمين :

حديث عزيز .

وحديث غريب .

(أ) الحديث العزيز :

تعريفه : هو ما تحقق فى رواته اثنان ولو فى طبقة واحدة ، ولا تقل الرواة عنهما فى كل طبقة . فاذا روى الحديث فى طبقة أربعة وفى طبقة أخرى اثنان وفى طبقة ثالثة ثلاثة أو أربعة أو خمسة فهو حديث عزيز وليس مشهورا .

ومثاله : ما رواه الشيخان من حديث أنس عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين** » .

فقد رواه عن أنس كل من قتادة وعبد العزيز بن صهيب، ثم رواه عن قتادة شعبة وسعيد، ثم رواه عن عبد العزيز إسماعيل ابن علية وعبد الوارث .

ويتبع الحديث العزيز شاهد أو تابع :

فالتابع : هو الحديث الذى يروى بلفظ الحديث الأول لإصلاح لفظ الحديث الأول (غالبا) .

والشاهد : هو الحديث الذى يروى بمعنى الحديث الأول (غالبا) .

* * *

(ب) الحديث الغريب :

تعريفه : هو ما انفرد به راو واحد .

أقسامه : وينقسم الحديث الغريب الى قسمين :

(أ) غريب مطلق .

(ب) غريب نسبى .

الغريب المطلق :

ذلك لأن التفرد إن كان فى أصل السند يعنى فى طرفه الذى فيه الصحابى بأن يرويه راو واحد فقط عن الصحابى فهو حديث غريب مطلق .

ومثاله : **« الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب ولا يورث »** فقد تفرد به عبد الله بن دينار عن ابن عمر .

* * *

الغريب النسبى :

وإن كان التفرد فى أثنـــاء التحمل بمعنى أن يروى فى طبقة من الطبقات عن راو واحد بعد أن يرويه عن الصحابة أكثر من راو واحد

فهو الحديث الغريب النسبي . وسمى غريباً نسبياً بالنسبة لأن التفرد وقع فى راو واحد فى طبقة واحدة أو لكون الثقة من الرواة كان واحدا .

ومثاله حديث : **أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الأضحى والفطر بـ (ق) و (اقتربت الساعة)** فقد تفرد به ضمرة بن سعيد عن عبيد الله بن عبد الله عن أبى واقد الليثى ، ولم يروه أحد من الثقات غير ضمرة لكن رواه من غير الثقات ابن لهيعة — وهو ضعيف عند الجمهور — رواه عن طريق خالد بن يزيد عن الزهرى عن عروة عن عائشة .

* * *

ب - الحديث النبوى

باعتبار الطرف الذى تنتهى اليه نسبة الحديث

* الحديث المرفوع .
* الحديث الموقوف .
* الحديث المقطوع .

تقسيم الحديث باعتبار الطرف الذى تنتهى إليه نسبة الحديث

سواء كان الحديث صحيحاً لذاته ، أو صحيحاً لغيره ، وسواء كان الحديث حسنا لذاته أو حسنا لغيره ، وسواء كان ضعيفا ، فإن الطرف الذى تنتهى إليه رواية الحديث بأى من هذه الأنواع . . . هو :

إما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيكون الحديث مرفوعا .

أو إلى الصحابى رضوان الله عليهم أجمعين فيكون الحديث موقوفا .

أو إلى التابعين رضى الله عنهم وأرضاهم فيكون الحديث مقطوعا .

وعلى هذا فالحديث سواء كان صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً من حيث ضوابط الرواة قد يكون من حيث نهاية السند :

مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

أو موقوفاً على الصحابى .

أو مقطوعاً إلى التابعى .

وهذه هى أقسام الحديث باعتبار المنتهى الذى تصل إليه الرواية .

* * *

(١) الحديث المرفوع

تعريفه : هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول ، أوفعل ، أو تقرير ، أو صفة .

وذلك بغض النظر عن كونه متصل الإسناد أو غير متصل ، لأن المأخوذ فى الاعتبار هو أن تكون إضافة التحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

أقسام الحديث المرفوع :

وينقسم الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثمانية أقسام وهى :

المرفوع من القول : صريحاً ، أو حكما .

المرفوع من الفعل : صريحاً ، أو حكما .

المرفوع من الصفة : صريحاً ، أو حكما .

المرفوع من التقرير : صريحاً ، أو حكما .

فكل من القول ، والفعل ، والصفة ، والتقرير له حالتان :

الأولى : أن يكون الحديث مرفوعاً صراحة .

الثانية : أن يكون الحديث مرفوعاً حكما .

حالتان فى أربع مسائل تصير الأقسام بها ثمانية ، وشواهدها كالآتى :

المرفوع من القــول :

(أ) صريحاً مثل قول الراوى : قال النبي صلى الله عليه وسلم كذا وفى البخارى عن حديث : قال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى** » .

(ب) حكما : مثل ما يقوله الصحابى كنا نقول كذا ويضيف زمن القول إلى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ومنه : نهينا عن كذا . . . أو أمرنا بكذا .

المرفوع من الفعل :

(أ) صريحاً : مثل : « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ثم يعود إلى خديجة فيتزود لمثلها** » .

وما رواه الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : « **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويثيب عليها** » .

(ب) حكماً : مثل كأن يفعل الصحابى فعلا لا مجال فيه للاجتهاد والرأى فينزل على أنه من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مثل : ما رواه البخارى أن ابن عمر وابن عباس « **كانا يفطران ويقصران فى أربعة برد** » .

المرفوع من الصفة :

(أ) صريحاً : مثل أن يصف الصحابى صفة من صفات النبى صلى الله عليه وسلم الخلقية أو الخلقية ومنه ما جاء فى حديث سيدنا على رضى الله عنه : « **لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم بالطويل ولا بالقصير** » (راجع توضيح الأفكار للصنعانى جـ ١ ض ٢٧٦ وما بعدها) .

(ب) حكماً : مثل : « **أحل لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا أو حرم علينا كذا** » . ومنه ما ورد فى الصحيح بشأن خروج النساء إلى صلاة العيد فقد روى البخارى عن الصحابية الجليلة أم عطية رضى الله تعالى عنها وأرضاها قالت : «**كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد حتى نخرج البكر من خدرها وحتى تخرج الحيض ، فيكن خلف الناس فيكبرن بتكبيرهم ويدعون بدعائهم يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته** »
ومنه : « **أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة** » .

مثله : « كنا ننهى عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا » .
ومنه : « نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا » .

المرفوع تقريراً :

(أ) صريحاً : مثل أن يقول الصحابى فعلت كذا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم بشرط أن يذكر عدم إنكار النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الفعل. ومنه إقرار النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر فى الطريق يوم بنى قريظة وكان قد أمرهم ألا يصلوا إلا هناك .

(ب) حكماً : مثل : قول الصحابى كان الصحابة يفعان كذا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . ومثله قول الصحابى : كنا لانرى بأساً فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، كذا .ومنه حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرعون بابه بأظفارهم .

هذه الأنواع الثمانية هى أقسام الحديث المرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

أين تجد الحديث المرفوع ؟

من أهم الكتب التى تروى الحديث المرفوع ما يأتى :

١ — صحيح البخارى .
٢ — صحيح مسلم .
٣ — الموطــأ .
٤ — مسند الإمام أحمد بن حنبل .
٥ — سنن أبى داود .
٦ — سنن الترمذى .
٧ — سنن ابن ماجه .
٨ — سنن الدارمى .
٩ — المستدرك للحاكم .

(ب) الحديث الموقوف

تعريفه : هو ما أضيف إلى الصحابى من قول أو فعل أو تقرير سواء كان متصلا إسناده أو غير متصل .

ضوابط الحديث الموقوف :

ولضبط الحديث الموقوف أمارة ، هى :

أن يكون خاليا من قرينة تدل على أن له حكم المرفوع .

ومثل الموقوف كأن يقول الراوى قال أبو بكر الصديق ، أو عمر بن الخطاب . . . كذا .

ومنه : ما رواه البخارى فى كتاب الفرائض : قال أبو بكر وابن عباس رضى الله عنهما : الجد أب .

ومنه : ما رواه البخارى عن عبد الله بن عقبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول :

« أن ناساً كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته شيء ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال : أن سريرته حسنة » (رواه البخارى) .

ومثله ما رواه البخارى فى باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم عن أبى إسحق قال : سمعت البراء يقول :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير .

* * *

(ج) الحديث المقطوع

تعريفه : هو ما أضيف إلى التابعى قولا ، أو فعلا ، أو تقريراً سواء كان متصلا أو غير متصل .

نموذج الحديث المقطوع :

جاء فى مقدمة صحيح مسلم عن ابن سيرين قوله : « **إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم** » .

وروى البخارى فى صحيحه : قال الحسن : « **أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ولا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلا ، ثم قرأ « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** » .

أين تجد الحديث الموقوف والمقطوع ؟

ومن مظان الحديث الموقوف والمقطوع الكتب التالية :

* مصنف ابن أبى شيبة .
* مصنف عبد الرزاق .
* تفسير ابن جرير الطبرى .
* وتفسير أبى حاتم ، وابن المنذر (راجع تدريب الراوى جـ ١ ص ١٩٥ ــ راجع لمحات فى أصول الحديث ص ٢٢٤) .

* * *

حـ - الحديث النبوى
باعتبار أحوال الرواه

- **الحديث المقبول .**

الصحيح - الحسن .

- **الحديث الضعيف .**

فاقد شرط اتصال السند :

المعلق - المنقطع - المعضل - المرسل - المدلس .

فاقد شرط العدالة :

الموضوع - المتروك - المنكر - المطروح - المضعف .

فاقد شرط الضبط :

المدرج - المقلوب - المضطرب - المصحف.

فاقد شرط عدم الشذوذ أو العلة :

الشاذ - المعلل .

تقسيم الحديث باعتبار حال الرواة

ينقسم الحديث باعتبار حال الرواة إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول : الحديث المقبول : وهو إما ما صح لذاته أو لغيره وإما ما حسن لذاته أو لغيره .

القسم الثانى : الحديث المردود : وهو ما حذف من سنده أو طعن فى رواته،ويسمى هذا النوع : بالحديث الضعيف .

* * *

بيـــان القســـم الأول

الحديث المقبول

ينقسم الحديث المقبول إلى قسمين :

صحيح .

وحسن :

والصحيح ينقسم إلى قسمين :

صحيح لذاته .

صحيح لغيره .

والحسن ينقسم إلى قسمين :

حسن لذاته .

حسن لغيره :

* * *

أولا ـ الحديث الصحيح

تعريفه : ننتخب من التعاريف الكثيرة التي ذكرها العلماء تعريف ابن كثير من كتاب : اختصارعلوم الحديث : قال :**الحديث الصحيح من حيث هو (بغض النظر عن قسميه) هو الحديث المسند الذى يتصل إسناده بنقل « العدل الضابط » عن « العدل الضابط » حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى منتهاه من صحابي أو من هو دونه ولا يكون : شاذاً ، ولا معللا بعلة قادحة .**

شرح التعريف :

معنى قوله : « الحديث الصحيح هو الحديث المسند » يعنى أن الحديث اتصل إسناده من راويه الأول الى منتهاه بحيث يكون كل واحد من الرواة قد تحمله من شيخه من أول السند إلى منتهاه : سواء انتهى السند الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون الحديث صحيحاً مرفوعاً ، أو انتهى إلى الصحابى ، فيكون الحديث صحيحاً موقوفاً أو انتهى إلى التابعى فيكون الحديث صحيحاً مقطوعا .

فاذا فقد هذا الشرط وهو الاتصال بأن سقط راو واحد فى موضع ما أو سقط منه راويان على التوالى فى موضع أو أكثر ، أو حذف من أول إسناده أو جميعه لم يكن الحديث صحيحاً بل ضعيفا وصار فى عداد الحديث المردود .

وقوله : بنقل العدل الضابط : معناه أن كل راو من رواة الحديث الصحيح لابد أن تكون حاله مرضياً عنها فى القول والفعل .

فالعـــدل : هو المستقيم المتصف بملكة تحمل صاحبها على ملازمة التدين والمحافظة على رعاية حقوق الله ومحارمه .

وحد التقوى فى العدل المستقيم : اجتناب الكبائر ، وعدم الإصرار على الصغائر من الذنوب ، والابتعاد عن المباحات التى فيها لوم، وتعد من ذوى المروءة عيباً .

والعدل المستقيم عند أهل الحديث ماكان صحيح العقل موزون التصرف بعيداً عن كل ما يخالف المروءة ويتجمل بمحامد الأخلاق .

وذلك لايتحقق إلا فى فرد مسلم بالغ عاقل سالم من الفسق وكل مايفسد المروءة . فاذا انخرم شرط من هذه الشروط صار الحديث غير صحيح .

والضابط : هو ماكان قوى الحافظة دقيق الوعى ، حسن الإدراك ، جيد الذاكرة ، ثابتاً إذا حفظ ، واعياً إذا رأى وروى أو إذا كتب وسمع .

والضبط يكون : بالحفظ فى الصدور أو بالكتابة فى الصحف. وتعرف حالة الضبط : بمقابلة روايته بمن جزم العلماء بكامل ضبطهم كأن توافق رواية الضابط لما رواه العالم الثقة ابن شهاب الزهرى ، أو الإمام الشافعى أو الإمام أحمد بن حنبل مثلا .

وقوله : ولا يكون شاذا : يعنى ألايكون المتن مخالفاً لما رواه الثقة سواء كان الشذوذ بسبب زيادة أونقص بشرط ألايمكن الجمع بين الحديثين ، الذى رواه الثقة وغير الثقة ، وسوف يأتى شرح للحديث الشاذ فى أقسام الحديث المردود إن شاء الله تعالى .

وقوله : ولا معللا بعلة قادحة : ومعنى هذا : أن الحديث قد يكون صحيحاً سليما فى ظاهر الأمر لكن العالم الثقة والناقد البصير الذى أفنى عمره فى خدمة السنة يلحظ بنور الإيمان وبصيرة العلم والعقل أن هناك علة خفية

يعرفها إذا جمع طرق الحديث المختلفة وقارنها وهى حالة يرزقها الله تعالى لنوع خاص من العلماء الذين رزقهم الله تعالى حسن التوفيق وكمال العقل، ونور البصيرة .

ومن أمثال العلة أن يكون الحديث موقوفاً على الصحابى فيروى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم والفرق بين الموقوف والمرفوع أمر لايكشفه إلا من اشتغل بعلم طرق الرواية والإسناد وتعرف على الرجال وأحوالهم ، وتخصص فى فهم الإسناد والسند والرواة .

ومن العلل القادحة أن يروى عمن لم يعاصره بلفظ يفيد المعاصرة والسماع .

ومن أمثلة الحديث الصحيح :

* ما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه قال :

حدثنا موسى بن حفص قال : حدثنا عبد الواحد قال : حدثنا عمارة قال : حدثنا أبو زرعة بن عمر بن جرير قال : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

انتدب الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه الإيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة . ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية واوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل (رواه البخارى فى باب : الجهاد من الإيمان حديث رقم ٢٧ من الباب) .

* وما رواه الإمام مسلم قال :

حدثنا أبو غسان المسمعى : مالك بن عبد الواحد حدثنا عبد الملك بن الصباح عن واقد بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا**

فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » (رواه مسلم فى كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

أقسام الحديث الصحيح

وينقسم الحديث الصحيح الى قسمين :

الصحيح لذاته : وهو الذى شرحناه سالفا .

والصحيح لغيره : وهو الحديث الذى استوفى الشروط السالفة لكن كان ضبط الراوى غير تام (وهو الحديث الحسن لذاته) .

فاذا روى هذا الحديث من وجه آخر مع تمام الضبط كان الحديث بالطريق غير تام الضبط حديثاً صحيحاً لغيره لأن غيره وهو الحديث الصحيح المروى مع تمام الضبط مساعدا لرفع درجة الحديث المروى بغير تمام الضبط إلى مصاف الحديث الصحيح لكن بواسطة سند غير سنده . ولهذا سمى بالحديث الصحيح لغيره يعنى غيره هو الذى جعله صحيحاً .

ويمكن تعريف الحديث الصحيح لغيره بأنه :

الحديث الحسن لذاته إذا تقوى بطريق آخر من طريقه أو تقوى بطريقين فأكثر ولو أدنى من طريقه .

تنبيـــه :

* **معنى قول العلماء** : هذا حديث حسن صحيح . أن يكون الحديث له إسنادان أحدهما حسن والآخر صحيح أو له سند واحد ولكن العلماء فى تعديل رجاله ترددوا بعضهم جعل السند من قبيل الحسن وبعضهم جعله من قبيل الصحيح .

* **معنى قول العلماء** : « **أصح شىء فى الباب** » : لايقصد به أن يكون

حديثاً هو أصح الأحاديث الواردة فى باب معين بل المقصود أنه أرجحها أو أقل الأحاديث ضعفا .

• هل يجوز للمتأخرين أن يحكموا على صحة الحديث ؟

أثار العلماء قضية هامة خاصة فى عصرنا الحاضر وهى : يجـوز للمتأخرين ومن فى حكمهم أن يحكموا على الأحاديث بالصحة أو بغيرها؟.

• أما ابن الصلاح : فقد رفض أن يعطى للمتأخرين هذه الصفة أو تلك الوظيفة وعلل رفضه بما يلى :

ـ لأن السابقين صححوا ما وافق الشروط وعدلو ما صح عندهم أنه عدل فلو أن حديثا كان يحق أن يكون صحيحاً لما تركوه .

ـ يتعذر على المتأخرين معرفة أحوال الرجال والاستقلال المضبوط فى فهم الطرق والأسانيد والمتون .

ـ أن التصانيف التى ورثناها من السابقين كافية فى ضبط الصحة والحسن والضعف، ولا بال للمتأخرين لمعرفة أصـولها لبعدهم عن زمانها وجهلهم بأحوال رجالها .

ـ أن عصرنا وعصر المتأخرين قد اختلطت فيه النوايا والنوازع وأشبه فيه الحـلال بالحرام والصحيح بالسقيم فأنى لنـا أن نتشرف بالعمل فى خدمة السنة .

• وأما الامام النووى : فقد سلم بما قاله ابن الصلاح ولكن لم يغلق الباب على كل العقول والبصائر بل سوغ لمن عنده أهلية وصلاح أن يصحح مالم يحكم عليه بالصحة ولم يجوز عدم تصحيح ما حكم عليه بالصحة من علماء السلف (راجع التقريب ، وكتاب : الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة للامام أبى الحسنات الكنوى تحقيق العالم العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة) .

فمرد المسألة أمران :

الأول : ألا يخوض المتأخرون فى حديث حكم عليه بالصحة .

الثانى : استقامة الأسس التى يقوم عليها عمل المتأخرين فى حكمه على الحديث بأنه صحيح مالم يصححه السابقون من العلماء الثقات . وآية ذلك:

أن الحافظ الدمياطى صحح حديث جابر بن عبد الله ولفظه : **ماء زمزم لما شرب له .**

والشيخ تقى الدين السبكى صحح حديث ابن عمر : ولفظه : **من زار قبرى وجبت له شفاعتى .**

• قول العلماء : هذا الحديث ليس صحيحاً معناه :

أن شروط الصحة وهى :

الاتصال ، والعدالة ، والضبط ، وعدم الشذوذ ، وعدم وجود علة .. غير متوفرة فى هذا الحديث . ولايفهم من هذا أن يكون الحديث فاسداً من كل وجه بل قد يكون حسناً أو له وصف آخر غير الحسن **ولهذا فانه من الأليق بالصحافة الاسلامية أن تكف عن نشر باب ليس من الصحيح ، وتملأ أذهان المسلمين بتشويش لايخدم السنة ولا الفكرة الاسلامية بل إنه يعكر على الثقافة الاسلامية معينها .**

والأليق أن يضعوا باباً من قطوف السنة الصحيحة فيحفظوا للشباب المسلم السنة الصحيحة ويقدموها للفكر صحافة بعيدة عن التشويش والبلبلة .

• مثال الحديث الصحيح لذاته والحديث الصحيح لغيره :

ما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة** » فهذا الحديث حسن لذاته لأن راويه وهو **محمد بن عمرو بن علقمة** مشهور

بالصدق ولكنه ليس متقنا فى ضبطه وهن . فلما روى هذا الحديث بلفظه من طريق آخر وهو طريق الأعرج عن أبى هريرة فيما رواه مسلم والبخارى فقد صار ذلك الحديث بهذا الطريق صحيحاً لغيره .

فهذا الحديث له ثلاثة أوصاف :

صحيح لذاته : فى رواية البخارى ومسلم .

صحيح لغيره : بالنظر إلى رواية الترمذى ملاحظا معها رواية البخارى.

حسن لذاته : من طريق الترمذى وحده .

ما الذى يفيده الحديث الصحيح ؟

هل يفيد الحديث الصحيح ترجيح الصدق على الكذب ؟ :

أو هل يفيد الحديث الصحيح القطع ؟ وهل هذا القطع مشروط ؟ .

اختلف العلماء فيما يفيده الحديث الصحيح :

• قال الجمهور من العلماء : أن الحديث الصحيح يفيد ترجيح الصدق على الكذب لاحتمال جواز الخطأ أو النسيان على الراوى الثقة لا لوقوع ذلك منه .

• وقال قوم من أهل الحديث : أنه يفيد القطع مطلقا ، بذلك قال الباجى ونسب هذا الرأى للامام أحمد بن حنبل .

• واشترط بعض الشافعية أن يكون فى إسناد الحديث إمام مثل مالك أو أحمد أو سفيان حتى يفيد الحديث الصحيح القطع .

• وذهب ابن الصلاح الى أن أحاديث البخارى ومسلم تفيد القطع واليقين .

ودليل القائلين بالقطع :

أن الله تعالى خاطب الصحابة بقوله : (**فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار**) . فالآية تفيد العلم والقطع وتجعله أساساً للقضاء على المهاجرات بالقبول أو الرفض .

* * *

هل يجب العمل بالحديث الصحيح ؟

الحديث المتواتر يفيد اليقين ويجب العمل به .

والحديث الصحيح يفيد أحد أمرين : ترجيح الصدق ، أو القطع.
لكن هل يجب العمل بالحديث الصحيح أو لا ؟..

اختلف العلماء فى ذلك :

– اختلفوا فى الحكم بالعمل به .

– واختلفوا فى وقوع العمل به .

أولا : أن اختلافهم فى الحكم بالعمل به فيه آراء ملخصها :

(أ) فقد أجمع الصحابة والتابعون على وجوب العمل بالحديث الصحيح .

(ب) وجمهور العلماء يرى جواز العمل به عقلا لأنه وإن كان الحديث محتملا للخطأ، فإن جانب الصدق فيه أرجح لعدالة الراوى ولأن الحديث يفيد ظنا موجبه حقاً إذ لو عرض الشارع على المكلف حكما عن طريق الحديث الصحيح فإن العقل يقبله من غير تردد لأن العمل بموجبه لايترتب عليه عند العقل محال لا لذاته ولا لغيره ، وموجب هذا عقلا أن الحديث الصحيح يجوز العمل به عقلا .

ثانياً : وأما وقوع العمل به فني ذلك آراء أيضاً ملخصها :

(أ) الجمهور من العلماء يرى أن العمل بخبر الواحد واقع فعلا وفى مقدمة هؤلاء :

الإمام أحمد بن حنبل .

والقفال وابن شريح من علماء الشافعية .

وأبو الحسن البصرى من علماء المعتزلة .

ودليلهم قوله تعالى : **(إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)** .

فقد أوجب الله سبحانه التثبت من الخبر إذا كان المخبر فاسقاً ومفهوم هذا إن لم يكن المخبر فاسقاً فإن التثبت لايكون مطلوباً ومعناه : أن خبر العدل يعمل به من غير تثبت .

وقد عمــــل الصحابة رضوان الله عليهم بخبر الواحد العدل فقد قبلوا جميعاً العمل بما أخبرهم به سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : **« الأنبياء يدفنون حيث يموتون »** ، **« نحن معاشر الأنبياء لانورث »** بل إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه وأرضاه قد عمل بخبر الواحد العدل فى توريث الجدة .

وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأرضاه كذلك عمل بخبر الواحد إذ قبل خبر عبد الرحمن بن عوف فى دية المجوس للحديث الشريف : **« سنوا بهم سنة أهل الكتاب »** .

فإذا ما تحققت عدالة الراوى وذهبت الريبة فى خبر الواحد فلا حاجة للتثبت . . . كما فعل ذلك الأمجاد من الصدر الأول المبارك .

والأقوى من ذلك كله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرسل رسله

إلى الناس لجمع الزكاة وللقضاء فى الولايات، وقصة معاذ بن جبل خير شاهد على صحة العمل بخبر الآحاد .

(ب) أما الروافض من الشيعة : فانهم يقولون أن العمل بخبر الآحاد لم يقع شرعاً وإن جاز عقلا .

ودليلهم عقلياً أن عدم العمل عقلا إلى أن تكون هناك وقائع لاحكم لها إذا لم يتيسر للمجتهد دليل خبر الواحد وخلو واقعة عن حكم باطل عقلا .

ويرد عليهم أن خلو الواقعة من الحكم غير مسلم به ، لأنها تكون ملحقة بحكم البراءة الأصلية إذ فى الإسلام الأصل فى الأشياء الاباحة والطهارة . والله أعلم .

(ج) وعند الجبائى من علماء الاعتزال : أن العمل به محال لغيره لأنه قد يستلزم تحليل حرام أوتحريم حلال، ذلك لأن كذب المخبر فى هذه الحالة ممكن عقلا وعليه فلو أخبر بحل شيء لم يكن فى الواقع كذلك فإن العمل به يستلزم تحليل الحرام والعكس بسليم وتحليل الحرام وعكسه باطل فجواز العمل بالحديث الصحيح باطل (أصول الفقه ص ٩٩ الأستاذ العلامة الشيخ طه العربى) .

وهو كلام خال من الدقة وبعيد عن التحقيق لأن خبر المخبر ليس قطعا فى الكذب كما أنه ليس قطعاً فى الصدق فكلاهما محتمل، فالقول بأن العمل بالحديث يستلزم تحليل الحرام باطل لأنه مبنى على أن الحديث يحتمل كذب الراوى وهو غير مقطوع به .

بل القرائن تفيد غلبة ظن الصدق على احتمال الكذب لأن الحديث الصحيح هو ما رواه العدل الضابط فاحتمال الكذب منه بعيد ، واحتمال الصدق منه هو الأغلب .

وإذا كان احتمال الصدق أكثر من احتمال الكذب فان العمل بالحديث الصحيح أولى من رده لاسيما أن المجتهد مكلف أن يعمل بما يغلب عليه ظنه أنه حق ، والظن فى الحديث الصحيح يغلب على أن راويه صادق لأنه عدل ضابط .

والذى يفحم الجبائى أنه متفق مع العلماء على أن فتوى المفتى ملزمة ويجب العمل بها مع أن فتوى المفتى من قبيل الآحاد فكيف يجيز بل ويوجب العمل بفتوى المفتى ولا يجيز العمل بالحديث الصحيح ؟ (راجع المنهج الحديث فى علوم الحديث لفضيلة العلامة الشيخ محمد محمد السماحى ص ٦٥ ، ٦٨) .

وأخيراً فان الذى عليه الرأى والعلم أن الحديث الصحيح ملزم وموجب للعمل بما جاء فيه من الأحكام الشرعية والفضائل الأخلاقية .

* * *

الكتب الجامعة للحديث الصحيح

الكتب التى فيها الحديث الصحيح أنواع :

(أ) كتب خالصة للحديث الصحيح .

(ب) كتب استدركت أحاديث وألحقتها بالصحيح .

(ج) كتب فيها أحاديث صحيحة وغير صحيحة .

(أ) كتب الأحاديث الصحيحة :

المشهور بين العلماء أن الكتب الجامعة للحديث الصحيح فقط هى : كتاب البخارى ومسلم .

قال ابن الصلاح : « أول من صنف الصحيح : البخارى :

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفى ، وتلاه أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى القشيرى» .

وقد اتفقت كلمة العلماء على أن جميع ما فى الجامعين الصحيحين للبخارى ومسلم متصل مرفوع صحيح بالقطع .

وأن نسبة الكتابين إلى صاحبيهما متواترة .

وأن كل من يهون من أمرهما مبتدع مجانب للحق مخالف لسبيل المؤمنين.

• • •

(ب) كتب المستدرك .

لم يستوعب البخارى ومسلم كل الأحاديث الصحيحة بل رويا الأحاديث التى طابقت شروط الصحة التى وضعها كل منهما لنفسه كمنهج فى تدوين الحديث وجمعه ، وبقيت هناك أحاديث صحيحة على شرطيهما ولكنهما لم يعداها فى الحديث الصحيح، فاستدركها العلماء المتأخرون وخرجوها على شرطيهما وعدوها من الأحاديث الصحيحة وسموا هذه الكتب المستدرك . ومن هذه المستدركات :

(أ) المستدرك لأبى عبد الله الحاكم النيسابورى (٤٠٥) هـ .

استدرك فيه على البخارى ومسلم أحاديث صحيحة على شرطيهما أو شرط أحدهما وحده . وهو كتاب حوله كلام حيث تساهل فى تطبيق الشروط على بعض الأحاديث .

ولهذا فإن العلماء لايقرون صحة حديث رواة المستدرك للحاكم إلا اذا كان الحافظ أبو عبد الله الذهبى قد أقره لأن الذهبى تعقب الحاكم فى كتاب ورتب الحكم على الأحاديث فوجد فيها أغلاطا ولهذا فقد اختصر الذهبى المستدرك إنصافا للحديث والرواية معاً .

(ج) كتب فيها الصحيح وغيره :

سنن أبي داود ، سنن النسائي ، سنن الترمذى ، سنن ابن ماجه ، الموطأ ، سنن الإمـام أحمد بن حنبل،صحيح ابن خزيمة ، صحيح ابن حبان .

وسوف تأتى دراسات كاملة لهذه الكتب فيا بعد إن شاء الله .

* * *

مراتب الحديث الصحيح

رتب العلماء الأحاديث الصحيحة كالآتى :

أولا : الأحاديث التى اتفق عليها الشيخان وقد جمعها المرحوم الأستاذ فؤاد عبد الباقى فى كتاب سماه : « اللؤلؤ والمرجان فيا اتفق عليه الشيخان » .

ثانياً : ما انفرد به البخارى .

ثالثاً : ما انفرد به مسلم .

رابعاً : الموطأ .

خامساً : مسند الإمام أحمد .

سادساً : الجامع للترمذى.

ثامنـاً : سنن النسائى .

تاسعاً : سنن ابن ماجه .

وما تبقى من الكتب فتلحق درجته بواحد مما هو فى درجته من هذه المصنفات المباركة .

* * *

ثانياً : الحديث الحسن

تعريفه : أضبط ما قاله العلماء فى التعاريف الكثيرة أن الحديث الحسن هو :

ما رواه عدل ، قل ضبطه ، متصل السند ، غير معلل ولا شاذ ،

فهو كالحديث الصحيح مع فارق واحد هو : « قلة الضبط » .

وينقسم الى قسمين :

حسن لذاته : وهو ما مر تعريفه ، وهو الصحيح لغيره كذلك :

وحسن لغيره : وهو ما تقوى بطريق آخر مساو له أو طرق أدنى منه .

• • •

مثال الحديث الحسن لذاته :

• روى أبو ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (أخرجه الترمذى وقال حديث حسن) .

• روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل فان مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله : من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » . أخرجه الترمذى وقال : حديث

حسن . (معنى فواق ناقة : زمنا يساوى الفترة بين حلبتيها لأن فواق الناقة هو الزمن بين الحلبة الأولى والثانية) .

مثال الحديث الحسن لغيره :

• ما رواه عيسى بن يونس عن (مجالد) بن أبى الوداك عن أبى سعيد قال : « كان عندنا خمر ليتيم فلما نزلت آية المائدة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنه يتيم . فقال صلى الله عليه وسلم أهريقوه » هذا الحديث أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن مع أن مجالد ضعيف عند العلماء .

ولكن لما روى هذا الحديث بطريق آخر من حديث أنس رضى الله عنه فقد ارتفع الحديث الى درجة الحسن لكن لغيره .

• ومنه حديث : « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً بعث يوم القيامة فقيها » أخرجه أبو نعيم فى كتابه (الحلية) .

وقد روى من طرق أخرى عن : ابن مسعود ، وابن عباس ، وأنس ، ومعاذ ، وأبى هريرة ، بروايات أخرجها ابن الجوزى فى كتابه « العلل المتناهية » .

• على أن بعض المتأخرين يروى أن الأحاديث الضعيفة لاترقى إلى درجة الحسن بكثرة تعدد الروايات والأسانيد ، لأن الضعيف لايقوى الضعيف . وهو رأى جديد فى العلم لأن الإمام أحمد بن حنبل كان يأخذ بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الأخلاق ، وضعف السند لايضر صحة المعنى لاسيا إذا اتفقت مع أصول الإسلام ومبادئه . كما أن قوة السند لاتعنى من رد المتن إذا كان لايتفق مع أصول الإسلام ومبادئه الصريحة . والتأويل باستعمال العقل والتحايل لايدخل معنا فى قضية أساسها الجرح والتعديل القائم على الأصول والأسس المعروفة عند أهل الحديث . وإنه لمن التنطع حديثاً أن يجرأ العلماء على الافتيات فى مسائل لم يقرها السلف الكريم .

ما يفيد الحديث الحسن :

ذهب كثير من العلماء الى أن الحديث الحسن كالصحيح فى اعتباره حجة فى العمل والدين . وعلتهم فى ذلك وحدة الصفات ، صفات القبول فى الصحيح والحسن مع التفاوت اليسير فى عدم تمام الضبط واتحاد العدالة والاتصال وعدم الشذوذ والعلة . وهذا كاف فى القول بالتساوى الرتبى فى العمل بهما .

الكتب التى يوجد بها الحديث الحسن :

- الجامع الصغير للإمام السيوطى .
- سنن الترمذى ؛
- مصابيح السنة للبغوى ؛
- سنن ابن ماجه ؛
- سنن النسائى ٥

بيان القسم الثانى

الحديث الضعيف

عرفنا أن الحديث المقبول هو ما اجتمعت فيه مواصفات خمسة هى :

١ – اتصال السند ؛

٢ – عدالة الراوى ؛

٣ – تمام ضبطه ؛

٤ – عدم الشذوذ ؛

٥ – عدم وجود علة قادحة .

وبمقدار تحقق هذه المواصفات يكون الحديث صحيحاً أو حسناً سواء كان لذاته أو لغيره :

أما إذا انحرفت هذه المواصفات فقد صار الحديث أقرب إلى الضعف ، ومن حالات الضعف الناشئة عن فقدان صفة من الصفات الخمس السالفة تكون أقسام الحديث الضعيف .

الحديث الضعيف
الذى فقد شرط الاتصال

إذا فقد الحديث صفة اتصال السند نتج عن ذلك عدة أنواع من الحديث وهى :

المعلق ، المنقطع ، المعضل ، المرسل ، المدلس :

* * *

١ ـ الحديث المعلق :

تعريفه : هو ما حذف من مبتدأ إسناده راو فأكثر ولو إلى آخر الاسناد .

مثاله : أن سيدنا مالك رضى الله عنه له طريق فى الرواية هو : مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذا قال مالك : عن ابن عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك تعليقا .

والحديث المعلق به حالتان :

الأولى : القبول بشرط أن يكون الرواة المحذوفون معروفين بالعدالة والضبط كما مثلنا لذلك فى رواية مالك :

الثانية : عدم القبول وذلك عند عدم معرفة العدالة والضبط فى المحذوفين.

ولا يكفى فى القبول أن يقول الراوى : المحذوفون ثقة عندى أو عند

غيرى ، اللهم إلا إذا عرف الراوى بأنه عدل تام الضبط مثل مالك والشافعى والبخارى ومسلم .

مثال الحديث المعلق :

ما رواه البخارى فى كتاب البيوع :

ويذكر عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا بعت فكل ، وإذا اشتريت فاكتل** » (راجع كتاب البيوع فى متن البخارى وراجع مقدمة فتح البارى ص ١٦) .

* * *

٢ – الحديث المنقطع :

تعريفه : هو ما سقط منه راو واحد فى موضع واحد قبل الصحابى لا على التوالى أو ذكر فيه رجل مبهم .

وقيل : هو مالم يتصل إسناده ولو سقط منه أكثر من واحد .

وأكثر الأحاديث المنقطعة هى التى يرويها التابعون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مثاله : روى أبو داود عن يونس عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو على المنبر : « **يا أيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً ، لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف** » .

فكان الانقطاع هنا : هو فى رواية ابن شهاب عن عمر لأن ابن شهاب لم يدرك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يتصل السند ولم يذكر ابن شهاب عمن أخذ الحديث عن عمر .

* * *

٣ ـ الحديث المعضل :

تعريفه : هو ما سقط من سنده اثنان فأكثر على التوالى سواء كان السقوط من مبدأ السند أو من منتهاه أو من أثنائه :

مثـــاله :

• ما روى الأعمش عن الشعبي قال : « **يقال للرجل يوم القيامة عملت كذا وكذا ، فيقول : لا . فيختم على فيه** » .

مكان العضل هنا سقوط الصحابى الذى روى الحديث ، ولا النبي صلى الله عليه وسلم :

• وما رواه مالك رضى الله عنه : بلغنى أن أبا هريرة قال : قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق** » مكان العضل فيه سقوط محمد بن عجلان عن أبيه الذى روى عن أبى هريرة كما عرف ذلك من طريق آخر .

* * *

٤ ـ الحديث المرســـــل :

تعـــريفه :

(أ) هو ما سقط منه الصحابى ، كأن يقول التابعى : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » من غير ذلك الصحابى . والتابعون الذين لهم حق فى رفع الحديث الى النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم :

سعيد بن المسيب ، عبيد الله بن عدى ، قيس ابن أبى حازم ، يحيي ابن سعيد ، سلمة بن دينار .

(ب) وعند علماء الأصول : الحديث المرسل هو : ما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم غير الصحابى سواء كان تابعياً أو غير تابعى :

مثـــاله :

* حديث الشافعي قال : أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نهى عن بيع اللحم بالحيوان » .

وروى أبو داود فى مراسيله عن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المكر والخديعة والخيانة فى النار » .

حكم العمل بالحديث المرسل :

(أ) رأى الجمهور :

ذهب جمهور العلماء من أهل الحديث ومعهم الأصوليون إلى أن الحديث المرسل لايؤخذ به .

قال الإمام مسلم فى مقدمة كتابه : المرسل من الروايات فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ، ليس حجة (راجع مقدمة كتاب الجامع الصحيح لمسلم ص ٣٠ ج ١) .

وعلة ذلك : جهالة حال الراوى المحذوف لاحتمال أن يكون الراوى الذى سقط ليس صحابياً فيكون فاقداً لشرط العدالة فى الراوى (راجع التقريب للنووى ص ٦٦ والنخبة للحافظ ص ٧٧) .

وهذا فى غير مرسل الصحابى . أما مرسل الصحابة فإنه محل احتجاج به عند علماء الأصول لأنهم كلهم عدول .

* * *

(ب) رى الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وأبو حنيفة :

يرى هؤلاء الأئمة وهم أهل فقه وحديث معا أن الحديث المرسل يحتج به فى أمور الدين ، لأن التابعي الذى أرسل سند الحديث جزم بعدالة من

أسقطه لأن غالب رواية التابعين إنما هي عن الصحابة ويشهد لهذا مايحكى عن الحسن البصرى رضي الله عنه أنه قال : إنما أطلقه إذا سمعته من سبعين من الصحابة .

(ح) رأى الإمام الشافعى :

وذهب الشافعى رضي الله عنه إلى أن مراسيل كبار التابعين وهم الذين كثرت رواياتهم عن الصحابة يؤخذ بها إذا اكتملت فيها الشروط التالية :

(أ) أن يرد الحديث من وجه آخر ولو مرسلا .

(ب) عدم مخالفة رواة المرسل فيما يروونه من حديث مرسلا .

(ج) أن يكون المحذوف ثقة بحيث لو سماهم الراوى المرسل عرفوا بهذا .

(د) أن يعضد الحديث المرسل بقول صحابى أو يفتى به أكثر العلماء.

هذا وقد قبل الإمام الشافعى مراسيل سعيد بن المسيب وقال فيها :

« وإرسال ابن المسيب عندنا حسن » .

ومراده من الحسن هنا أن مراسيل ابن المسيب حجة إما للأخذ بها فى أدلة الشرع أو للاستئناس بها والترجيح عليها .

٥ — الحديث المدلس :

والتدليس ثلاثة أشياء :

١ — تدليس فى الإسناد .

٢ — تدليس بوصف الشيخ بغير ما اشتهر به .

٣ — تدليس بالتسوية وهى إسقاط الأضعف .

بيـــان ذلك :

١ — الحديث المدلس إسناداً :

هو أن يروى عمن عاصره ولقيه حديثاً لم يسمعه منه بلفظ يوهم أنه سمعه منه وذلك كأن يقول : عن فلان ، أو قال فلان دون أن يصرح بالسماع منه .

فاذا روى غير المعاصر له لم يكن تدليسا .

مثاله : قول على بن خشرم : كنا عند سفيان بن عيينة فقال : قال الزهرى : كذا ، فقيل له : أحدثكم الزهرى ؟ فسكت ثم قال : وقال الزهرى ، فقيل له : سمعته من الزهرى ؟ فقال : لا لم أسمعه من الزهرى ولا ممن سمعه من الزهرى حدثنى عبد الرازق عن معمر عن الزهرى .

محل الشاهد : أن سفيان بن عيينة عاصر الزهرى ولقيه ولكنه لم يسمع منه لكن الذى سمع من الزهرى هو معمر والذى سمع من معمر عبد الرازق فادعاء على ابن خشرم أنه سمع من سفيان تدليس من على بن خشرم وهذا مرض فى نفوس بعض الناس ممن يحبون التباهى بالنسبة الى مجلس كبار العلماء ويفتاتون عليهم بفتاوى وأقاويل مدلسة وغير صحيحة .

وهذا النوع من التدليس هو ما قيل فيه : التدليس آخر الكذب .

هذا وقد قال العلماء أن من عرف بارتكاب التدليس ولومرة صار مجروحاً مردودا فى الرواية حتى وإن بين السماع .

٢ — الحديث المدلس بوصف مغاير للشيوخ :

هو أن يصف الراوى شيخه الذى سمع منه الحديث بوصف لم يشتهر به : من اسم أو كنية ، أو قبيلة ، أو بلدة ، أو صفة من كل ما يوهم اللقاء ، أو الرحلة ويساعد على تعمية أمره .

مثاله : ما قاله أحد أئمة القراءات : أبو بكر بن مجاهد : حدثنا أبو عبد الله بن عبد الله وهو يريد أبا بكر السجستانى :

وقوله أيضاً : حدثنا محمد بن سند ، وهو يريد أبا بكر بن حسن النقاش المفسر فنسبه الى أحد أجداده وهو (سند) ولم ينسبه الى أبيه وهو الاسم الذى اشتهر به .

وعيب هـذا التدليس :

فيه تضييع للمروى عنه بعدم معرفة حاله :

وفيه تضييع للحديث المروى منه إذ يصير بعض رجاله مجهولا :

وهذا التدليس أخف من الأول ، والحكم عليه أخف .

٣ ـ الحديث المدلس بالتسوية :

ويسمى هذا الحديث مدلس التسوية وهو :

ما رواه المحدث عن ضعيف بين ثقتين لقى أحدهما الآخر فأسقط الضعف فأوهم أن الرواية ثقة عن ثقة .

ومن الذين فعلوا هذا : الوليد بن مسلم لأنه كان يحذف شيوخ الأوزاعى الضعفاء ويبقى الثقات .

فالتدليس يرد الحديث لما يلحقه به من الغرر والوهم سواء كان التدليس بإسقاط الأضعف الذى يوهم الرواية عن الثقة .

أو كان بتغيير وصف الشيخ أو بلده أو إضافة راو لم يسمع عنه أو أتى بلفظ يفيد السماع ولم يكن قد سمع عمن يروى عنه . . . إلخ ٥

٥ ٥ ٥

الحديث الضعيف
الذى فقد شرط العـــدالة

إذا فقد الحديث شرط العـــدالة تولد من ذلك عـــدة أنواع من الحديث منها .

١ ــ الحديث الموضوع .
٢ ــ الحديث المتروك .
٣ ــ الحديث المنكر .
٤ ــ الحديث المطروح .
٥ ــ الحديث المضعف .

١ ــ الحديث الموضوع :

الحديث الموضوع ليس حديثاً بالحقيقة ولكنهم أطلقوا عليه حديثاً مع أن نسبته غير صادقة وغير صحيحة فإنه متقول على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،لأن الحديث الموضوع مجازاً كاذباً معدود من قبيل الحديث ، والذى فضحه قواعد المحدثين فى ضبط السنة الشريفة .

وأحب أن أنبه إلى نقطتين :

الأولى : أن الوضع لم يكن ألبتة فى عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ولم يكن كذلك فى عصر الصحابة بل ظهر مع الفرق من بعض المتعصبين مذهبياً للفرق التى أظهرها الخلاف السياسى فيما بعد .

الثانية : أن النبى صلى الله عليه وسلم حذر من مغبة التهجم على الحديث

الشريف بالوضع فقال عليه السلام : « إن كذباً على ليس ككذب على أحد . من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (رواه مسلم المقدمة باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١٠ تحقيق فؤاد عبد الباقى رحمه الله) .

تعريف الحديث الموضوع :

هو الكلام الكذب المختلق المصنوع .

وهو شر ما ينسبه ماجن أو مستهتر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

علامات الوضع فى الحديث :

١ — إقرار الواضع مثل : اعتراف ميسرة بوضعه لبعض أحاديث فى فضائل القرآن . واعتراف عمر بن صبح بوضعه خطبة نسبها إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ — روايته عن شيخ مات قبل أن يعرفه .

٣ — أن يكون الراوى متمذهبا بنحلة معروفه بصنع الموضوعات .

٤ — أن يكون صاحب هواية فى وضع الحديث وتلفيق الحوادث مثل : سعد بن ظريف لما جاء ولده يبكى فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم ، فقال أبو سعد : والله لأخزينهم اليوم . ووضع حديثاً من مزاجه الخاص فادعى أن عكرمة حدث ابن عباس بحديث مرفوع لفظه : معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين ،

٥ — ركاكة اللفظ والمعنى ، فالمشتغلون بالسنة يدركون للحديث ضوءاً كضوء النهار وعبيرا كرياض الروض المزهر ويحسون بالوضع كالليل المظلم والريح الخبيث .

٦ — أن يتنافى مع القرآن الكريم والحديث الصحيح .

٧ — أن يدل على إفراط فى الثواب أو العقاب .

٨ — أن يستعصى على تأويل العقل ويتنافى مع ما يدركه الحس الصادق. يقول ابن الجوزى : إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع .

لماذا وضعوا الأحاديث :

١ — محاولة إفساد عقيدة المسلمين وبث الفتن والضعف فى الشريعة السمحة . مثاله ما فعله بيان ابن سمعان الهندى الذى ظهر فى العراق بعد المائة وادعى ألوهية على بن أبى طالب .

ومثاله : ما وضعه محمد بن سعيد الأسدى الشامى : أنا خاتم النبيين لانبى بعدى إلا أن يشاء الله .

فتلك دعوة إلى نبوة جديدة بعد أن ختمها الله بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى دعوة كاذبة .

٢ — التكسب والارتزاق واستجلاب عطف العامة لابتزاز أموالهم مثاله : ما فعله أبو سعيد المدائنى .

٣ — مافعلته فرقة من غلاة الشيعة تنسب الى خطاب الأسدى ١٤٣هـ الذى كان يقول بالحلول ويأمر أتباعه بشهادة الزور (راجع فتح المغيث جـ١ ص ٦٣٨ ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة) .

٤ — التقرب من الملوك مثاله : دخل غياث بن ابراهيم على المهدى العباسى وكان يحب الحمام فحدث غياث بحديث رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم (لاسبق إلا فى نصل أو خف أو حافر — أو جناح —)والحديث بغير زيادة (أوجناح) صحيح فى نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فلما خرج غياث قال المهدى : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أمر بذبح الحمام ورفض الزيادة فى الحديث التى وضعها غياث .

حكم الوضع فى الحديث :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

* وقد أجمع المخلصون من علماء الأمة أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى تسلك بصاحبها سبيل جهنم والعياذ بالله .

أما الكرامية وهم قوم من المبتدعة ينتسبون إلى شخص يدعى : محمد بن كرام فقد قالت : نحن نكذب له لا عليه، وهو وهم ومحض افتراء لأن الكذب له مثل الكذب عليه فى نسبة ما لايقوله إلى حضرته النبوية عليه الصلاة والسلام .

هـــذا :

* وقد فصل بعض العلماء القول فى مسألة الوضع فقالوا : إذا كان الحديث الموضوع فى العقائد فالواضع كافر .

فاذا كان الوضع فى فضائل الأخلاق فقط فالواضع آثم .

* أما أبو محمد الجوينى والد إمام الحرمين فقد حكم بكفر من يتعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم فى أى معنى من المعانى . لأن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم كالكذب على الله تبارك وتعالى .

حكم رواية الحديث الموضوع :

ينص الحديث الشريف : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين» ينص : على أن رواية الحديث المختلق الموضوع غير جائزة بمعنى أنه لايجوز للمرء العارف بالحديث الموضوع أن يرويه على أنه حديث.

أما إذا أراد التنبيه على وضعه وأنه ليس حديثاً فهذا واجب يلزمه

الوفاء للسنة الشريفة غير أنه واجب العلماء المعنيين بدراسة السنة والعارفين لأصناف الحديث وأبواب العلم ومنهج الضبط ، وليس ذلك من حق كل واحد حتى لاتفسد الحلبة ويكثر الخصام من غير أهل العلم والذكر .

• • •

جهود العلماء فى تنقية السنة

من الحديث الموضوع

لقد شمر علماء الإسلام عن سواعد الجد ونهضوا للدفاع عن الحديث الصحيح السليم ونقوا السنة من الوضع الكاذب المفترى :

(أ) فوضعوا قواعد للجرح والتعديل تتعلق بأحوال الرواة وحددوا صفات من تقبل رواياتهم ومن ترد رواياتهم .

(ب) وضعوا ضوابط للمتن من حيث اتفاقه مع قواعد الإسلام وعدم مخالفته لما يرويه الثقات أو إمكان قبول العقل له وعدم المغالاة والإفراط فى الثواب والعقاب .

(ج) صنفوا فى ذلك الكتب الخاصة بالموضوعات حتى يميزوا الجيد من الردىء والصحيح من الموضوع .

ومن أشهر هذه الكتب الخاصة بالموضوعات :

١ ــ كتاب الأباطيل لأبى عبد الله الحسين بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

٢ ــ كتاب الموضوعات الكبرى (استدرك ابن حجر على موضوعات ابن الجوزى ٢٤ حديثاً عدها من الموضوعات وهى صحيحة رواها أحمد ابن حنبل) لأبى فرج عبد الرحمن ابن على الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

٣ — اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للحافظ السيوطى المتوفى سنه ٩١١ هـ .

٤ — تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبى الحسن على بن عراق الكنانى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ .

٥ — الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للقاضى عبد الله محمد ابن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .

٢ — الحديث المتروك :

تعريفه : هو الحديث الذى تفرد به راو مجمع على ضعفه اتهمته بالكذب أو لفحش غلطه أو لكثرة غفلته ، أو لظهور فسقه .

* * *

٣ — الحديث المنكر :

تعريفه : هو الحديث الذى تفرد بروايته ضعيف خالف فيه الثقات .

* * *

٤ — الحديث المطروح :

تعريفه : هو الحديث الذى رواه كاذب لم يظهر كذبه فى الحديث. فطرح الحديث لعلة كذبه العام ولو أنه لم يكن كاذباً فى رواية الحديث ويوجد من مثل هذا النوع فى سنن ابن ماجه ، والترمذى .

* * *

٥ ـ الحديث المضعف :

تعريفه : هو الحديث الذى ذكر بعض أهل العلم ضعفاً فى رجاله أو فى متنه وذكر الآخرون تقوية فيهم أو فى متنه .

فهو من أعلى مراتب الضعيف ، وأقل منه المطروح .

* * *

الحديث الضعيف

الذى فقد شرط الضبط

إذا فقد الحديث شرط الضبط تولد من ذلك عدة أنواع للحديث منها :

١ ـ الحديث المدرج :

٢ ـ الحديث المقلوب :

٣ ـ الحديث المضطرب :

٤ ـ الحديث المصحف .

١ ـ الحديث المدرج ،

تعريفه : هو الذى أدخل فى متنه أو سنده ما يوهم أنه منه وليس كذلك .

أو هو : ما كانت فيه زيادة ليست منه :

أقسامه :

وينقسم إلى قسمين :

ـ مدرج فى المتن :

ـ مدرج فى السند .

(أ) الحديث المدرج فى المتن :

هو الحديث الذى أضيف إليه زيادة من كلام بعض الرواة يتوهم أنها منه .

وهذه الزيادة قد تأتى فى الأول ، أو فى الوسط ، أو فى الآخر وهو الأغلب .

• مثال المدرج فى أول الحديث :

أسبغوا الوضوء « **ويل للأعقاب من النار** » .

فجملة أسبغوا الوضوء مدرجة من كلام الراوى ، لكنها تفهم من أصل الحديث وهو : **ويل للأعقاب من النار** .

والذى عرفنا بهذا الإدراج هوالإمام البخارى حيث روى الحديث هكذا : « **ويل للأعقاب من النار** » .

• مثال المدرج فى الوسط :

وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد .

فقوله : وهوالتعبد إدراج فى الرواية مفسر لقوله فيتحنث فيه لأن معنى يتحنث يتعبد .

مثال المدرج فى آخر الحديث :

لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا (ولاتنافسوا).

فلفظة : ولاتنافسوا مدرجة من الراوى ،وقد وردت فى متن حديث آخر لفظه : « **إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا** » (المنهج الحديث فى علوم الحديث للشيخ محمد محمد السماحى) .

(ب) الحديث المدرج فى السند :

ويقع على ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يكون عند الرواى حديثان فيأتى راو آخر ويجعل إسناد الحديث الأول للثانى وإسناد الحديث الثانى للأول .

مثاله : حديث : « **لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ولا تدابروا** » ليس فيه ولاتنافسوا فأدخلها الراوى من متن حديث آخر وجعلها فى عداد هذا الإسناد مع أنها من حديث آخر بسند آخر .

الحالة الثانية : أن يكون هذا الحديث الواحد له عدة أسانيد مختلفة فيأتى راو واحد ويجمع هذه الأسانيد فى سند واحد من غير توضيح أنها عدة أسانيد .

مثاله : ما روى من طريق ابن مهدى عن سفيان الثورى عن واصل الأحدب ومنصور والأعمش عن أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود قال : **قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »** . فان رواية واصل هذه مدرجة على رواية منصور ، والأعمش لأن واصلا يروى عن أبى وائل عن ابن مسعود مباشرة ولايذكر عمرو بن شرحبيل .

والذى أظهر هذا الإدراج رواية البخارى التى لم يأت فيها بذكر لعمرو بن شرحبيل ، إذن الإسناد قد تعدد ولم يشر الراوى إلى هذا التعدد .

الحالة الثالثة : أن يسوق الراوى الإسناد ثم يعرض له عارض فيقول كلاماً من عند نفسه فيظن السامع أن هذا الكلام متن لذلك السند ثم يرويه على أنه كذلك .

مثاله : أن شريكا وهو من علماء الحديث كان يملى فى درسه فدخل ساعة الإملاء ثابت بن موسى ، وكان زاهداً ورعا فسكت بعد أن ابتدأ الإملاء بقوله : حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم توجه الى ثابت بن موسى وقال له : من

كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، يقصد بذلك الثناء على تعبد ثابت لـكن ثابتاً ظن أن ذلك حديث فرواه بالاسناد الذى سكت عنده الشيخ شريك .

كيف يعرف الإدراج فى الحديث ؟ :

يعرف الإدراج فى الحديث بإحدى هذه الوسائل :

(أ) الرواية عن الثقة التى ليس فيها هذه الزيادة .

(ب) أن تكون العبارة شرحاً لكلمة غريبة فى الحديث :

(جـ) النص من الراوى على أن هذه الزيادة من عنده .

(د) استحالة أن يصدر مثل العبارة المدرجة فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم .

لماذا يدرج الرواة ألفاظاً فى الحديث ؟ :

قد يحتاج الراوى لإدراج كلمة فى الحديث لتفسير كلمة غريبة أولتفسير كلمة لغوية أو بيان حكم شرعى .

حكم الإدراج :

• إذا كان الإدراج لتفسير كلمة غريبة توضح المقصود من متن الحديث فلا بأس بذلك .

• أما إذا قصد التلبيس على السامع فهذا حرام . قال ابن السمعان : « من تعمد الإدراج فهو ساقط العدالة ، وكان ممن يحرفون الكلم عن مواضعه » . (١)

(١) احع فى ذلك « قواعد التحديث ، توضيح الأفكار » تعليق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، وتدريب الراوى للسيوطى « والباعث الحثيث » لابن الصلاح « وشرح نخبة الفكر مع حاشية لقط الدور» .

أما من أخطأ لعدم الضبط دون فحش فى ذلك فلا حرج عليه .

٢ – الحديث المقلوب :

تعريفه : هو ما دخله قلب فى متنه أو سنده .

أقسامه : ينقسم إلى قسمين :

– قلب فى السند .

– قلب فى المتن .

الحديث المقلوب فى السند :

له عدة صور منها :

١ – أن يؤخذ سند فيجعل على متن آخر والعكس سليم ،وقد وقع هذا من العلماء عندما أرادوا إفحام إمامة الإمام البخارى فأتوا إليه بمائة حديث وقلبوا أسانيدها فجعل رحمه الله يرد كل متن إلى سنده الصحيح فأفحمهم وبقيت للبخارى الإمامة فى الحديث .

٢ – أن يقدم أو يؤخر فى الأسماء فيقول مثلا : عن كعب بن مرة والصحيح عن مرة بن كعب .

٣ – أن يبدل الراوى براو آخر كأن يكون الحديث عن سالم بن عبد الله فيجعله عن نافع .

الحديث المقلوب فى المتن :

مثاله : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .
قلب فروى هكذا :

«إذا أمرتكم بشىء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ما استطعتم »

ومثاله : ما رواه مسلم فى « السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله » فقد جاء فى هذه الرواية : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » . والصحيح : حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

ونص الحديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (متفق عليه) .

٣ ــ الحديث المضطرب :

تعريفـــه : هو الحديث الذى لا يمكن الترجيح بين طرقه المتساوية فى الدرجة مع اختلافها فى الرواية .

مثاله حديث : « تفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة » .

فقد اختلفت الروايات : قال بعضها كلهم فى النار إلا واحدة . وقال بعضهم كلهم ناج إلا واحدة . والحديث المضطرب مردود لعدم إمكان الترجيح بين الروايات ، المختلفة المعانى المتحدة فى درجة الأسانيد المتعددة .

٤ ــ الحديث المصحف :

التصحيف تغيير فى الشكل أو الحرف .

مثاله : ما رواه ابن لهيعة عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم فى المسجد .

التصحيف فى حرف الميم وصحتها « احتجر فى المسجد بخص وحصير حجرة يصلى فيها » .

ومثاله : حديث شعبة عن العوام بن مراحم عن أبى عثمان المهدى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها » .

والحديث صحف فيه يحيي بن معين فقال ابن مزاحم : (بالزاى والحـــاء) .

• • •

الحديث الضعيف

الذى فقد شرط عدم الشذوذ أو العـــلة

إذا فقد الحديث شرط عدم الشذوذ ، كان الحديث شاذاً أو كان معللا أو معلولا .

(أ) تعريف الحديث الشاذ :

والحديث الشاذ هو : ما رواه ثقة يخالف ما رواه الناس . والشذوذ قد يكون فى السند ، وقد يكون فى المتن .

مثال الشذوذ فى المتن :

ما رواه أبو داود والترمذى من حديث عبد الواحـــد ابن زياد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً « إذا صلى أحدكم ركعتى الفجر فليضطجع عن يمينه » فالحديث يفيد خطاباً موجهاً من النبى صلى الله عليه وسلم الى المسلمين . لكن العدد الكثير رووا هذا الحديث على أنه من فعل النبى صلى الله عليه وسلم . فعبد الواحد وهو ثقة خالف العدد الكثير فى متن الحديث .

مثال الشذوذ فى السند :

ما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من طريق ابن عيينة عن عمرو ابن دينار عن عوسجة عن ابن عباس « أن رجلا توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يدع وارثاً إلا مولى هو أعتقه . فقال عليه السلام : هل له أحد ؟ . قالوا : لا . إلا غلام أعتقه . فجعل صلى الله عليه وسلم ميراثه له » .

تابع ابن عيينة جريج فى وصل هذا الحديث إلى ابن عباس ، لكن حماد بن زيد خالفهم فرواه عن عمرو ابن دينار عن عوسجة ولم يذكر ابن عباس .

وحماد بن زيد من أهل العدالة والضبط ، فهو ثقة . فيكون طريق ابن عيينة فيه شذوذ .

• • •

(ب) تعريف الحديث المعلل :

هو الحديث الذى اطلع فيه على علة قادحة مع أن الظاهر سلامته منها .

ويسمى الحديث المعلول ، أوالمعلل .

والعلة القادحة تكون خفية لايدركها إلا النقاد البصراء أصحاب الملكة النقية ولهذا قال ابن حجر : المعلل من أغمض أنواع علوم الحديث وأدقها ولا يقوم به إلا من رزقه الله تعالى فهما ثاقباً وحفظاً واسعا ومعرفة تامة بمراتب الرواة وملكة قوية بالأسانيد والمتون .

ولهذا لم يتكلم إلا القليل من أهل الحديث منهم : على بن المدينى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى ، ويعقوب ابن أبى شيبة ، وأبو حاتم ، وأبو زرعة ، والدارقطنى (راجـــع شرح النخبة وكتاب العلل لابن أبى حاتم) .

كيف تعرف العـــلة ؟ :

أن يجمع الحافظ طرق الحديث ويستقصيها ويدرس أحوال الرواة من خلال معرفة مكانتهم من الضبط والإتقان ، فيظهر له بعد طول البحث والنظر ما خفى من العلل سواء كانت العلة بالإرسال فى الحديث الموصول أو التدليس فى المتن أو فى السند أو فى قلب الأسانيد .

هذا : وقد قال المجربون العارفون بهذه الفنون الدقيقة أن أكثر العلل تكون فى السند :

ومثال ذلك حديث : « البيعان بالخيار ما لم يفترقا » .

الحديث صحيح لكن إسناده فيه ، علة وهى أن راويه يعلى بن عبيد قد غلط فى قوله عمرو بن دينار والصحيح أنه عبد الله بن دينار .

وهكذا تدركون صعوبة الافتيات على أهل الحديث، وصعوبة الخوض فى مسائل العلم التى حررها العلماء السابقون بالجهد المضنى ، والعلم المخلص الدائب . والنية الصادقة ، والقصد الأمين . وبالله التوفيق .

* * *

آراء العلماء فى الأخذ بالحديث الضعيف

إذا فقد الحديث صفات القبول التى هى :

الاتصال ، والعدالة ، والضبط ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلة ، ولم يكن حسناً وبالطبع لن يكون صحيحاً سمى الحديث ضعيفاً على نحو ما شرحناه سالفاً .

وبقى علينا أن نعرف آراء العلماء فى العمل بالحديث الضعيف . والآراء فى ذلك مذاهب ثلاثة :

المذهب الأول :

أن الحديث الضعيف لايعمل به مطلقاً سواء كان ذلك فى الأحكام الشرعية أو فى الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال .

وإلى هذا ذهب الإمام مسلم الذى شنع فى مقدمة صحيحه على رواة الأحاديث الضعيفة والمنكرة . قال مسلم : « باب النهى عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط فى تحملها » ثم روى حديثاً بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم وآباؤكم فإياكم وإياهم** » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما كنا نحفظ الحديث ، والحديث يحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما إذا ركبتم كل صعب وذلول فهيهات (راجع مقدمة مسلم جـ ١ ص ١٢ باب النهى عن الرواية عن الضعفاء) .

وكذلك رأى الإمام البخارى الذى أكثر من التدقيق فى شرائط قبول الحديث أكثر من مسلم حيث اشترط المعاصرة واللقاء والسماع (راجع قواعد التحديث ، القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوى والأجوبة الفاضلة تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة) .

المذهب الثـــانى :

أن يعمل به مطلقاً فى العقائد وفى الشرائع وفى فضائل الأعمال إذا لم يوجد غيره .

روى السخاوى هذا الرأى فى كتابه : فتح المغيث بشرح ألفية الحديث .

وعزا ذلك الرأى إلى الإمام أحمد بن حنبل وتبعه فى ذلك أبو داود فقد أثر عن الإمام أحمد قوله : ضعيف الحديث عندنا أحب من رأى الرجال (راجع القول البديع ، والأجوبة الفاضلة ، وقواعد التحديث) .

غير أن العلماء قالوا أن الضعيف فى رأى الإمام أحمد هو ما يقابل الحسن . إذ هو المقابل للصحيح فى التقسيم القديم عند كبار القوم فيما مضى ، قال ابن القيم : وليس المراد بالضعيف عنده – يعنى الإمام أحمد بن حنبل – بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن ، ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف ، بل إلى صحيح وضعيف (راجع أعلام الموقعين جـ١) :

ولست مع ابن القيم ولا من يرى هذا الرأى لأن الإمام أحمد بن حنبل لايغيب عليه معنى الضعيف ، فأهل الحديث لهم ملكة يمنحها الله لهم ببركة النبوة . فإذا كان مسلم والبخارى قد وعيا معنى الضعيف على ما هو عليه الآن فليس من المعقول أن يكون الإمام أحمد لم يدرك معنى الضعيف بالمعنى الاصطلاحى الذى فهمه البخارى ومسلم إذ من الممكن أن يكون داخلا فى

الصحيح لاشتراكهما فى العدالة والضبط وعدم الشذوذ وعدم العلة والمفارقة فقط فى تمامها أو عدم تمامها .

وعلى هذا فالرأى عندى أن الضعيف فى إطلاق أحمد ابن حنبل هو الضعيف الاصطلاحى عند علماء الحديث ، والله أعلم .

المذهب الثالث :

الأخذ بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال والمواعظ والترغيب والترهيب لا فى العقائد والتشريعات .

أقول : والعقائد والتشريعات غنية بالأحاديث الصحيحة . والضعيف إن ساواه فهو لا يضر وإن خالفه فلا حاجة للعقائد به (انظر التقريب للنووى ، اختصار علوم الحديث لا بن كثير ، قواعد التحديث ، التبصير والتذكير شرح الألفية للعراقى) .

والله تعالى أعلى ، وأعلم وسبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخاتمة

أما بعـــد

فإن الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ٠٠ وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعـــين .

وقد انتهى التدوين الأولى لهذا الكتاب بإندونيسيا فى منزل السيد حسين ابن أحمد بن شهاب عصريوم السبت ١٦ من ربيع الآخر ١٣٨٥ ه الموافق ١٤ من أغسطس ١٩٦٥ م الساعة الخامسة وعشر دقائق ، وبالله التوفيق ؛ وكان الحبيب السيد على السقاف بجاكارتا قد نقل هذا الكتاب خطياً رحمه الله رحمة واسعة . ثم من الله على بمزيد من البحث حتى صار هكذا .

وصلى اللهم على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات وتقضى لنا بها جميع الحاجات ، وتطهرنا بها عن جميع السيئات ، وترفعنا بها عندك إلى أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات من الخيرات فى الحياة وبعد الممات وعلى آله وصحبه وسلم .

دكتور/ رءوف شلبي

متولى يوسف شلبي

الدوحة قطر ٥ من جمادى الآخرة ١٤٠٢ ه

٣٠ من شهر مارس ١٩٨٢ م

محتويات الكتاب

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضوع	صفحة
تقسيم الحديث بهذا الاعتبار	٣٥٥
الحديث المقبول	٣٥٧
الحديث الصحيح	٣٥٩
أقسام الحديث الصحيح	٣٦٢
هل يجب العمل بالحديث الصحيح	٣٦٦
الكتب الجامعة للحديث الصحيح	٣٦٩
مراتب الحديث الصحيح	٣٧١
الحديث الحسن	٣٧٢
الحديث الضعيف	٣٧٥
الذى فقد شرط الاتصال	٣٧٧
الذى فقد شرط العدالة	٣٨٥
جهود العلماء فى تنقية السنة من الحديث الموضوع	٣٨٩
الذى فقد شرط الضبط	٣٩٢
الذى فقد شرط عدم الشذوذ أو العلة	٣٩٩
آراء العلماء فى الأخذ بالحديث الضعيف	٤٠٢
الخاتمـــة	٤٠٥

مطبعة التقدم
ت : ٨٤١٤٢١

رقم الإيداع ٣٦٥٢ / ٨٢